٤٨

أحمد عرفة

ليلى أبو شحادة

رواية

دار اكتب للنشر والتوزيع





٤٨

٤٨
أحمد عرفة / ليلى أبو شحادة
تصميم الغلاف: أحمد مسعد
رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢١٨
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٢٩- ٧

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،المرج الغربية، القاهرة.
المدير العام : يحيى هاشم
هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨
هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥
E – mail :daroktob١@yahoo.com
Facebook : دار أكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية ، ٢٠١٣م

لماذا حبسوها؟

حين قالت إن وطني حَبلُ عَرَق..

وعلى قنطرة الميدانِ إنسانٌ يموتُ..

وظلام يحترق؟

محمود درويش ...



-الفصل الأول-

دقائق على وقت الفجر ...

تلك الساعة التي تعودت فيها أسيل أن تستيقظ دائمًا على صوت السكون ...

هل سمع أحدكم صوت السكون من قبل؟

في أي وقت وفي أي لحظة إن أرهفت السمع قليلاً فلا بد أن تسمع شيئًا ما .. أي شيء، ولكن أسيل اكتشفت يومًا وهي صغيرة تلك الساعة النادرة قُبيل الفجر بلحظات ...

إنها ساعة السكون ....

فتحت عينيها بتثاقل كأنها تنفض عنهما عتمة الليل الطويل.. اعتدلت من رقدتها وظلت صامتة قليلاً كأنها تنفض عن نفسها آثار النوم، ولكن ما أن عاد إدراكها إليها كاملاً حتى تدحرجت دمعة هاربة رفضت أن تنصاع لرغبتها في كبتها..ليتها لم تستيقظ لوفرت على نفسها عناء مواجهة هذا الألم الذي يمزّق قلبها.

تجولت بعينيها الذابلتين في أرجاء الغرفة بنظرات مترددة.

كانت تتحسس بنظراتها الهواء والأشياء .. أرادت أن تتأكد أنها مازالت قادرة على الإبصار وأن الدموع لم تُذهِب بصرها.

تحت علم فلسطين الذي وضعته على الطاولة الصغيرة بجانبها حين كانت طفلة في العاشرة من العمر..ما زال قابعًا في نفس المكان منذ أكثر من سبعة عشر عامًا.

لن تنسى ذلك اليوم حين عادت مع والدها من إحياء ذكرى النكبة الذي أقيم على أنقاض قرية البروة المهجرة..يومها أهداها والدها ذلك العلم ليبقى منحوتًا في واقعها كل صباح..

فهي ومهما تغيرت الأحوال ستظل فلسطينية ...

بصرها كان مشوشًا بعض الشئ..أغمضت عينيها كأنها تعصرهما من الدموع المتبقية من الليلة الماضية وحينما أعادت فتحهما أطالت النظر نحو ذلك العلم حتى استطاعت الفصل بين ألوانه الأربعة.

قامت بتثاقل من سريرها واتجهت إلى النافذة، فتحتها قليلاً؛ لتبدأ في الإنصات لأقرب الأصوات إلى قلبها...

هدير أمواج البحر...

بعد أن استنشقت الهواء البارد وداعب وجهها بلطف..عادت لتجلس قليلاً على السرير حتى تستطع الرؤية..جفونها المثقلة بالدموع المستعصية لم تساعدها على رؤية غرفتها بوضوح. الغرفة التي شهدت كل تفاصيل أيام حياتها.. من يوم ولادتها إلى ...

إلى تلك اللحظة المؤلمة ..

غرفتها هي الملجأ الوحيد الذي تلجأ إليه من زحمة حياتها. غرفة هادئة الألوان والتفاصيل فهي ترتاح جدًا للون سريرها البني..لون جذع الشجر الطبيعي. كانت أحب زوايا الغرفة لروحها تلك الزاوية حيث تقبع مكتبتها بجانب الباب..مكتبة مليئة بالكتب والروايات..منها المتعلقة بدراستها والأخرى تساعدها على الغوص داخل ذلك العالم الساحر عالم الكتب، فتبحر بعيدًا عن ضغوطات الحياة، ولكن ذلك الصباح لم تستطع تلك الكتب تطبيب جراحها ولن تستطيع كتب العالم كلها مساعدتها على الهروب من واقع مرير.. واقع جعل قلبها يترف.

في كل صباح ومنذ سنتين تحديدًا اعتادت أن ترفع يدها اليمنى لتلقي التحية على دبلتها الذهبية لتتأكد حين تراها أنها ما زالت...

على قيد الحياة...

كان كمال بالنسبة لها هو الحياة ذاتها، لكن اليوم لم تكن هناك أية دبلة..

بنصرها كان عاريًا ...

تحسست مكان الدبلة المفقودة و لم تستطع المقاومة فاجهشت بالبكاء.

تمالكت نفسها بصعوبة، ورفعت عينيها باتجاه مرآتها التي تعكس ملامحها الهادئة كل صباح قبل أن تقوم من سريرها..المرآة التي كانت تحتضن في إحدى زواياها صورتها هي وكمال وهو يضع الدبلة في إصبعها لتكون تلك الصورة أول شئ تراه عند استيقاظها وآخر شئ يقع عليه نظرها قبل أن تخلد إلى النوم ...

تلك الدبلة التي ...

التي خلعتها قبل أسبوع....

أسيل إنسانة قوية، هي تعرف ذلك إلا أن ضياع ما كان بينها وبين كمال أثقل كاهلها، تحاملت على نفسها..نفضت عن جسدها الألم والتعب لتقف متوازية على قدميها تمارس طقوسها اليومية تحسست مكان الدبلة مرة أخرى وهي تتذكر الطقس اليومي، اليوم هو ليس خطيبها وليس حبيبها..إنه الجرح النازف في قلبها، تتمنى أن تستأصله من تاريخها وترميه في مزبلة ذاكرتها كما ترمي أوراقها القديمة في سلة المهملات.

حضرت قهوة الصباح كجزء من الطقس اليومي..كم تحب شرب القهوة صباحًا وهي تنظر إلى البحر عبر نافذة غرفتها..كم يشبهها تلك اللحظة في هدوئه وسكونه...

نظرت إلى البحر مودعة كل حبة رمل، كل موجة، كل صدفة من صدفاته.

لمعت من بين جفنيها دمعة حزن ولكنها أبت أن تنهمر، وبقيت معلقة بين الجفون إلى أن أنهت حوارها اليومي مع البحر.

ارتشفت آخر ما تبقى من قهوتها ليمتزج صوت السكون بهدير موج البحر في مزيج ساحر مع صوت المؤذن الداعي لصلاة الفجر التي تحرص على تأديتها حاضر كل صباح.

توجهت لمرآتها..أطالت النظر بتلك العينان المنعكسة عبر المرآة أمامها، لم يرق لها ما رأت..وجدت نفسها واقفة أمام بقايا إنسانة مهشمة تحاول لملمة أوجاعها. رفعت شعرها الناعم بدبابيس بصورة عشوائية ودون وضع أي مساحيق تجميل على بشرتها المصفرة من كثرة البكاء، وجلست لتنظم أفكارها ثانيًة بعد أن قضت معظم ليلتها بالتفكير.

وقد ظهر عليها أنها قد اتخذت القرار ...

ارتدت أول سروال جينز وأول تي شيرت وجدتهما فلم تكن مرتاحة البال اليوم لتحسن من مظهرها كثيرًا أو إنها أصلاً لم ترغب أن تكون جميلة.

ذهبت إلى النافذة لتغلقها قبل أن تغادر، ونظرت إلى ذلك العلم الذي تراه كل صباح يرفرف منذ اليوم الذي قرروا فيه فتح مركزٍ

للشرطة بجانب بيتها، في نفس اليوم الذي اكتشفت فيه خيانة خطيبها كأنه إتفاق غير مبرم على تعكير صفو حياتها.

امتعضت قليلاً ونظرت إلى علمها الصغير بجوار سريرها، وقد ظهر على وجهها حزنٌ فوق حزنها ثم أغلقت النافذة، وهي تتحاشى النظر إلى ذلك العلم الجديد أمام منزلها ..

علم إسرائيل ..

***

كانت في طريقها لقسم اللغة العربية في جامعة حيفا ...

أدارت مفتاح السيارة وانطلقت..كانت الأفكار والذكريات تستمر بالظهور في عقلها حادة كالبرق أحيانًا..ضبابية كالسراب أحيانًا أخرى.

كانت كلما واجهته بشكوكها وشعورها أنه ليس لها وحدها، اتهمها بالتوهم والغيرة.

لكنها لم تكن كذلك، قد تكون غيورة وهذا من حقها ولكنها لم تكن قطعًا متوهمة وقد عرفت ذلك ...

لم تكن سوى مغرمة ...

ولم يكن هو إلا خائنًا...

حبها له كان من الصعب أن تستأصله من داخلها بسهولة. كان كالوشم لا تستطيع إزالته إلا بعد ألم عظيم...

قبل أسبوع واحد لم تكن تتخيل ولو للحظة أنها ستقبل تلك المنحة الدراسية التي كانت ستبعدها عن كمال.

وقفت في الإشارة الحمراء وفي خضم التخبط بين الذاكرة والأفكار التي تراودها تجلت أمام عينيها الخيانة بدون أي خجل ولا استئذان...

عادت بذاكرتها إلى تلك اللحظة ..

لحظة اكتشاف الخيانة مؤلمة ولكنها لم تكن تتخيل مقدار ذلك الألم إلا بعد أن اختبرته بنفسها.

كان قلبها يرقص من السعادة وهي في طريقها لتفاجئه يوم عيد ميلاده..دخلت عيادته بهدوء حاملة باقة زهور من نوع التوليب وردي اللون مع بعض أوراق الشجر الأخضر لتضفي بعض الجمال على باقتها، تلك الزهور هي المفضلة لديها لرقتها، لكن المفاجئة كانت من نصيبها وليس من نصيبه.

حين دخلت العيادة كانت تعتقد أنه وحده في مكتبه يرتب الأوراق بعد يوم عمل طويل..بدأت بالاقتراب بخطى هادئة كأنها تخشى أن تبعثر ذلك الضوء الخافت الذي يضفي جوًا رومانسيًا ساحرًا على المكان.

ولكنها بدأت تستشعر همسات هاربة من خلف باب المكتب.

مشت ببطئ شديد وقد بدأ الخوف يحتل قلبها مما قد تراهُ. اقتربت ونبضات قلبها تتسارع عندما لمست مقبض الباب لتشرعه ببطئ وتصبح الرؤية أوضح ... رأته، رأت حبيبها وخطيبها جالسًا على كرسيه وعشيقته جالسًة على فخذه، محتضنها بقوة معتصرًا جسدها كأنه يخشى أن تهرب منه. كانت جالسة مستسلمة له بدلال رافعة يده اليمنى تقبل أنامله، وتتلاعب بدبلته الفضية محاولة

نزعها ولكنه رفع يده ممررًا أنامله بلطف في خصلات شعرها الشقراء، كأنه يستأذنها هامسًا باللغة العبرية وهو يقبل عنقها:

"سأراك بعد أن أنهي معها احتفالها بي"

في تلك اللحظة فتحت أسيل باب المكتب على آخره قابضة على باقة الزهور بقوة كأنها تستنجد بها من الغثيان الذي اجتاحها، بقيت واقفة لحظات قليلة حتى استدار كمال عند ملاحظته أن عشيقته تنظر تجاه الباب بذهول.

دون إدراك منها سقط الورد من بين يديها والدموع تملأ عينيها.

وقف كمال بعد أن أزاح عشيقته وبدا وكأنه رأى شبحًا. حاول الاقتراب من أسيل لكنها ابتعدت عنه وشعور غريب باغت قلبها..زلزال عنيف اجتاح روحها أفقدها توازنها واتزانها، شعور بالغثيان أثقل جسدها وكأنها غابت عن الوعي للحظات، كم من الوقت؟

لا تدري..!!

لكنها لم تستطع فعل أو قول أي شيئ في تلك اللحظة..كانت منشغلة في لملمة ما تبعثر من قلبها وروحها.

رأت كمال أمامها يحرك شفتيه محاولاً تبرير ما رأت وسمعت ولكنها لم تسمع شيئًا مما قال.

الدموع التي غمرت عينيها وقلبها أصابتها بالعمى والصمم.

شعرت باختناق وألم فظيع في صدرها..الطعنة التي تلقتها لتوها من كمال كانت دامية وكأنها قطعت كل شرايين روحها الرئيسية..

لم تقل شيئًا..خلعت دبلتها وحمّلتها حبها وذكرياتها وسعادتها ووهمها لتضعها في كفه ناظرة في عينيه نظرة احتقار.

استدارت وخرجت من عيادته...

ومن حياته ...

***

أعاد صوت نفير السيارات أسيل لرشدها فقد تبدلت الإشارة الضوئية وهي غارقة في تلك الذكريات المؤلمة، في تلك اللحظة مسحت دمعة ساخنة سقطت عنوة على خدها الأيسر.

لم تر أي خيار أمامها سوى تلك المنحة علها تساعدها على النسيان ... على الهرب ...

وأكملت السير نحو الأعلى.. نحو جامعة حيفا...

جامعة حيفا تلك المعتلية قمة جبل الكرمل، مطلة على حيفا من أعلى كأن المدينة بأسرها خاشعة ساجدة لطالبي العلم.

في جامعة حيفا يوجد أكبر تجمع طلابي عربي في إسرائيل وأكبر حوار داخلي فلسطيني بين الطلاب العرب..فالحياة الجامعية فيها صاخبة لوحة من الفسيفساء متشكلة من إختلافات الآراء والتيارات العربية العربية والعربية اليهودية.. إنها فوهة بركان ثقافية على قمة جبل الكرمل.

اقتربت من الجامعة والمشاعر تتخبط في داخلها ما بين الهروب والبقاء، ما بين رأي والدتها الرافض لسفرها، وتردد والدها خوفًا عليها..الأفكار تعصف برأسها ما بين الجرح والكرامة ما بين الطموح الجامح والاستسلام.

أوقفت سيارتها في المرآب وتوجهت مباشرة إلى مكتب البروفسور جمال نصار رئيس قسم اللغة العربية في جامعة حيفا.

سارت نحو المصعد بسرعة تسابق ظلها وتتحاشى النظر عبر ذلك الحائط الزجاجي الذي يفصل الممر عن مكتبة الجامعة حتى لا تتقابل نظراتها بنظرات أي من أصدقائها، وتفضحها عيناها وتروي ما تحاول إخفاءه.

تمهلت حين سمعت خطوات سريعة متجهة إليها بلهفة..نظرت باتجاه الخطى كلها أمل ألا يكون هذا المتلهف آتيًا من أجلها..إلا أن أمنيتها لم تتحقق لأنها كانت ماريا صديقتها تهرول صوبها قائلة:

- أسيل.. الحمد لله إنك إجيتِ...

ردت أسيل محاولة إخفاء ما بداخلها وكبتت دموعها التي تتصارع في الهروب من بين جفونها:

- خير ماريا إيشْ في؟

سألتها ماريا بلا مقدمات:

- كَتَبْتِ الــمــكْتوب؟

ردت أسيل بوجوم:

- أي مَكْتوب؟

قالت ماريا باستغراب:

- أسيل مالِك..! نْسيتِ؟ لازم نْقَدِم المكتوب بُكرا الساعة ١٢ الظُهُر لَسِكرِتير الكُتَل الطُلابية في الجامعة..

أغلقت آسيل عيناها خجلاً من ماريا قائلة:

- آه .. أسفِة والله نْسِيت .. بَس إن شاء الله الليلة مِشْ رَح أنَام قَبِل ما أكتِبُه.

لمحت ماريا حزن أسيل ممسوحًا على ملامحها الهادئة قائلة:

- أسيل إذا مِتْضَايقَة مِش مُشكِلة بَخَلي حد تاني يكْتِبُه.

ردت أسيل بتحفز:

- لا لا بَرضُه يا ماريا مِشْ واثقَة فيّ؟ خَلص الليلة أنا بَكْتِبُه وبَبْعَتلِك إياه بالإيميل ماتِقْلَقِيش.

- أسيل مِتْأكدِة؟

- مِتْأكدِة، مَعْلِشْ بدّي ألحَقْ أشوف بروفيسور جمال بَتأمَل يكون في مَكتَبُه.

قالت ماريا:

- آه هو كان في مَكتَبُه قَبْل شوَيّ كُنْتْ فُوق وكان مع مُسَاعِدتُه منال، بَس ما بَعْرَفِشْ إذا خَلَصوا شُغُل ولا لأ.

- طَـيِّبْ خَلِيني ألحَقُه قَبِل ما يروح.

بدأت أسيل في السير موجهة كلامها لماريا:

- سلام .. وبَحْكي مَعِك الليلِة.

قالت ماريا:

- سلام .. وإذا بدِك مُساعَدِة إحكِيني.

عاودت أسيل السير مسرعة وهذه المرة كان تفكيرها منصبًا على الرسالة التي نسيت كتابتها حين داهمها الألم. إنكسار قلبها أنساها كتابة الرسالة لسكرتير الكتل الطلابية في الجامعة لعقد اجتماع لمناقشة موضوع إنتخابات لجنة الطلاب العرب بالنيابة عن الكتل العربية مجتمعة. أهمية هذه الرسالة تكمن في ضرورة بناء لجنة قوية

للطلاب العرب للوقوف في وجه التضييق الذي يمارس ضد الطلاب العرب في الجامعة، واليوم وقبل كل شئ يجب أن تنتهي من كتابتها حتى لا تترك الجامعة وهي مقصّرة في حق أي كتلة من الكتل العربية إذ طالما عملوا واجتهدوا وتظاهروا جميعًا من أجل حقوق الطلاب العرب التي من الصعب الحصول عليها بلا نضال.

حملها المصعد دون توقف إلى الطابق الخامس عشر، وتوجّهت مباشرة إلى مكتب رئيس قسم اللغة العربية..كانت ما بين الخطوة والخطوة تتذكر المناقشات حامية الوطيس التي طالما خاضتها في ذلك المكتب مع أستاذها والمشرف على رسالة الماجستير التي أعدتها.

طرقت الباب لتستأذن بالدخول إلا أن يدها كانت تتحرك بشئ من الصعوبة، وما بين الطرقة والأخرى شعرت بالزمن يمضي والناس تمضي والحب يمضي وتبقى هي وحيدة مع الألم. حين لم يأذن لها أستاذها بالدخول فتحت باب الغرفة ودخلت، ولكن لم يشعر أحد بوجودها فقد كان أستاذها منهمكًا في إملاء رسالة على مساعدته التي انهمكت بدورها في طباعة ما يقوله على الحاسوب، انسحبت ببطئ إلى الخارج حتى لا تزعجهما وانتظرت بهدوء في الممر وحاولت إشغال نفسها بقراءة إعلانات القسم على الحائط. سرَحت للحظات إلى أن سمعت منال مساعدة بروفيسور جمال تخرج من مكتبه لتقول لها مبتسمة :

- أسيل .. كِيفِك؟ إيش أخبَارِك؟

ردت أسيل بإبتسامة شاحبة:

- الحمد لله تمام، إجيتْ أستَفسرِ إذا مُمكِن أقابِل بروفيسور جمال.

نظرت إليها مساعدته مستفسرة:

- أنا بَقْدَر أساعدِك؟

جلست أسيل على أحد المقاعد الطويلة التي وضِعت في الممر والإعياء واضح على ملامحها:

- المنحة اللي رَشَحتُوني إلها لِسَّه مُمكِن أحصُل عَليها ولا راحَت عليّ؟

جلست منال بجانبها وضعت يدها على كتفها وقد شعرت بالحزن يغلف صوتها:

- مالِك أسيل .. بَقْدَر أساعدِك؟

تجاهلت السؤال وأعادت سؤالها في إصرار:

- يعني لِسَّه بَقدَر أحصُل على المنحة اللي رشحتوني إلها ولا لأ؟

رفعت منال حاجبيها مستغربة من تجاهل أسيل لسؤالها فهذا لم يكن من عاداتها ولكنها سرعان ما فكرت أن هذا ليس من شأنها وقالت:

- إسْتَني خَليني أسْتَفسرلِك مِن بروفيسور جمال.

غابت منال لتعود بعد لحظات لتأذن لها بالدخول:

- إتْفَضَلي أسيل..بروفيسور جمال بانْتِظارِك، وإذا بِذِك أي مُساعَدة تعالي أنا بمكتبي.

لم يستطع بروفيسور جمال إخفاء دهشته عندما أخبرته مُساعدته برغبة أسيل في المنحة المرشحة لها لجامعة القاهرة..فهو لا يخفى عليه كما لا يخفى على أحد تعلقها الشديد بخطيبها وقرب زواجهما وقبولها المنحةَ يعني بُعدها عن حبيبها وتأجيل زواجها.

حين وقفت أسيل أمام بروفسور جمال ازدادت دهشته..وجد نفسه أمام فتاة مترددة الخطوات حائرة النظرات تدنو من مكتبه، وتحبس بصعوبة بالغة دموعًا تملأ مقلتيها.

إنها أسيل التي لا يعرفها...

أغلقت الباب خلفها وتمالكت على أقرب كرسي.

لم يتكلم..لم يشأ أن يتطفّل على حزنها، وهي كانت تخشى أن تسبق دموعها كلامها.

اطمأنت إلى نظراته..ورسمت على شفتيها إبتسامة غير واضحة المعالم قائلة:

- كِيفْ حَالَكْ؟ مَعْلِشْ بَعتْذِر إني إجيت بدون أي مَوعِد سابق للمُقابَلِة..بَس أنا ما حَبيتش تْضِيع عَليّ فُرصَة المِنحة وإجيت بأَسْرَع ما يُمكِن قَبل ما تُشْطُبوا اسمي من قائِمة الـــمُرَشَحين.

لم يسمع ما قالته ، بحث عن أسيل التي يعرفها وسألها.

- مالِكْ..!!

كان هذا السؤال كفيلاً بأن يشرع الأبواب لفيضان دموعها وأحزانها وروت له كل ما حدث، وأنها قد قررت أن تترك البلاد لتبتعد عن كل ما يحيط بها من ذكريات. كان بروفيسور جمال يسمع بذهول ما ترويه بعد أن شرعت أسيل باب جرَحها لأستاذها الذي طالما اعتبرته بمثابة والدها.

قام بروفيسور جمال من مكانه ووقف قبالة شباك مكتبه ناظرًا للوحة متشكلة من جمالية أشجار جبل الكرمل الممتدة على مدى البصر:

- إيشْ رأيّ أهلِك بالموضوع؟ هُمّ عارفين إنّك هون وبتُطْلُبي هذا الطلب مِنّي وإنّك رَح تِتْركيهم وتسافري؟

نظرت إليه وحركت رأسها بالإيجاب وهي تجيب:

- إمي نِسَّه مِش موافقة وأبوي خايف عليّ مِن السفر وأنا بهاي الحالة..بَس أنا حاسِة إنهُم في الآخِر رَح يوافقوا، وهُم عارفين إني هون وبَطلُب مِنَّك تساعدني بالمِنْحَة.

غرق بروفيسور جمال للحظات في صمته..نظر إلى أسيل ثم قام من مكانه كمن اتخذ قراراً حاسمًا ورفع سماعة الهاتف:

- منال جيبيلي استِمارات المِنْحَة لَمَصِر خليني أعبيهُم وتَعَالي من فضلك عَلَشان تِكتِبي على الكُمبيوتر رِسالة توصية لأسيل.

لم تمضِ لحظات حتى دخلت منال تحمل الاستمارات المطلوبة..تناولها منها وانهمك في تعبئة البيانات في حين كانت أسيل تنتظر بشغف انتهاءه كأنها تنتظر شهادة ولادتها من جديد وخلال ساعة كانت الاستمارات قد أصبحت جاهزة للإرسال.

بعد أن أنهى بروفيسور جمال كتابة كل البيانات أرسل نسخة لجامعة القاهرة عبر الفاكس وطلب من مساعدته إرسال نسخة أُخرى عبر البريد المستعجل.

خرجت منال لتستكمل معاملات المنحة..قال بروفيسور جمال لأسيل مطمئنًا:

- كُوني مِتأكدِة إنَّك رَح تُحصُلي على هاي المِنْحَة.

أطرق مستطرداً:

- إسمعي أسيل، مِش سِر إنِّك تِلميذتي الـمُفَضَلِة وأنا بَحْمِلِك كُل الود والإحترام والتقدير كتلميذة مِتْفَوقة..وكوني مِتأكدة إنه هالحَالِة اللي إنتِ فِيهَا هاي حالة عابرة وبتأمَل إنه القَرار اللي أخَدتِيه ما يْكونشْ قَرار بلَحظة غَضَب أَو ضُعُف ولما تْفيقي مِنها ممكن تِنْدَمي على سفرِك، وِسَاعِتْها رَح تِتْرِكي كُل إيشي بالقاهرة وتِرجَعي زَي ما سافَرتي.

عاودها الحزن والتعب مرة أُخرى ولكنها قالت بحزم:

- إنتَ بْتِعرَفني كتير منيح وإنتَ أستاذي من سبع سنين، وماتْخَفِش أنا قد المسؤولية، وأول ما أحس إني بحاجة لمساعدة إنتَ أول واحد رح أحكي معه.. إنتَ أستاذي اللي بثق برأيه.

قطعت أسيل بكلامها أية محاولة من البروفيسور لإقناعها بالعدول عن قرارها..ابتسمت وقامت مستأذنة منه..ضغط على يدها وهو يودعها عند الباب..كانت نظراته تعزيها على موت حب كان هو أول الشاهدين على ولادته، وخرجت من عنده وهو يراقب خطى خروجها المترددة.

عاودت مسابقة ظلها وهي تسرع نحو موقف السيارات، تتحاشى النظر لعيون المارة، كانت تشعر كأن العالم ينظر إليها ويقرأ جرحها.

يبدو أن السفر هو الحل الوحيد فعلاً ...

همت بالرجوع إلى البيت مباشرة إلا أنها شعرت برغبة جامحة في توديع كل شجرة وكل صخرة على جبل الكرمل، أدارت مفتاح السيارة وتوجهت لمنحدرات الجبل لتمتع نظرها بتدرجات لون الشجر الأخضر في تناسق بديع.

عشقها لحيفا لا يقتصر على جمالية المكان..بل لأنها مدينة الثقافة والمثقفين..معظم مبدعي فلسطين كان ملتقاهم في حيفا..محمود درويش، توفيق زياد،سميح القاسم، إميل حبيبي،حنا أبو حنا وغيرهم الكثيرون.

كانت حدائق البهائيين المستلقية بدلالٍ في حضن الجبل من أكثر الأماكن قربًا لقلبها..إنها معلم من معالم المدينة الشاهدة الصامتة على سهرات الشباب والمثقفين في تلك المقاهي أسفل الجبل.

شربت عصير الفراولة في أحد المقاهي..كانت لا تريد لهذا العصير أن ينتهي وتنتهي معه آخر لحظاتها مع معشوقتها حيفا.

انتهت من العصير ثم انطلقت في رحلة وداع حيفا.

كانت تتنقل من مكان لآخر كالفراشة تمتص رحيق المكان والزمان من كل زاوية من زوايا حيفا.

قبل الغروب بلحظات كانت قد وصلت إلى أعلى نقطة في حدائق البهائيين، نظرت إلى قبة عباس التي تتوسط تلك الحدائق.

جالت بنظرها في حدائق البهائيين يا لروعة المكان..لكل زهرة وشجرة مكانها في لوحة هي غاية في الأبداع والأتقان، والقبة الذهبية واقفة شامخة معلنة حضورها بقوة. في حيفا يمكنك أن تكون ما شئت، لا يهم دينك وعقيدتك المدينة حتمًا ستستوعبك.

همست:

"كم سأشتاقك حيفا".

قال لها والدها يومًا وهي تبدي إعجابها الشديد بحدائق البهائيين:

"إن اختلاف العقائد بين البشر لا يقتل الإحساس بالجمال أو الفن فهو لم يجعلك تفكرين باختلافك عن صانعه عند النظر إليه".

ابتسمت وهي تتذكر ذلك.

لم تشعر بمرور الوقت عندما لبست الحدائق والشوارع والبيوت عباءة الليل السوداء، ظهرت الأنوار في الشوارع شموعًا صغيرة حديثة الولادة كست الليل جمالاً فوق جماله.

في طريق عودتها إلى البيت كانت الذكريات ما زالت تلازمها وتزاحم لحظات وداعها لحيفا.

حينما وصلت إلى البيت بحثت عن والدتها فوجدتها منهمكة في تحضير العشاء..قبلتها وهي تقول:

- مساء الخير.
- مساء النور.
- لِسَّه زَعلانة مِنّي؟

ابتسمت والدتها لتخفي قلقها واستدارت لتمسح على شعر ابنتها قائلة:

- أنا مِشْ زَعلانة مِنّك..أنا بَس خايفة عليكي..فَكّري شويّ إنتي تركتي خطيبك وحبيبك من شي أسبوع، واخدتي قرار بالسفر بسرعة..أنا بَس بدّيشْ تكوني متهورة. وبعدين وجودك في القاهرة لَحَالِك هذا بحد ذاته مخوفني.

- ما تْخافيشْ عليّ..أنا رايحه أدْرُس هُنَاك مِشْ رايحه سياحة، وكمان يامّا أ...

قاطعتها والدتها بصوت قلق:

- إنْتِي لَو رايحه سياحة أرْحَم..لأنك رَح تْغَيري جَو وترجَعي..كُل خوفي عليكي إنّك رايحه ولِسَّه ما بْتِعرَفيشْ وين رَح تُسْكُني، ولا مع مين، ومين الناس اللي رَح تِختِلطي فيهم، زي ما في ناس منّاح في ناس عاطلين وإنتي بحَالِتك هاي صعب تميزي...

أدارت الأم ظهرها متظاهرة بتحريك الطعام محاولة إخفاء دموع القلق عن ابنتها..حتى شعرت بيد أسيل تضغط على كتفها بحنان.. وهمست في محاولة أخيرة لإقناعها:

- تَعَالي نعْمِل إتِّفَاق.

استدارت أمها ونظرت إليها متسائلة:

- إتّفاق؟

- إني أروح على القاهرة، وأقْعُد فَترة بَسيطة وأشوف كِيف رَح أدَبِّر أموري هُنَاك..لَو قْدِرت أتأقْلَم رَح أضَل هُناك لَحَد ما أخَلِّص الدكتوراة، ولو ماقدرتش بَوعِدِك أرْجَع على أول طيارة.

نظرت إليها والدمَا كأنها يأست من إقناعها بالبقاء، قالت:

- يَعني مَا لاقِيتِيش إيشي تَاني تُورثِيه مِني غير العناد؟

ابتسمت أسيل واحتضنت والدمَا قائلة:

- يَعني موافْقَة؟

قالت بتردد ملحوظ والدموع تملأ عينيها:

- موافْقَة..بَسْ بِدّي وَعِد إنّك تِرجَعي أوَل ما تحِسي إنّك لازِم تِرْجَعي وما تْضَلكيش هُناك عِناد.

- بَوعِدِك إم أسيل.

قبّلت والدمَا واتجهت بفرحة طفولية نحو والدها الجالس متابعًا نشرة الأخبار، جلست بجانبه قائلة:

- إمي وافَقَت.

نظر إليها قائلاً:

- إمِكْ خَايفِة عَليكي كتير زَي ما أنا خَايف عَليكي..فَكّري مْنيح..هذا اللي إنتِ بدِك إياه؟

أطرقت:

- والله مِشْ عارفِة إيش أنا بِدّي..بَسْ الأكيد بِدّي أبعِد مِن هُون.

ساد الصمت لحظات قاطعه والدها مخففًا عنها:

- قُومِي حَضْري حَالِك لَلسَفر.. وإذا بدِك خَلّي أختك تَغريد تْسَاعدِك.

ابتسمت أسيل قائلة: لأ مِشْ اليوم.

اسْتَغرَب والِدها قائلاً: ليشْ؟

قالت بعد أن عاودت الوقوف:

- لأنه في مَكتُوب بدي أكتِبُه لَسِكرِتير الكُتَل الطُلابية بالجامعة، كان لازِم أقَدمُه اليوم بَسْ لِلأسَف نسيت أصلاً أكتِبُه بَعد اللي صَار.

قال والدها:

- وهذا الـمَكتُوب ضَروري ينْكَتَب الليلة؟

أجابت أسيل محاولة إخفاء تعبها:

- هذا الـــمَكتوب لازم ينْكَتَب والليلة، عَلَشان بُكرا لَحَد الضُهُر يكُون على مَكتَب السكرتير.

- طيّبْ يلا روحي اكتِبيه عَلَشَان تِلحَقي تِتْعَشي وتنامي.

- لأ ما ليشْ نِفِس أتْعشى..تصبح على خير.

- وإنْتِي مِن أهل الخير.

غيّرت ملابسها وجلست على مكتبها محاولة التركيز لكتابة آخر رسالة تربطها بالحياة الطلابية في جامعة حيفا..بدأت تكتب وهي تفكر...

على الرغم من تغنّي جامعة حيفا دائمًا بانفتاحها الثقافي والأيديولوجي إلا أن الطلاب العرب مازالوا يناضلون للحصول على أقل حقوقهم في التعبير عن سخطهم وإقامة مظاهراتهم ..

انهمكت في الكتابة وصورة كمال تتسلل دون استئذان لتجتاح تفكيرها، حاولت عبثًا طرد صورته من خيالها..لا شيئ أبشع من صورة الخيانة..

كم هي متعبة ومرهقة وجريحة، ولكنها مرغمة على إنهاء رسالتها الليلة. وضعت رأسها بين يديها محاولةً جمع ما تبعثر من تركيزها وأفكارها ...

التضييق على الطلاب والكتل الطلابية يزداد مع الوقت وأمواج العنصرية تتفاقم في حرم الجامعة مع تفاقمها في الشارع الإسرائيلي تجاه فلسطيني ال ٤٨، فالجامعة ألغت مظاهرة كان من المفترض أن يقيمها الطلاب العرب داخل الحرم الجامعي تنديدًا بالحصار الجائر المفروض على قطاع غزة. كانت تكتب الرسالة وهي تفكر في العنصرية التي تقف حاجزًا بين أي فلسطيني من فلسطيني ال ٤٨، وبين أبسط حقوقهم اليومية ليس فقط في الجامعة إنما في التعامل اليومي مع الشارع الإسرائيلي.

انتهت من طباعة الرسالة على جهاز الحاسوب وبدأت تشعر بالتعب يتسلل لكل خلية من خلايا جسدها. قامت من على مكتبها بتثاقل، ووضعت رأسها على وسادتها..استسلمت لجفونها المثقلة لتنام باستسلام الطفل في حضن أمه بأمان.

وتستيقظ في نفس الساعة.

ساعة السكون...

***

ذلك الصباح كان مختلفًا والطقوس كانت مختلفةً قليلاً، إذ أنها شملت كل الطقوس اليومية إلا الطقوس المتعلقة بكمال.

لم تتحسس مكان الدبلة.

ولم تكن تلك الصورة معلقة على المرآة.

حضرت قهوة الصباح لتشربها في حضرة صديقها البحر وطيور النورس تحاول مغازلة نظراتها.

الاستعداد للسفر استطاع أن ينسيها حزنها خلال النهار، قررت إشغال نفسها من ساعة استيقاظها حتى لحظة الخلود للنوم.

بعد أن اطمأنت أن الرسالة قد وصلت لماريا على بريدها الإلكتروني تفرغت للإعدادِ للسفر. بدأت يومها في البحث عن جواز سفرها لتجده حيثما وضعته الشهر الماضي بعد أن جدّدته وجهّزته ليكون حاضرًا قبيل شهر العسل. لم تكن تعرف أنها كانت تحضره لمنعطف جديد في حياتها.

غيّرت ملابسها على مهل واستقلت سيارتها متوجهة لمكتب البروفيسور جمال.

سلمت جواز سفرها لمساعدته منال لتحجز تذكرة السفر وتتمم معاملات المنحة عن طريق الجامعة.

عند خروجها رأت زميلتها ميخال تخرج من عند بروفيسور دافيد، رئيس قسم تاريخ الشرق الأوسط والذي يشرف على رسالتها للدكتوراة، وكانت أسيل دائمًا تساعدها في ترجمة بعض النصوص من اللغة العربية إلى اللغة العبرية فهي وميخال كانتا

زميلتين في بعض المحاضرات المشتركة بين قسم الأدب العربي وتاريخ الشرق الأوسط. ميخال من الإسرائيليين اليسارين والذين يرفضون سياسة الدولة والتمييز ضد العرب، وعلى الرغم من هذا إلا أن أسيل كانت تفضل عدم الخوض في النقاش السياسي مع أي من الإسرائيليين مهما كانت انتماءاتهم السياسية، فهم سيصلون في نهاية الأمر إلى طريق مسدود.

بادرتها ميخال بالسؤال:

- أسيل..هل صحيح ما قاله بروفيسور جمال؟

ابتسمت أسيل قائلة:

- وماذا قال بروفيسور جمال؟

- إنك عزمتِ على السفر ونقل أوراقك لتحضير الدكتوراة في مصر.

أطرقت أسيل:

- نعم، هذا الكلام صحيح.

شدت أسيل وأجلستها بجانبها على أحد المقاعد الموزعة في الممر:

- ولكن لماذا؟ وماذا حدث؟ وحفلة العرس؟ هل أُجِّلَت؟

تنهدت:

- لا يوجد عرس ولا يوجد عريس..قررت الذهاب لمصر لعلي أنسى ما رأيت وسمعت.

- أعتذر عن تطفلي، ولكنك تعرفين مدى حبي واحترامي لكِ..ماذا بحق الجحيم قد حدث؟

ابتسمت أسيل وقالت:

- على ما يبدو حصل ما كان يجب أن يحصل، والذي حصل مكتوب لي.

مكتوب يا ميخال أن أبتعد...!

نطقت أسيل كلمة مكتوب باللغة العربية لأن ميخال من أصول شرقية تنتمي لليهود السفرديم..وهم اليهود الذين قدموا إلى إسرائيل من الدول العربية وجدتها كانت تتكلم مع جدها بالعربية ومن الكلمات القليلة التي حفظتها ميخال وترددها دائمًا كلمة مكتوب..

ضغطت ميخال على يد أسيل قائلة:

- سوف أشتاق إليك كثيرًا.

ابتسمت أسيل وشكرت ميخال على اهتمامها، واعتذرت أن عليها الاستعداد للسفر ولا بد أن تعود إلى البيت.

على باب المصعد فاجأها زميلها خليل وقد ظهرت عليه السعادة أنه وجدها أخيرًا:

- وينِك يا بِنتْ.

أسعدها رؤيته:

- هُون...

- أنا سْمِعِت إنّك هُون، وجاي عند بروفيسور جمال..قُلِتْ ألحَقِكْ لأني حَبيتْ أسَلِم عَليكِي قَبِل ما تْسَافري.

أجابت بهدوء:

- الله يسَلمَك..تِسْلَمْني على إهتِمَامك.

ساد الصمت للحظة حتى كسرته أسيل سائلة:

- صَحيح إيشْ صَار بِمَوضُوعَكْ؟

قال خليل مستغربًا:

- أي مَوضُوع؟

- أنا سْمِعِت إنَّكْ قَدَمِتْ شَكْوَى ضِد دكتور دانيال على الكلام اللي قَالُه في مُحَاضَرتُه عن إنه العرب جُبَناء.

ظهر الغضب على خليل:

- يا ريت إنها وَقَفَتْ إنُه قَال إنهُم جُبَناء.."الأفَنْدي" سَبْ ووَصَفْ العرب بأبشَع الألفاظ، وَصَف كُل العرب بإنهُم مجرمين حتى وصِل فِيه الأمِر إنُه ينَادي بإبادة العرب.

- طَبْ مَكَنْشْ مِين اللي يوَقْفُه عِنْد حَدُه في الــمُحَاضَرة؟

- وحياتِك حَاوَلنا بَسْ "المحترم" هَدَدنا في إنُه رَح يمنعنا من تَكمِلِة الدورة ويحرمنا من العلامة النهائية عَلَشَان هِيك قَدَمنَا شكوى ضده.

صمتت للحظة ونظرت إلى خليل بتردد.. لم تسأله ماذا حصل بعد ذلك.. لأن الجواب كان واضحًا على ملامحه.

إلا أن خليل لم ينتظر السؤال وقال:

- والشَكوى حُفِظَت والملف اللي قَدَمْنَاه ضاع.

هزت رأسها في ضيق وقد توقعت هذا وقالت:

- طبعًا لو إن الوَضع مَعْكُوس ومُحاضِر عربي قال هذا الحَكي عن أي يهودي كان اتهموه بمعاداة السامية وطردوه من الجامعة شر طردة.

قال خليل محاولاً تغيير الموضوع لشعوره بانزعاجها:

- وإنتِ؟ طَمنيني عَلَيكي.

- أنا الحمد لله منيحة.

- إسمَعِي .. بَعرَف إنّك مِستَعجِلة لَتْحَضري حالِك لَلسَفر، بَسْ بْتِعرَفي؟ أنا حَكيت مع بروفيسور جمال بموضوع سَفَرِك وبعتَقِد إنّك في القاهرة رَح تعيشي تجربة عُمرِك.

نظرت إليه بتساؤل، فاستطرد:

- إنتِ أسيل البِنْت الفَلَسْطينية اللي بْتِحْمِل الجنسية الإسرائيلية رَح يتَطلعوا عليكي بِنَظرة أنا شخصيًا ما بَحْسِدكيشْ عليها..لأن الشعوب بالعالم العربي مش عارفين أو فاهمين وضِعنا هون..لكن أنا واثِق إنك رَح تِعرَفي كيف تِثْبْتي وتِفرِضي حُضورِك ووجودِك وتارِيخك بِوِش كُل الجاهلين بالقضية الفلسطينية اللي إحنا جُزء مهم منها.

ابتسمت أسيل لسماع كلام خليل فهي تعرف مدى تقديره وحبه لها..فهو من أصدقائها المقربين في الجامعة فتفكيرهما واحد وطموحهما واحد وحماسهما واحد.. قالت مازحة:

- مِشْ عيب أبو البلد ؟ تَرْبيتَك أنا.

- أسيل أنا بَحْكِي جَدْ..!

- وإنتَ عِنْدَك أي شَك إني مِش رَح أكون قد المسؤولية اللي بَحمِلها؟ بَعرَف أو على الأقل بَتْخَيّل إيشْ مُمكِن يِسْتَنّاني هُناك

وبَعرَف إني رَح أكون في بعض الأحيان إذا مِشْ في مُعظَم الأحيان بموضع دِفَاع عن النفس.

كان في نبرة صوتها تحدٍ واضح:

– وبَعْتقِد إني رَح أكون عِند حُسُن ظَنَك إن شاء الله.

ابتسم خليل لكنه لم يقل شيئًا سوى أنه مد يده للسلام وضغط على يدها بشدة كأنه يقول:

– بالتوفيق.

أومأت برأسها إلى الأمام شاكرة وتنبهت أن المصعد كان قد وصل، استأذنت منه إلا أنه ناداها:

– أسيل؟ كلمة أخيرة.

أعادت أسيل فتح باب المصعد متسائلة

فأضاف وهو يبتسم :

– ديري بالِك على حَالِك.

***

عند خروجها من مبنى الجامعة كانت هناك مظاهرة للطلاب اليهود اليمينيين ضد دعوة الكتل العربية لأحد أعضاء الكنيست العرب لألقاء محاضرة بموضوع العنصرية المتفشية في المجتمع الإسرائيلي وكانت أعلام إسرائيل ترفرف في سماء الجامعة واللافتات

المرفوعة مكتوب عليها كل العبارات العنصرية التي اعتادها الطلاب العرب وكل عربي فلسطيني يعيش داخل إسرائيل كأنها جزء من حياته اليومية.

"إسرائيل دولة يهودية"

"لا مكان للعربي في دولة اليهود"

"دولة إسرائيل دولة يهودية وللشعب اليهودي"

يمكن أن تكون تلك اللافتات مستفزة لأي عربي إلا أنها وزملاءها كانوا قد اعتادوها .. والمظاهرات اليمينية المحمية دومًا من أمن الجامعة.

كان بعض الطلاب العرب من جميع الكتل الطلابية يتناقشون حول رد الفعل الذي يجب أن يتخذ لإجبار الجامعة على السماح لعضو الكنيست العربي بالدخول للجامعة وإلقاء المحاضرة في الوقت الذي وافقت فيه الجامعة للطلاب اليهود المتطرفين على استدعاء عضو كنيست ووزير من اليمين المتطرف لكي يلقي محاضرة لنطلاب اليهود والتي استغلها للتحريض على العرب والدعوة إلى طردهم من البلاد.

توجهت أسيل نحوهم، وربتت على كتف ماريا قائلة:

- ماريا .. كيفِك..؟

- هلا أسيل .. إيشْ اخبارِك؟

نظرت ماريا إلى أسيل متفحصة:

- اليوم إنْتِي أحسَن مِن آخر مَرة شُفتِك فيها.

- الحمد لله أحسن بكتير..طَمنيني بَعَتِي الـــمَكتوب؟

- آه بَعَتُه..بَسْ كِيف مَا بِتعرَفِي لما الموضوع بيتعلق بالكتل العربية بيماطلوا فيه.

حركت أسيل رأسها بانزعاج:

- آه بَعرَف لِلأسَف، وإيشْ قَرَرْتوا تِعمْلوا مَع عضو الكنيست اللي المفروض يوصَل يَعطي الـــمُحاضرة؟ وصِلتوا لَحَل مَع الجامعة؟

- وصِلنَا لَحَل مَعُه هو، ومِشْ مَع الجامعة ورَح يجي غَصْب عَن كُل العُنصريين ونسْمَع مُحاضَرتُه حَتى لَو قَعَدْنَا هُون عَلى العِشِب الأخضَر نِسمَعُه، وكُل الطُلاب العَرَب رَح يكونوا موجودين.

نظرت إليها أسيل مستفسرة:

- وإمتى المفروض يجي؟

- لِسَه مِشْ عارفِة بَسْ أكيد رَح أخبرِك بالموعِد.

استطردت قائلة:

- سمِعِتْ إنّك مسَافرِة بَسْ يَا ريتْ لَو نِلحَق نْحَدِد يوم وتْكُوني مَعنا.

- إن شاء الله..مَعلِش أسفة أنا لازم أروح هلأ بَس الأكيد إني رَح أضل معِك باتصال وإذا بدك أي مساعدة ما تِتْرَدَديش إنك تقوليلي.

احتضنتها ماريا مودعة:

- ديري بالِك على حالِك.

ردت أسيل:

- وإنتي كمان.

عادت إلى منزلها مسرعة لتستكمل باقي التحضيرات للسفر.

بعد عدة أسابيع من الآن ستكون في طريقها لأم الدنيا..

مصر ...

***

كانت والدة أسيل تساعدها في التحضير للسفر، وكانت جاهدة تحاول ستر حزنها الذي فضحه صمتها المبالغ فيه.

أصبح للصمت عنوان في بيت أسيل، والقلق قد بدأ يظهر جليا على والدها..ذلك الأب الحنون الذي يتألم لرؤية ابنته الغالية مجروحة

من الداخل كان يراقبها وهو جالس على الكنبة متظاهرًا بمتابعة نشرة الأخبار.

وأسيل منهمكة في تحضير أشيائها..حاولت إضفاء بعض المرَح لتكسر حاجز الصمت الأليم حين نادت على أختها تغريد بشقاوة طفولية:

- يلا يا بنت شِدّي حِيلِك أنا خلص قربت أسافر وبِدي تِرسِميلي كام لوحة من لوحاتك علشان أعَلِقهُم على حيطان بيتي بمصر.

ضحكت تغريد قائلة:

- آه صحيح بيكاسو أنا..أنا يا دوبك طالبة سنة أولى فن.

أجابت أسيل أختها غامزة:

- يا بنتي إنتِي ما حدا عارف قِيْمتِك غيري، أقل شخبطة من شخبيطك لما تتعلق على الحيطة بتخلي الحيطة تحكي لغات.

أتمت جملتها وانطلقت نحو المطبخ لتعاكس والدتها المنهمكة في إعداد الطعام:

- إيشْ إم أسيل؟ إيشْ طَبْخَالنا اليوم؟

ردت والدتها مبتسمة:

- إحزَري.

- بما إنك قُلتِ إحزَري يبقى عَمْلالنا مقلوبة..صَح؟

ابتسمت الأم محاولة إخفاء قلقها:

- صَح.

قبلتها أسيل على خدها وقالت:

- والله رَح أشتاق لأكلاتَك يا حنون.

خطفت من على الطاولة تفاحة، وخرجت من المطبخ مسرعة تنادي تغريد:

- إنتِ يا بنت وينك تَعالي سَاعدِيني بِتسْكير شَنْطة الكُتُب.

ركضت تغريد باتجاه أُختها ضاحكة:

- إيشْ؟ بدِّك إيّاني أقْعُدلِك عليها مثلاً؟

ضحكت أسيل وقالت ممازحة:

- أها، ليشْ؟ عِندِك مانِع؟

ألقت تغريد بنفسها ضاحكة على سرير أسيل قائلة:

- ما بِديشْ، إيشْ رَح تِعمِليلي؟

ركضت أسيل باتجاه تغريد وقفزت على السرير بجانبها وشرعتا تضحكان بصوت عال إنتشر بكل أرجاء المترل.

مرت عدة أسابيع من التحضير للسفر وانتظار تأشيرة الدخول بسرعة، لم تشعر أسيل بمرور الوقت وهي منهمكة في تحضير الكتب والمراجع وكل احتياجاتها المتعلقة بدراستها وملبسها ومكان إقامتها في مصر، فقد حجزت في أحد الفنادق البسيطة حتى تستقر في مسكن ثابت.

جلست تراجع ملفاتها على حاسوبها المحمول لتتأكد أنها لم تنس أيًا من الملفات المهمة التي تخص دراستها والتي تنوي أخذها. وبعد أن أنهت الفحص إنتقلت لأحد المواقع العربية المحلية لتقرأ آخر المستجدات في الشأن العربي، وما لفت نظرها عنوان رئيسي على رأس الصفحة.

"*الآذان يمنع في سماء يافا والتحقيق جار مع أحد أئمة المساجد*"

كم أزعجها هذا الخبر، انتفضت غاضبة، وجلست بصمت على الأريكة بجانب والدها فتنبه لوجومها وقال:

- خِير أسيل في إيشي؟

نظرت إليه غاضبة:

- قَريت آخر الأخبار؟

- أيّ أخبار؟

- اللي بِيصير بيافا.

- أيّ خَبَر فيهم؟ اللي بيصير بيافا كتير.

- خَبَر مَنْع الأذان عَلَشان واحد مِن اليهود العنصريين أجا سَكَن جَنْب الجامع وصوت الأذان بيزعجُه.

أومأ برأسه إلى الأمام قائلاً:

- سمِعِتْ..سمِعِتْ..يَعني إيشْ جديد بالموضوع؟ كل يوم والتاني طَالعِينْ لنا بموضَة جديدة عَلَشان يضيقوا على العرب الفلسطينيين اللي بالداخل بهدف تَطْفِيشهُم.

هنا قاطعته أسيل بحدة:

- ما فَشَروا.. هاي أرضنا ومُستَحيل نِطْلَع مِنها ونتركلهم إياها.

ثم قالت بغضب شديد والدموع تلمع من تحت جفنيها:

- بَسْ لإمتى؟ لإمتى؟

قررت في تلك اللحظة، وقبل أن تبدأ حياتها الجديدة، ومستقبلها الذي يلفه الغموض أن تقف للحظات وتنظر إلى الخلف..للماضي الذي يسكنها رافضًا أن يتركها..عزمت أن تزور قريتها.

قامت مستأذنة من والدها:

- مَعلِش يابا بِدّي أروح مِشوار ومِشْ رَح أطَوِّل.

قال والدها مستفسرًا:

- خِير؟ وين رايحه؟

أجابت وهي تهم بالخروج:

- مايِنْفَعِش إني أسافر بِدون ما أسلم على البروة.

أومأ والدها برأسه للأمام في تفهم وهو يضيف:

- سَلميلي عَليها.

- الله يسلِم عُمرَك.

كانت تريد زيارة قريتها قبل السفر لعلها تستمد من صمودها أيام العدوان إرادة تستطيع بها أن تتخطّى ما هي فيه.

أرادت استرجاع لحظات الصمود ورائحة شجر الليمون.. استقلت سيارتها وتوجهت نحو قريتها ...

قرية المحاربين ...

البروة ...

***

دائمًا ما كانت تحب الإصغاء لجدها وهو يحدثها عن تلك القرية..عن بسالة المحاربين عشية الإحتلال.

تحديداً في حزيران (يونيو) ١٩٤٨.

حين كان هو ورجال القرية يتصدون للعدوان الغاشم، وفي كل مرة كان يحدثها بحماس عن مباغتة أهالي القرية للمحتلين الصهاينة ومهاجمتهم مما اضطرهم للانسحاب. وكم كانت تحب تلك اللحظة التي كان يقف فيها على رجليه حاملاً عكازته بطريقة تمثيلية راويًا لها بفخر متجدد عن ذلك اليوم الذي كان واقفًا فيه في الصف الأمامي للهجوم مع رجال القرية المسلحين، وتبعهم الرجال غير المسلحين، وكان رجال القرية يحاربون بشجاعة الرجل الفلسطيني الذي يأبى أن تغتصب أرضه. كم أحبت نظرات الحب التي كان يوجهها لجدتها وهو يروي وقوفها مع نساء القرية حينها لمعاونة الرجال في المؤخرة حاملات الماء، ليسعفن المصابين من المقاتلين الرجال..إذ كان هو أحد الرجال الذين أُصيبوا في المعركة وكانت جدتها آنذاك أول المهرولين لإنقاذه على الرغم من أنها كانت حاملاً بوالد أسيل.

وكل مرة كان يصل لمرَحلة تحرير البروة ثم يتوقف عن الكلام وكأنه تذكر شيئًا أحزنه...!

كانت في الخامسة عشرة من العمر عندما سألت جدها بتلقائية:

- طَبْ سيدو..كيف احتَلّوا اليهود البروة إذا إنتو قدِرتوا تدافعوا عنها بكُل هاي القوة وتْحَرِروها؟

عندها لمعت في عيني جدها دمعة ألم وأجاب:

- ومين قال إنهم احتَلّوها؟

نظرت أسيل باستغراب دون أن تنطق بأي كلمة.

مسح جدها على رأسها قائلاً:

- البروة عُمُر ما حَد قِدر يحتَلّها.

صمت للحظات ليستطرد متألما:

- بعد ما دافعنا عنها بكل قوتّنا وبدَم الغاليين علينا، سلمناها لجيش الإنقاذ اللي بعد ساعة وحدِة سلّموها لليهود على البارد المِستريح..ما حَدّش قِدِر يحتل البروة بَسْ إيش بدي أقول؟ حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي كل مرة كان ينهي ذكرياته ماسِحًا بكفه على شعرها الناعم قائلاً:

- يا عمري إحنا فلسطين، وإنتِ فلسطين، وريحة شجرة الليمون اللي بتفوح من البروة هي ريحتي وريحتك وريحة أبوكي وريحة ستّك الطيبة.

أما والِدها فلم يولد في قريته إذ وُلِد بمنطقة "جديدة المكر" القرية الواقعة شرقي مدينة عكا، وانتقل للعيش في حيفا بعد زواجه من والدتها وبالرغم من أن أباها ولد من رَحم النكبة إلا أن جدها استطاع أن يزرع حب البروة ورائحة شجر الليمون في وجدانه من

صغره، وما أصعب على الإنسان أن يولد وهو يحمل لقب لاجئ ويحلم وهو في رَحم أمه بحق العودة، العودة لشجرة الليمون الفواحة والأرض الطيبة.

ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تتذكر جدها حاملاً عصاه وقد أزعجتها رائحة فضلات البقر، المنبعثة من مزرعة بقر تابعة للقرية اليهودية التي أُقيمت على أنقاض بيت جدها مما بدل رائحة ليمون البروة بتلك الرائحة الكريهة.. لم تنتبه إلى أن الشمس شارفت على المغيب وهي متكئة على سيارتها بجانب الطريق..كما أنها لم تنتبه كم من الوقت مضى إلا بعد أن بدأت تشعر ببرودة المكان تتسلل لجسدها النحيل.

عادت واستقلت سيارتها وأتجهت مباشرة للبيت.. لم يزعجها ازدحام الطريق هذه المرة بل كانت هادئة جدًا وهي تستمع إلى صوت فيروز الدافيء وهي تغني:

"سنرجع يومًا إلى حيينا ونغرق في دافئات المنى

سنرجع مهما يمر الزمان"

وصلت إلى البيت لتنهي ما تبقى من تجهيزات السفر. وبعد أن أنهت تحضير كل احتياجاتها ليلة قبل مغادرتها..أمضت ليلتها مع والدتها ووالدها وأُختها تغريد بضحكاتها ومعاكساتها لهم.

جلست أسيل على الأريكة الكبيرة الملقاة بطريقة عشوائية على الأرض وتغريد كانت قد نامت واضعة رأسها على فخذ أسيل كالطفل المدلل.

قام والدها من مكانه موقظًا تغريد لتنام في سريرها مدركًا مدى تعلق الأختين ببعضهما ونوم تغريد بهذه الطريقة كان نوعًا من المناجاة لأختها كمحاولة أخيرة لاستجداء عواطفها للبقاء وعدم الرحيل.

أوصل تغريد إلى غرفة نومها انتظر قليلاً حتى تغلق جفنيها بهدوء وتستسلم للنوم ثانيًة نظر إليها كأنه يقرأ ما يجول في خلجاها من ألم الفراق، قبّل جبينها وعاد ليجلس مكانه على كرسيه ناظرًا لأسيل، وهي ما زالت متكئة على الأريكة بنوع من القلق المبهم.

كسرت الأم ذلك الصمت الذي خيم على البيت سائلة:

- مِين بِدُه شاي مع نعنع؟

قالت أسيل:

- آه يا ريت يامّا.

توجهت الأم إلى المطبخ لتحضير الشاي الأخير لليلة الأخيرة لوجود أسيل بينهم قبيل السفر.

نظرت أسيل لوالدها قائلة:

- إيشْ يابا؟ بِنْتَك رَح تصير دكتورة.

نظر إليها نظرة معاتبة قائلاً:

- كُنتْ بَفَضِل بنتِ تكون سعيدة بِغَض النظر عن الألقاب.

أدرك أنه وضع إصبعه على مكان الوجع فاستطرد قائلاً:

- إنتِ بتِعرَفي إنّك مِشْ بَسْ بِنتِ، إنتِي صَاحِبتِ وحبيبتِ وأغلى إيشي عِندي، وُجودِك بحياتِ هو الشمس والحياة ولما بتِبعدي بتوخدي مَعِك الشمس.

وابتسم مستطردًا:

- وريحة ليمون البروة.

قامت أسيل لتقبل رأس والدها قائلة:

- بَوعدَكْ يا أبو أسيل إنك رَح تِرفَع راسَك بِبِنْتَك الدكتورة أسيل كيال.

احتضنها قائلاً:

- مِشْ لازم تُوعِديني، أنا فَخور فِيكي.

***

على مدخل مطار بن غوريون وقف الجميع لتوديع أسيل قبل مغادرتما البلاد، وقبل أن تدخل أسيل مرحلة التفتيش وأسئلة الأمن المعتادة ودعت أختها تغريد محتضنة وموصية:

- ديري بالِك على حَالِك ورَكزي هاليومين، بدون شقاوة أوّل سنة جامعة مِشْ سِهلة.

قالت تغريد محاولة إخفاء دموعها:

- ما تقلقيش عليّ ومن هلأ بقولك حضريلي هدية نجاحي.

ابتسمت أسيل قائلة:

- عيوني إلك يا بنت.

وقفت أمها والدموع تغمر عينيها ناظرة لبناتما بحب ممزوج بالقلق..احتضنت أسيل أُمها بقوة محاولة التماسك هامسة في أذنما:

- رح أشتقلك قد الدنيا.

ضحكت أمها رغم الدموع..إنما الجملة ذاتما التي كانت تقولها أسيل وهي في الحضانة حتى المرحلة الإبتدائية عندما كانت توصلها والدتما إلى المدرسة.

أما هي ووالدها فقد تماسكا بقوة إلى أن احتضنها لينهمر الدمع بغزارة.

قبلته على خده قبل أن تمسح دموعه:

- إيشْ أبو أسيل قَلَبْنَاها دراما..! يلا سلام.. رَح أشتَقِلكُم.

حملت حقائبها متجهة لمرَحلة التفتيش حتى وصلت حيثما يقف عامل الأمن ليطلب جواز سفرها:

- جواز السفر لو سمحتِ.

قبل أن تعطيه جواز سفرها نظرت إلى حيث يقف أهلها لتنظر لوالدها ووالدتها مبتسمة، وتمسح آخر دمعة سالت قبل أن تتنبه لمعاودة عامل الأمن تكرار طلبه:

- إسمحي لي..إذا ممكن جواز سفرك.

نظرت إليه أسيل:

- تفضل.

فتح عامل الأمن جواز سفرها وما أن نظر فيه حتى بدأ يسألها بلهجة من يحقق في جريمة:

- هل هذه الحقائب لكِ؟

- نعم لي.

- هل ساعدك أحد بتحضيرها؟

- لا لم يساعدني أحد.

- هل طلب منك أحد تمرير أي شئ لأي شخص موجود في الخارج؟

- لا..

- هل تتضمن أغراضِك أي شئ يشبه أي نوع من الأسلحه؟

نظرت إليه أسيل بنوع من الاستهزاء..كادت تقول أنها تحمل أر بي جيه وبعض المتفجرات إلا أنها استدركت الأمر لتذكرها أن طائرتها ستقلع ولن يكون لديها متسع من الوقت..لذلك رسمت على شفتيها إبتسامة وقالت:

- نعم .. السشوار.

أجابها عامل الأمن:

- السشوار مسموح.

- أشكرك..

- هل تحملين أي أدوات كهربائية معك؟

- فقط حاسوب محمول بالإضافة إلى السيشوار طبعًا.

- إلى أين أنت متوجهة؟

- إلى مصر.

- وما الهدف من زيارتك؟

- دراسة، أحضر الدكتوراة هناك.

- ولماذا مصر بالتحديد؟

وهنا ضاقت به ذرعًا ولكنها تمالكت نفسها وقالت:

- ببساطة لأني رشحت لمنحة إستثنائية.

- هل تعرفين أحد هناك؟

أجابت باقتضاب:

- لا.

- وأين ستستقرين؟

- لست أدري .. في بادئ الأمر في فندق وبعد ذلك سأفتش عن مكان للاستقرار.

ناولها عامل الأمن جواز السفر ووضع على حقيبتها الكبيرة طابعًا صغيرًا شحب وجهها حين وضعه فقد عرفت ماهيته على الفور..ذلك الطابع الذي تسميه واصدقائها طابع التشريفة للعرب في مطار بن غوريون..قالت لنفسها: "اللهم طولك يا روح".

نظرت لحقيبتها مشفقة عليها مما سيصيبها بعد قليل وفكرت بينها وبين نفسها كيف أن وضع ذلك الطابع على أي حقيبة يكفي

لتفتيش الحقيبة وصاحبها بدقة متناهية ناهيك عن التدخل في أمور شخصية مهينة.

تناولت أسيل جواز السفر، واتجهت إلى مكان تفتيش الحقائب ليقوم عامل أمن آخر بتفتيش كل حقائبها وما أن فتحت الحقائب بدأ في تمرير أداة الكترونية كالعصا..ابتسمت أسيل بينها وبين نفسها وهي تفكر: "هذا الغبي يعتقد أنه سيعثر على اليورانيوم المخصَّب".

وعند انتهائه أرادت أن تطلب منه معاودة التفتيش عله يجد بعض الدبابات إلا أنها قبل أن تقول شيئًا قام بإخراج كل أمتعتها وأغراضها الخاصة من الحقيبة، ليضعها جانبًا وبدأ بنبش الأمتعة بهمجية واضحة.

وبعد أن أنهى النبش في أمتعتها نظر إليها قائلاً:

- تعالي رافقيني للغرفة.

فكرت أسيل.."تبًا لتلك للغرفة".

لم تتخيل أنها ستدخلها ثانيًة..لقد دخلتها من قبل في أول مرّة سافرت فيها عبر مطار بن غوريون ورغم تكرار سفرها إلا أنها لم تدخلها لأسباب تجهلها، وهي تجهل أسباب استدعائها الآن.

عند دخولها "الغرفة" دخلت معها عاملة أمن لا تمت للأنوثة بأي صلة، طلبت منها أن تخلع حذاءها وجرابها وملابسها القطعة تلو

القطعة، وبدأت تتفحص ملابسها الداخلية بنظرات لا تخلو من الإهانة والاستفزاز.

سألتها أسيل:

- من وجهة نظرك ماذا يمكن أن أضع في ملابسي الداخلية وأنا ذاهبة لتحضير الدكتوراة..أسلحة دمار شامل مثلاً؟

نظرت إليها من تفتشها أو من يفتشها، فهي لم تجد دليلاً بعد على أُنوثة الواقف أمامها، نظرة خالية من أي مشاعر لتعاود التفتيش بمزيد من الأهانة.

انتهت من عملها ثم القت ملابس أسيل على الأرض قائلة:

- تستطيعين ارتداء ملابسك والتوجه لأخذ حقائبك.

تمالكت أسيل نفسها حتى لا تبكي أمامها، ولكي لا تعطيها فرصة الشعور أنها انتصرت عليها وأذلتها، ارتدت ملابسها بكل هدوء وتوجهت لحمل حقائبها التي أضحت مبعثرة كأن عاصفة هوجاء مرت عليها وقلبتها رأسًا على عقب.

شعرت لحظتها أن ليس فقط أغراضها التي تبعثرت على يد هؤلاء العنصريين، ولكن كرامتها التي كانت أغلى ما تحمل معها قد تبعثرت ومسحت بها أرض المطار..لملمت أشلاء كرامتها ورفعت حقائبها؛ لتتوجه حيث تجلس عاملة شركة طيران "ال عال" كي

تسلمها حقائبها الكبيرة وتحدد لها مكانًا على متن الطائرة، اقتربت منها أسيل قائلة بصوت مخنوق بعض الشئ:

- مرحبًا.
- أهلاً.
- رحلتي ستقوم بعد ساعتين من الآن.
- مصر؟
- نعم لمصر.

واستطردت قائلة بعد أن جاهدت حتى لا تذرف أي دمعة أمامها:

- إذا ممكن أن تحجزي لي مكانًا بجانب الشباك بعيد عن جناح الطائرة.

ابتسمت العاملة وقالت:

- بقي مكان واحد بجانب الشباك، على ما يبدو أنه كان في انتظارك.

أعطت أسيل بطاقتها وطلبت منها وضع حقائبها الكبيرة في المكان المخصص لتلك الحقائب كي توصلها للرحلة المتوجهة لمصر.

وضعت أسيل الحقائب حيثما طلبت العاملة وحملت معها حقيبة ملابس صغيرة بالإضافة لحقيبة يدها وتوجهت حيث باقي الركاب ينتظرون موعد طائرتهم.

قبل دخولها قاعة الانتظار نظرت للمرة الأخيرة تجاه عائلتها التي كانت تنتظر بقلق خروجها من ال"غرفة"، ابتسمت مهدئة ومطمئنة أنها تجاوزت التفتيش بسلام رفعت يدها مودعة، وأرسلت لهم قبلة من بعيد لتبدأ السير ولتختفي من وراء البوابة الزجاجية باتجاه المجهول.

بعد دخولها من الباب الزجاجي الكبير مرت ببعض الحواجز الأمنية من فحص متجدد لأمتعتها، وختم الجواز وفي النهاية دخلت صالة الانتظار "والتبضع" وبدأت بالسير بخطى متثاقلة كأنها ستسير إلى الأبد حتى تصل إلى تلك القاعة الضخمة دائرية الشكل التي تحيطها الحوانيت المختلفة. توجهت إلى قسم العطور والمكياج محاولة أن تلهي نفسها بالمشتريات والتنقل بين الرفوف، في حين تملّكها شعور غريب بغربة المكان، على الرغم من أنها سافرت عبر نفس المكان العديد من المرات في رحلاتها السابقة إلى أوروبا إلا أن ذلك الشعور لم يكن ينتابها من قبل بل على العكس تمامًا،كان المطار هو مكانها المفضل للتبضع وإنفاق النقود، ولكن هذه المرة لا تدري ما هذا الشعور الغريب الذي يتملكها، شعور الغربة بطعم المرارة وداخلها احتله الفراغ، شعرت أنه لو أطلق أحدهم الرصاص عليها في تلك اللحظة.. ستمر الرصاصة عبر فراغ جسدها لتستقر على ذلك الحائط خلفها دون أن تشعر بأي ألم.

حدقت في المكان كأنها ستراه للمرة الأخيرة كأنها لن تعود لهذه الأرض مرة أُخرى. ترى هل هذا الشعور هروب؟ هل هو إنكار؟ ام أنه إنكسار؟

لا تدري ...

نظرت حولها كالتائهة غريبة عن المكان والمكان غريب عنها. المطار مزدحم بالمسافرين تسمع كل اللغات محيطة بها، اللغات الأجنبية والعربية تملأ الفضاء، إلا أن أذنيها لا تستقطب إلا صوت الصمت المنبثق من داخلها والمخيم على عالمها. تزعجها الذكريات تصرخ في رأسها رافضة أن تتركها لحال سبيلها.

عيناها تائهتان في فضاء المطار. يعيدها لأرض الواقع وينتشلها من حالة عدم الاستقرار صوت أنثوي ناعم مناديًا على المسافرين للتوجه نحو طائرة "ال عال" المتجهة للقاهرة.

تسير بخطى مثقلة باتجاه المكان المؤدي للطائرة. تجر حقيبتها الصغيرة على الأرض منصتة بصمت لصوت أنين الرَحيل بين عجلاتها.. تستقل الطائرة، وتجلس في المكان المحدد لها بجانب الشباك عند جلوسها تخرج ال "إم بي ٣" وتضعه في إذنيها وتطير مع فيروز بين السحاب، وتسرَح بخيالها.

ماذا ينتظرها في مصر؟

تتذكر كل الأفلام المصرية التي شاهدتها، بدأت تسترجع كل المشاهد التي تحبها في تلك الأفلام كأنها تراجع قبل دخول الأمتحان ولكن لم يكن الوقت كافيًا...

فهي الآن تسمع صوت الربان معلنًا وصولهم إلى مطار القاهرة.

لم تقم من مكانها حتى تتأكد أن معظم الركاب نزلوا و لم يعد هناك ما يعرقل نزولها. تقوم بخطوات بطيئة متجهة نحو باب الطائرة لتستنشق هواء القاهرة لأول مرة في حياتها.

***

-الفصل الثاني-

تحركت لتستقل الحافلة التي ستقلها مع باقي الركاب باتجاه مدخل مطار القاهرة الدولي وليخفق قلبها حين رأت تلك الآية من سورة يوسف مكتوبة على أعلى البوابة:

"أُدخلوا مصر إن شاء الله آمنين"

كم ارتاحت عند قراءة تلك الآية الكريمة..

دخلت قاعة المطار حاملة على كتفها الأيمن حقيبة يدها بينما تجر بيدها اليسرى الحقيبة التي حملتها معها على الطائرة، وتوجهت يسارًا لتقف خلف من كانوا معها بالطائرة لختم جواز السفر، وبعدها بخطوات توجهت لأخذ حقائبها من المكان المخصص لها.

بعد مدة من الانتظار، حقائبها لم تصل.

انتظرت كثيرًا ولكن نفس النتيجة لا وجود لحقائبها.

ما هذا الحظ السيئ الذي يطاردها في كل مكان تتجه إليه؟ توجهت لأحد العمال في المطار لتستفسر عن سبب التأخير:

- إذا سَمَحِتْ مُمكِن تِفْحَصْلي إيشْ الـمُشْكِلِة بِشَنَطي ليشْ ما طِلْعُوش لَحَد هَلأ؟

نظر إليها نظرة تحمل بعض الاستخفاف وقد أدرك أنها كانت إحدى ركاب طائرة "ال عال" الإسرائيلية لتجده يكلمها بطريقة جافة غير مبالية:

- يعني إنتي عايزاني أسيب مكاني وأروح أدورلك على شنطك؟

ردت عليه أسيل وهي تحاول أن تتمالك أعصابها:

- مِشْ هذا شُغْلَك ولا أنا غَلْطَانة؟

أشاح العامل بوجهه عنها وهو يضيف:

- لأ مش شغلي وروحي شوفي حد تاني ماتعطلينيش.

أدركت كم يجهل هذا العامل حقيقتها، لا يكفي أنها تذوقت طعم الإهانة المرير في مطار بن غوريون كونها عربية فلسطينية من فلسطينيي ال ٤٨، والآن يجب أن تتذوق طعم العلقم من هذا البائس. أخذت نفسًا عميقًا لتعاود الكلام مرة ثانيَّة معه قائلة:

- مَعْلِش إذا سَمَحِت ممكن تساعِدني ألاقي شُنَطي؟

لم يحاول حتى النظر إليها تلك المرة وإنما أشار بإصبعه تجاهها قائلاً:

- قلت لك شوفي شنطك فين بعيد عني.

في تلك اللحظة لم تتمالك نفسها وبدأت تصرخ في وجهه:

- حتى إنتوا كمان علينا؟ حرام عليكم، مَافِشْ حَد طبيعي هون أحْكِي مَعُه؟

بدأ صوتها يعلو في المطار حتى سمعت صوتًا قويًا من ورائها يقول في هدوء :

- في حاجة يا آنسة؟

هنا وقعت عيناها عليه.

***

مطار القاهرة هو ثاني أكبر مطارات القارة الأفريقية، حيث يستقبل ما يقرب من ١٥ مليون مسافر سنويًا، كان قد احتل حسب تقرير منظمة الطيران المدني المركز الأول من ناحية التنظيم والإدارة في القارة الأفريقية.

كان الرائد أدهم يفكر في هذا ويعرف حجم المسؤولية الملقاة على كاهله جراء ذلك وهو يجوب بعينيه في أرجاء مبنى رقم ١.

فقد كان مسؤولاً عن أمن ذلك المبنى وهي مسؤولية جسيمة فالخطأ فيها يعني كارثة.

الآن بالذات كان متوترًا فطائرة شركة "ال عال" الإسرائيلية قد حطت وسيبدأ ركابها بالخروج، هذا يعني أن عينيه لابد أن تكونا في وسط رأسه فبالإضافه لحتمية تفتيش ومراقبة كل ركاب الطائرة بحرص شديد، فقد كان عمال المطار يتعمدون أن يبدوا أفظاظًا مع ركاب تلك الطائرة بالذات لأسباب معروفة للجميع.

حتى هو، وهو يتعامل مع هؤلاء الإسرائيلين يقاوم رغبة عارمة في تحطيم رأس كل واحد منهم محاولاً دائمًا الاحتفاظ بابتسامته في وجه الجميع وهو يؤدي واجبه.

لكنه لم ولن ينسى أبدًا أن والده قد استشهد في حرب أكتوبر المجيدة فهو من جيل قد تعلم أن يكره إسرائيل وكل ما يمت لها بصلة و ...

قطع تفكيره فجأة صوت جلبة صادرة من بعيد فتوجه نحوها واستطاع أن يرى فتاة في مشادة مع أحد عمال المطار.

يبدو أن الركاب قد خرجوا بالفعل من طائرة "ال عال" وبدأت المشاكل. قال الرائد أدهم لنفسه وهو يتوجه ناحية تلك الفتاة قائلاً:

- في حاجة يا آنسة؟

هنا وقعت عيناه عليها...

أشاح بوجهه بعيدًا في حركة ملفتة فقد أحس بأن تلك الفتاة..لا يعرف كيف يصف ما أحس به، هناك هالة من الجمال تحيط بها..! لا..ليس مجرد أن ملامحها جميلة بل يكاد يقسم أن هناك هالة محيطة بها تجعل كل شيء بها جميلاً.

أنت لست مراهقًا أيها الوغد فقم بعملك، قال لنفسه هذا، ونظر إليها محاولاً السيطرة على نفسه قائلاً بصرامة متعمدة:

- في أي مشكلة يا أفندم؟

نظرت إليه بعصبية كانت على وشك الصراخ في وجهه إلا أنها ارتطمت بعينيه ، فخجلت:

- آه..أنا..أنا مِشْ لاقيّة شُنَطي، وعلى ما يبدو إنهم ضاعوا.

- مفيش حاجة ضاعت إن شاء الله يا فندم ماتقلقيش ممكن أشوف باسبورك؟

- آه طبعًا..طبعًا.

أخرجت جواز سفرها على عجل ومدته للضابط.

أمسك الرائد أدهم جواز سفرها وفتحه.

نظر بداخله وقرأ اسمها.

كان اسمها أسيل...

أسيل؟! إنه اسم عربي!

قطعت أسيل أفكاره وهي تقول له بعد أن رأت أنه يطيل النظر في جواز السفر.

- في مُشْكِلة؟

أدرك أنه قد أطال النظر فعلاً وأرجع لها جواز السفر، قائلاً:

- لا يا آنسة أسيل إتفضلي ارتاحي وأنا هاتابع المشكلة وهاجيبلك شنطك لحد عندك، آنسة برضه مش كده؟

ردت عليه بصوت هادئ:

- آه آنسة.

ابتسم الرائد أدهم وذهب ليتفقد الأمر، أحست أسيل ببعض التعب بعد المشادة فنظرت حولها باحثة عن مكان تجلس فيه منتظرة ذلك الضابط على أمل أن يعيد لها حقائبها الضائعة، لم تدرِ أين

تجلس حتى لا يبحث عنها حين يعود، توجهت نحو أقرب حائط ووضعت حقيبتيها بجانبه وجلست متربعة على الأرض بدون تكلف، ركزت رأسها على الحائط في محاولة لتهدئة نفسها، جلست مسترخية تنتظر.

لكنها لم تستطع إلا أن تراقب ذلك الضابط الوسيم هادئ الملامح والطباع، كم ارتاحت لوجوده هناك كأنه منقذ من السماء.

فهي لم تنس ولو للحظة أنها آتية على متن طائرة "ال عال" الإسرائيلية ومن المتوقع أن تتلقى الكلمات الجارحة من عمال المطار ولكن تواجد ...!

تبًا، لقد نسيت أن تسأله عن اسمه، أغمضت عينيها غاضبة من نفسها.

بدأت تخمن اسم ذلك الضابط، ممكن هاني أو ماجد أو صلاح.

نظرت حولها كأنها تبحث عن الجواب في عيني أحد العاملين في هذه الصالة، تجول بنظرها أرجاء الصالة التي تعد صغيرة مقارنة بصالة الركاب في مطار بن غوريون.

استرقت النظر لوجوه العمال هناك ونظرت إلى العامل الذي صرخت في وجهه عندما رد عليها بطريقة مستفزة، علّه يهمس لها

باسم الضابط لم تكن غاضبة منه هذه المرة، بل يمكن القول إنها كانت ممتنة أنه استفزها ليجذب ناحيتها ذلك الضابط الوسيم.

نظرت إلى الساعة بقلق وقد مرت عليها تلك الدقائق القليلة وكأنها حياة كاملة، لم تتوقع أن أول حادث لها في القاهرة سيكون مشاجرة في المطار، تذكرت ذلك الضابط الوسيم فابتسمت، لم يكن ما حدث بهذا السوء في النهاية.

نظرت مرة أخرى للساعة كأنها تستجدي الوقت وتستعجل الدقائق لشعورها بملل الانتظار، لكن الوقت لا يمر، كأن عقارب الساعة تسخر من عينيها المترقبة، قلقها بدأ بالتزايد والضابط لم يعد بعد.

نسيت أمر الحقائب، نسيت لماذا أرادت أن يعود هي تريده فقط أن يعود بغض النظر عن السبب لأنها شعرت بالارتياح لوجوده هناك.

شعرت بالأمان ..!

تأخر الضابط عليها ولكي لا تشعر بالملل المتعاظم بداخلها أخرجت كتابًا من حقيبة يدها عنه يخرجها من توترها، وبدأت في القراءة، ومَن أفضل مِن نزار قباني في تلك اللحظة لينتشلها من توترها؟

مرت الدقائق بدون أن تشعر بانقضائها..خمس وأربعون دقيقة تمامًا ليعود بعدها ذلك الضابط الوسيم.

لم تشعر بحضوره للحظة لأنها كانت منهمكة في قراءة أحب القصائد على قلبها "رسالة من سيدة حاقدة" حملتها تلك القصيدة لماض قريب أعادها لتجربتها المؤلمة مع كمال، حتى رأت أقدام الضابط واقفًا أمامها وهي جالسة متربعة على الأرض.

توترت بعض الشئ، أغلقت الكتاب ووضعته في حقيبة يدها. نظرت إلى الأعلى مبتسمة، فمد يده ليساعدها على الوقوف، وقفت أمامه صامتة و لم تنتبه إلى أن الحقائب لم تكن بحوزته، لكنها كانت سعيدة أنه قد عاد مرة ثانية، نظرت إليه مستفسرة:

- خير إيشْ صَار مَعَكْ؟

- أنا آسف يا آنسة أسيل واضح إن الشنط هاتتأخر عليكي شوية يبدو إنها راحت بالغلط لمكان تاني، لكن أوعدك إني هاجيبهالك، لو ممكن تديني عنوان إقامتك في مصر وأنا هاوصلهالك لحد عندك؟

ارتبكت أسيل للحظات لا تعرف كيف ترد لكنها استطردت قائلة:

- شوف يا حضرة الضابط أنا رَح أقْعُد في أُوتيل بَسيط لَحَد ما الاقي مَكَان ثابتْ أستَقِر فيه، يا ريت لو تَعْطيني رَقَمَك وأنا بَتْصِل فيك أول ما أوصَل الأُوتيل.

- إنتِي هاتشرفينا في مصر فترة طويلة ولا إيه؟

ابتسمت بهدوء قائلة:

- إن شاء الله، أنا بَحَضِر لَلدكتوراة بجامعَة القاهرة.

- والله؟ جميل ربنا يوفقك، رقم تليفوني أهو ويا ريت تتصلي بيا أول ما تنزلي في الأُوتيل علشان أعرف مكانك، وبخصوص المكان لو تسمحيلي أساعدك في الموضوع ده أنا أعرف شوية ناس ممكن يساعدوكي إنك تلاقي سكن كويس.

ردت أسيل بخجل:

- الله يخليك، خَلَص أنا بَسْ أوصَل الأُوتيل رَح أكون باتِصَال معك.

عاودت أسيل حمل حقيبة يدها وحقيبة الملابس الصغيرة التي حملتها معها على متن الطائرة وتوجهت باتجاه مخرج المطار لتتذكر أنها لا تعرف اسم الضابط، التفتت نحوه وعادت لمكانها مبتسمة بخجل:

- بس يا ريت لو أتشَرَف بإسمَك؟

- اسمي أدهم ...

لحظات كثيرة تمر بالإنسان في حياته قد لا يلقي لها بالا في وقتها، ولكن بعد مرور الزمن نكتشف أن بعض تلك اللحظات قد غيرت مجرى حياتنا للأبد.

فهل تكون تلك اللحظة إحداها...؟!

فكر أدهم في هذا وهو يتابع أسيل بنظره وهي تمشي باتجاه باب الخروج، حقيقة أحس أنها لم تكن تمشي بل تنساب.

هذا هو أفضل وصف لما يراه، تتحرك على الأرض كأنها لا تلمسها .. يا الهي ..! هل هناك رقة في الكون مثل هذه؟

تذكر مقدار الألم الذي أحس به لحظة رأى باسبورها الإسرائيل والذي سرعان ما زال عندما فتحه ورأى اسمها بالكامل وأيقن جنسيتها الأصلية، هي ليست إسرائيلية أبدًا وإن كانت تحمل جواز سفرهم.

تذكر نقاشه مع أحد اصدقائه حول هذا الأمر حيث أن صديقه هذا يعتبر عرب ٤٨ إسرائيليون يقع عليهم ما يقع على الإسرائيلين.

ترى هل يظل صديقه على رأيه إن رآى هذا الملاك؟

سمع جلبة أخرى في أحد أرجاء الصالة فنفض عن ذهنه تلك الأفكار وذهب ليتفقد الأمر وهو يحثّ الخطى فقد أحس بأنه أهمل

عمله قليلاً ووضع كل تركيزه مع أسيل، ما أجمل هذا الاسم فكر في هذا وهو يقترب من الجلبة حتى سمع من يقول:

- سأقاضيك أيها المصري الحقير لتعرف من أنا، أتعتقد أني لم أفهمك؟ لن أخرج من هنا الآن قبل أن أخذ منك حقي لتعرف من أنا.

تدخل أدهم وقد وضع قناعًا من الصرامة على وجهه وهو يقول:

- في إيه بتزعق ليه يا أستاذ؟

أسرع إليه الرجل الذي ما أن رآى بذلته الرسمية حتى سارع بإخراج جواز سفره ليريه لأدهم وهو يقول:

- إسمي داني عزرا.

أشار إلى أحد عمال المطار وهو يقول:

- هذا الحقير ما أن مررت بجانبه حتى قال لي بالعربية وهو يعتقد أني لا أفهمها إنني إرهابي الآن يجب أن أريه من هو الإرهابي ولن أتنازل حتى يتم فصله.

فكر أدهم في داخله: "أنت هو الإرهابي فعلاً أيها الوغد" لكنه لم يكن يستطيع أن يظهر ما بداخله فاكتفى بالقول:

- دعني أحل لك المشكلة، من فضلك تعال معي إلى مكتب الأمن.

حاول الإسرائيلي أن يقول شيئًا ما..إلا أن نظرة أدهم الصارمة جعلته يتبعه بلا نقاش:

- تحب تشرب إيه؟

قال له أدهم ما أن جلس الرجل أمامه ولكن الرجل قال:

- لا أريد أن أشرب شيئًا، فقط أريد أن آخذ حقي من هذا الحقير.

- دعني أفهمك شيئًا يا داني، اسمك داني صح؟

- نعم.

- حسنًا، أنت تعرف جيدًا أنك على أرض عربية، ومهما كنا كحكومة متعاونين معكم بشكل أو بآخر فهذا قد لا يعكس نظرة الشعب المصري كله إليكم.

أنت تفهم طبعًا ما أقول.

- هل تريد القول إنني إرهابي حقًا؟

- أنا لا أقول شيئًا أنا أحاول إفهامك يا صديقي أنني كضابط أمن من واجبي حمايتك هنا، ولو أصررت على التواجد في وسط هذا العدد الغفير من المصرين والعرب الذين باتوا الآن يعرفون إنك إسرائيلي بل وتحاول إيذاء أحد المصريين العاملين هنا فا....

اقترب منه أدهم قليلاً ونظر إليه نظرة ذات معنى وأكمل:

- فسيكون الحفاظ على أمنك مهمة صعبة قليلاً..! أليس كذلك؟

توتر الإسرائيلي قليلاً ثم قال:

- ماذا تريدني إذن أن أفعل يا حضرة الضابط؟

- لا تفعل شيئًا، فقط إنس أمر الشكوى التي تصر أن تتقدم بها وبالنسبة للعامل تقبل إعتذاري بالنيابة عنه وأنا أعدك بإنني سأتخذ الاجراءات اللازمة ضده حتى لا يتكرر مثل هذا الأمر.

صمت الإسرائيلي للحظات، حاول إضافة شيء ما إلا أن أدهم قال:

- أنا لا أرغمك على شيء أنا فقط أفكر في سلامتك يا صديقي.

زاد توتر الإسرائيلي مما أكد لأدهم أنه كان على حق حينما طرق غريزة الخوف لديه فهم لا يبدون شجعان إلا في وجه الأطفال والنساء والعزل من السلاح فقط.

قام داني من مقعده وهو يقول:

- حسنًا يا حضرة الضابط سأوافق هل يمكنني أن أذهب الآن؟

تلعثم قليلاً وأضاف وهو يضغط على الكلمات:

- هل أنا بأمان الآن؟

ابتسم أدهم و قال له:

- نعم يمكنك أن تذهب الآن ولا تقلق فأنا سأكون معك.

خرج الإسرائيلي ومعه أدهم الذي أوصله إلى باب المطار، عاد إلى وسط القاعة حيث المكان الذي يحب التواجد به ويسمح له بأن يرى القاعة بأكملها وبدأ يفكر ثانية.

في أسيل ...

***

خرجت أسيل من المطار متجهة لموقف سيارات الأجرة، توجهت لأقرب السيارات إليها، كان السائق رجلاً كبيرًا في السن يبدو عليه التعب، سألته بأدب:

- إذا سَمَحِت مُمكِن تْوَصِلِني؟

نظر إليها السائق قائلاً:

- من عينيا يا بنتي إنتِ عايزة تروحي فين؟

أخرجت أسيل من حقيبة يدها عنوان الفندق الذي حجزت فيه قبل وصولها القاهرة، وقرأت اسم الفندق والعنوان وبعدها سألته:

- إنتَ بْتِعرَف الأُوتيل؟

- لأ، بسْ أقدر أوصلك للمكان المكتوب في الورقة دي.

- مِشْ مُشكِلِة أكيد رَح نْلاقيه.

ترجل السائق من سيارته والتقط من يدها حقيبة الملابس الصغيرة التي كانت تحملها معها على متن الطائرة، ووضعها في السيارة من الخلف وسألها:

- مفيش كمان شنط؟

- لأ للأسَف شُنَطي ضَاعوا ومامعيش غير هاي.

ركبت بجانب السائق بلا تكلف وشدت حزام الأمان كعادتها.

نظر إليها السائق قائلاً:

- إنتِ منين؟

- فلسطين.

قال والضحكة تنير وجهه:

- أجدع ناس.

ردت عليه مبتسمة:

- الله يخليك..من ذوقَكْ.

كعادة معظم السائقين سألها:

- إنتي هنا سياحة ولا شغل؟

ردت عليه مبتسمة بلهجة مصرية:

- لا دي ولا دي، أنا هنا دراسة.

- ربنا يوفقك يا بنتي.

لم ترد عليه لأنها كانت تنظر من شباك السيارة مبهورة بالعاصمة المصرية.

كانت تسير الآن في شارع صلاح سالم كما عرفت اسمه من السائق حتى رأت مدخل نفق أمامها نظرت إليه نظرة تساؤل فقال لها:

- اسمه نفق الأزهر وهو إختصار كويس جدًا لمنطقة وسط البلد بيريحنا من الزحمة.

دخلت السيارة النفق وانزعجت قليلاً من صوت الهدير العالي الذي تعكسه الجدران حتى خرجت من الطرف الآخر.

في تلك اللحظة التصق وجه أسيل بزجاج التاكسي كأنها تريد عبوره للناحية الأخرى، وشعرت فجأة بأنها قد عادت إلى بدايات القرن العشرين.

وكأن ذلك النفق آلة زمن عملاقة، كانت كل المباني من حولها عمرها ما يقارب المائة عام، لكنها مازالت تحتفظ بحالتها وجمالها

وشكلها الذي ينبعث منه عبق التاريخ، مرت بجوار عمارة عرفتها على الفور هي عمارة يعقوبيان الشهيرة فقد قرأت الرواية وأحبتها ورأت الفيلم الذي خلد تلك العمارة إلى الأبد..كانت تشعر كأنها سترى الآن شادية وعبد الحليم حافظ يمران في سيارتهما البيضاء المكشوفة..أو ستخرج بديعة مصابني ونجيب الريحاني من أحد مسارح عماد الدين حالاً.

نظرت للسائق نظرة، كأنها تشكره على مروره من هنا ثم عاودت النظر من الشباك ورفعت نظرها إلى الأعلى لتمعن النظر في تلك البناية الشاهقة رائعة الجمال، ليمر التاكسي بجانب كل المحلات الحديثة، وقد كان عبير الماضي يفوح منها وبقوة..وقع نظرها على اللافتات التي علقت من عشرات السنين وما تزال تحافظ على رونقها، ولمست بعينيها حضور الماضي متربعًا على كل حرف كتب عليها.

لم تشعر بمرور الوقت حتى سمعت السائق يقول لها:

- وصلنا يا بنتي متهيألي إن ده الأُوتيل اللي بتدوري عليه.

عاودت النظر إلى السائق كأنه أيقظها من حلم جميل ليرجعها إلى الواقع قائلة:

- فعلاً هو..قَدِيشْ تُؤمر؟

-    ما يؤمر عليكي ظالم يا بنتي، إللي تدفعيه.

أربكها السائق لأنها فعلاً لاتدري ما هو المبلغ الذي يدفع من المطار إلى الفندق.

قالت بخجل:

-    ياريت لَو تْقُولي لأني بجَد مَا بَعْرَفِش قَديشْ أدْفَعْلَك.

ابتسم السائق:

-    سبعين جنية.

بدون تردد أخرجت محفظتها وناولته السبعين جنيها بابتسامة شكر على وجهها.

ترجل السائق من التاكسي ليخرج حقيبتها من الخلف ووضعها على الأرض بينما كانت أسيل مشغولة بإغلاق محفظتها وإعادتها لحقيبه يدها. بعد أن ابتعد التاكسي من المكان الذي أنزلها فيه نظرت خلفها لتجد مبنى بسيطًا مكونًا من طوابق قليلة فهو ليس فندقًا كبيرًا بل من تلك الفنادق حاملة لقب فنادق ثلاث نجوم.

حملت حقيبتها ودخلت الفندق المتواضع لتجد أن غرفة الاستقبال صغيرة بعض الشئ لكنها نظيفة جدًا، يتوسطها كنبة دائرية الشكل حمراء اللون موضوعة بذوق في وسط بهو الفندق، وفي الطرف الثاني من الغرفة التي لا تبعد بضع خطوات عن باب

الاستقبال يوجد متجر صغير جدًا لبيع تذكارات للسائحين، أما عمال الاستقبال فكانوا كلهم من الشباب واقفين كالجنود على أهبة الاستعداد لمساعدة أي وارد من الخارج.

اتجهت أسيل مباشرة إلى عامل الاستقبال:

- السلام عليكم.

نظر إليها العامل مبتسمًا ابتسامة عريضة قائلاً:

- ياه من زمان ما سمعتش حد بيقول السلام عليكم من اللي جاين يترلوا في الأُوتيل.

واستطرد قائلاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا ستي.

ابتسمت أسيل لكن هذه المرة ابتسامة مشوبة بإرهاق، قائلة:

- أنا حَجَزِتْ غُرفِة لَشَخص واحد قَبل أسبوع.

- ممكن الباسبور يا افندم.

أخرجت أسيل جواز سفرها وأعطته للعامل فتغيرت ملامح وجهه عند رؤية الشمعدان اليهودي الشهير على غلافه لينظر إليها شذرًا، لكن بمجرد أن قرأ اسمها بالكامل رفع حاجبيه في دهشة ثم قال لها بنهجة من لا يعنيه الأمر كثيرًا:

- أهلاً وسهلاً بيكي في مصر يا افندم..إنتي حتشرفينا كام يوم؟

- والله لِسَه مِشْ عارفِة يعني يومين تلاتة لَحَد ما الاقي سَكَن.

- يعني أحجزلِك كام يوم معانا؟

- إحجزِ لي يومين وإذا كان لازم أجَدِد رَح أخبرك قَبلها بيوم ماشي؟

- ماشي يا افندم..فين شنطك علشان العامل يطلعهالك على أوضتك؟

- للأسَف شُنَطي ضاعوا بالمطار ومفيش معي غير هالشَنْطَة الصغيرة.

- مفيش حاجة بتضيع أكيد حيلاقوها قريب إن شاء الله.

وينادي على عامل الفندق:

- يا عادل وصل الآنسة على أوضة ٣١١.

حمل عادل الحقيبة الصغيرة، وسارت أسيل خَلفه تتأمل بهو الفندق..

كان صغيرًا وتأثيثه بسيط، ولكنه أنيق ذو تأثير مريح على النفس فهي بطبيعتها لا تحب البهرجة الزائدة عن الحد.

بعد أن أوصلها عامل الفندق لغرفتها واطمأن أن الغرفة على خير ما يرام أعطته البقشيش، ليعاود ويأخذ مكانه في استقبال وافدين جدد.

ما إن أغلقت الباب وضعت حقيبتها جانبًا، ارتمت على السرير محاولة نفض التعب عن جسدها. أغلقت عينيها محاولة سماع السكون بعد يوم صاخب، بقيت مستلقية لعدة دقائق لتعاود التقاط الحقيبة من على الأرض لتضعها على السرير، وأخرجت بيجامتها والصابون وفرشاة الأسنان وتوجهت نحو الحمام لتغير ملابسها لترتاح من عناء يوم مُرهق، ما أن وضعت رأسها على الوسادة شعرت بثقل جفنيها لتنام كأنها لم تنم من سنين، لتستيقظ بعد ساعتين والشمس لا تزال تزين سماء القاهرة، كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر قامت من السرير لتغسل عن وجهها بقايا نعاس ومن بعدها تتصل بالضابط أدهم كما وعدته.

أخرجت من محفظتها رقم الهاتف واتصلت به على أمل أن يكون قد وجد حقائبها الضائعة، وما أن رد على إتصالها بدأت أسيل بالكلام وإبتسامة خجل تزين ثغرها:

– مساء الخير يا حضرة الضابط؟

استغرب الضابط أدهم الصوت ويرد بشئ من الجدية:

– مين معايا؟

تعثرت كلمات أسيل على شفتيها من فرط الخجل لتقول بصوت هادئ:

- آه، أسفِة بَعتذِر على الإزعاج، أنا أسيل اللي ضاعت شنطها بالمطار.

بدل أدهم لهجته الحازمة سريعًا وأجاب:

- آه أسيل إزيك؟ على فكرة أنا اسمي أدهم مش حضرة الضابط.

ردت بخجل:

- معلش أنا كتير بَعتذِر على الإزعاج، بس حبيت أقولَك على مكاني عَلَشان تِبْعَتلي الشُّنَط في حال ولَقِيتهُم.

- أنا كمان على فكرة سألتلك على شقة ولقيتلك شقة في مكان هايل وكمان قريب من الجامعة بس لو تجي تقابليني في أي مكان أخليكي تتفرجي عليها وبخصوص الشنط أنا تابعت موقفها وهي بس راحت بالخطأ لمكان تاني، وهاتكون موجودة معايا خلال ساعتين إن شاء الله.

قالت وقد بان الحرج على نبرة صوتها:

- الله يخليك، بَسْ والله مَا فِشْ داعي لَلتَعب، يعني إنتَ مُمكِن تَعطيني رَقم اللي ممكن يوخُدْني على الشَقة أو تَعطيني عُنوالها، أنا بَسْ مابِديشْ أزِعجَك وأعَطْلَك عن شُغْلَك.

رد أدهم بدون تردد:

- لا يا آنسة أسيل مش تقولي كده أنا هابقى سعيد لو سمحتيلي أساعدك إلا لو إنتي بقى مش تحبي ده.

- لأ مِشْ النَظَريّة، بَسْ أنا مَابحِبِشْ إني أعَطْلَك عن شُغلَّك أو إني أكون السبب في إحْراجَك، بِكَفي مَوْضُوع الشُّنَط اللي غَلَبْتَك فيه معي.

رد أدهم بإصرار:

- يبقى كمان ساعتين تقابليني قدام جامعة القاهرة علشان أفرجك على الشقة مافيش نقاش خلاص. وبصوت متردد ترد أسيل:

- حاضر يا افندم، بَسْ لَحْظة إيشْ رَح نِعْمِل مَع الشُّنَط؟ مُمكِن تْكُون وِصلَتْ؟

- هاجيبهالك معايا إن شاء الله.

جامعة القاهرة..أقدم جامعة عربية يرجع تاريخ نشأتها إلى العام ١٨٢٠ م منذ ذلك الوقت أصبحت منارة علم لكل الدول العربية، على الرغم من أن مستواها العلمي التنظيمي قد انخفض قليلاً هذه الأيام نظرًا للتدخلات السياسية والأمنية في تسيير أمورها، إلا أن أسيل كانت تقف أمامها وهي توجه نظرها إلى تلك القبة الشهيرة التي تميز جامعة القاهرة، وهي فخورة بأنها ستنتسب إلى تلك الجامعة.

حتى سمعت صوتًا من ورائها:

- آنسة أسيل يا رب ماكونش إتاخرت عليكي.

استدارت للخلف لترى أدهم، إتسعت ابتسامتها حينما رأته وقد أوقف سيارته وترجل منها لتقول:

- مواعيدك عسكرية يا حضرة الضابط، إنتَ إجيت بِمَوعِدَك تمام.

أشار أدهم إلى سيارته قائلاً:

- مفتاح الشقة مع البواب وهو عارف إننا هانروح نتفرج عليها دلوقتي.

- طَيِّب يلا عَلَشان ما نِتْاخرش على الميعاد.

سارت أسيل مع أدهم باتجاه السيارة وتناهي إليهما صوت شابين يعاكسوها فوقف أدهم ونظر إليهما نظرة غضب أرعبتهم وجعلتهم يبتعدون بخطوات سريعة.

على الرغم من أن مشهدًا مثل هذا كفيل بإسعاد أي فتاة، ولكن أسيل أصابها الحزن وقد تذكرت كمال.

كم كان يصر أن ترتدي ملابس كاشفة حينما تكون معه في الحفلات التي كانا يحضرانها سويا لكي يتباهى أمام أصدقائه بأن خطيبته تمتلك جسدًا جميلاً.

كم حاول آخرون معاكستها من قبل وانتظرت منه أي رد فعل فوجدته سعيدًا بأن هناك من يرى أن فتاته جميلة.

لا تعرف لماذا كانت تحبه بهذا القدر..

تعجبت عندما استخدمت كلمة كانت وهي تفكر!

نفضت تلك الأفكار من رأسها فجل ما تعرفه الآن أنها تشعر بالأمان في هذه اللحظة، وهي تسير مع ذلك الضابط الوسيم.

فتح لها أدهم باب السيارة وهو يبتسم:

- تفضلي آنستي.

ركبت أسيل السيارة وانطلق أدهم بهدوء وهو يقول:

- من وجهة نظري الشقة اللي لقتهالك مثالية فهي في مكان هادي وقريبة قوي من الجامعة وفي نفس الوقت إيجارها مناسب جدًا هي على فكرة مفروشة تمامًا، لكن في النهاية إنتي اللي حتعيشي فيها علشان كده حوريهالك وإنتي تاخذي قرارك.

ردت أسيل بخجل:

- والله مِشْ عارِفِة كيف أشْكْرَك، إنتَ هِيكْ كتير غَلَّبتْ حالَك مَعي، يَعني مِن لَحظة ما وصِلِتْ على مصر وأنا مغَلْبَاك، إن شاء الله أقدر أرُد لَك كل هاي الجمايل.

قال أدهم وهو مندمج في القيادة وينظر حوله ليجد طريقه بين زحمة السيارات:

- إنتي ضيفتنا يا أسيل لو تحبي ترديلي أي حاجة يبقى تسيبيني أساعدك وبس، آه نسيت أقولك شنطك وصلوا الحمد لله ومعايا في شنطة العربية.

ابتسمت أسيل قائلة:

- هذا أوَّل يوم بَوْصَل فيه وهيك، كيف لَما أقْعُد هون تْلَتْ سنين، إيشْ بدو يصير؟

ابتسم أدهم ابتسامة صغيرة:

- إسْمعي تْلَتْ سنين؟ إن شاء الله مش هاتزهقي من مصر أبدًا.

توقف أدهم بالسيارة ونزل سريعًا ليفتح الباب لأسيل:

- إتفضلي وصلنا.

ثم أضاف ضاحكًا:

- في الأفلام دايمًا بيفتح الراجل للست باب العربية بس الموضوع ده طلع مرهق على فكرة.

ضحكت أسيل على تعليق أدهم، ترجلت من السيارة بهدوء، تقدمت بضع خطوات لتقف مستغربة ملتفتة لأدهم لتجده واقفًا بجانب باب السيارة بعد أن أغلقها ناظرًا إليها وظل ابتسامة على وجهه.

- ليشْ لِسَه واقِف مَكَانَك؟ تَعَال وريني البيت.

كان أدهم ينظر إليها وكأنه نسى تمامًا السبب الذي جاءوا من أجله، حتى سمع جملتها ارتبك قليلاً وقال:

- آه أسف سرَحت شوية، إتفضلي من هنا.

سار أدهم بجوارها حتى وصلا مدخل البناية وقابله البواب الذي قال له مبتسمًا:

- أهلاً أهلاً أدهم بيه إتفضل.

صعدوا إلى الشقة، فتح لهما البواب الباب وقال أدهم وهم ما زالوا واقفين على مدخل البيت:

- ها إيه رأيك يا أسيل في الشقة؟

لم تجب أسيل على سؤال أدهم كأنها لم تسمعه لتدخل الشقة بخطوات بطيئة ناظرة حولها لتجد بيتًا مؤثثًا بطريقة مريحة وهادئة

والغريب في الأمر أن أثاث البيت كان يناسب ذوقها تمامًا..غلب اللون البني على أثاث الصالون أما الستائر فكانت بلون البيج الهادئ. دخلت غرفة النوم والمطبخ لتجد أن البيت متناسق من ناحية الألوان والإضاءة الخافتة، هدوء البيت وتناسقه ظهر على وجه أسيل الذي بان عليه السعادة، التفتت إلى أدهم قائلة:

- مِشْ مَعقول يا أدهم إنتَ مِن وين طْلِعْتِلي؟ إيشْ هالحظ الحلو، الشَقَة كتير حلوة ومناسبة، أنا لو قَعَدِتْ كل سنين دراستي بمصر أشُك إني كُنتْ رَح الاقي هيك بيت.

ثم قالت بخجل:

- بَسْ الإيجار هلأ ما يكونش غالي عليّ.

- طالما عجبتك ما تقلقيش من أي حاجة دي شقة واحد صاحبي وهو عارضها بسعر كويس أوي، يلا أوديكي الأُوتيل تجيبي باقي حاجاتك علشان أوصلك بيها للشقة.

- إيش رأيَكْ لَو نِستَنى للَصُبح بيكون أفْضَل؟ بَسْ إنتَ مَا تْغَلِبش حَالَك، إنتَ روح على شُغْلَك وأنا باخد تاكسي بيجيبني لهون.

نظر أدهم في عينيها وقال:

- إسمعي الكلام يا أسيل بطلي الكلام ده.

ترد أسيل باستغراب:

- أي كلام؟

- مِش قلتلك لو عاوزة تردي الجميل يبقى تسيبيني أساعدك؟ هاترجعي في كلامك ولا إيه؟

أطرقت بخجل قائلة:

- طَيِّبْ خَلَص حَاضِر يا حضرة الضابط.

***

بدأت أسيل في توضيب غرفتها، وأول ما بدأت به كانت الكتب التي تخص رسالتها.

وهي منهمكة بترتيب تلك الكتب على مكتبتها في بيتها الجديد التقطت دوسيه يحتوي بعض المقالات عن موضوع رسالتها:

أدب المقاومة.

تناولت أول الملفات وفتحته لتقرأ أول السطور المطبوعة وقد اختارتها لتكون مقطعًا من شعر محمود درويش:

يا دامي العينين والكفين إن الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل

نيرون مات ولم تمت روما

بعينيها تقاتل

وحبوب سنبلة تموت ... ستملأ الوادي سنابل

كانت تطمح في الكتابة عن أدب المقاومة كفلسطينية، على الرغم من أنها تحمل الجنسية الإسرائيلية، إلا أنها أرادت تمرير رسالة من خلال دراستها أن فلسطينيي ال ٤٨ هم فلسطينيون وفلسطينيتهم مزروعة في كيانهم ولا يمكن انتزاعهم من جذورهم.

جلست توضب أغراضها وهي تفكر، كيف ستستعد للذهاب إلى الجامعة وتتمنى أن يكون الدكتور المشرف على رسالتها متفهمًا كي يستطيع مساعدتها كما ترغب.

ولكنها لم تستطع توضيب كل أغراضها في تلك الليلة، وضعت حقيبتها جانبًا بعد أن غيرت ملابسها لبيجامة مريحة، وبدأت التجول في البيت الذي أحبته وارتاحت لوجودها فيه. ذهبت إلى الشباك المطل على جامعة القاهرة، كانت في غاية السعادة أنها ستبدأ دراستها قريبًا.

وقفت تراقب المارة والشوارع أرادت الاتصال بوالدها ووالدتها وما أن رفعت سماعة الهاتف حتى انتبهت للساعة وأن الوقت تأخر،

على الرغم من الوقت المتأخر إلا أن شوارع القاهرة كانت مزدحمة كأنها ساعة من ساعات الظهيرة.

استلقت على السرير، ما أن وضعت رأسها على الوسادة بدأت التفكير في ذلك الشاب المصري الذي يلخص بنظرة واحدة من عينيه رجولة الرجل المصري "وجدعنته"، وأثناء تفكيرها بأدهم تسلل النوم لجفنيها وخطفها لحلم جديد.

***

-الفصل الثالث -

استيقظت من النوم وقامت مباشرة إلى الشباك لتلقي نظرة على ذلك الشارع الهاديء الذي تسكن فيه. اطمأنت أن الشارع مازال هادئًا كما تركته الليلة الماضية فابتسمت ابتسامة اطمئنان، فلم تكن تتوقع أن تجد شارعًا هادئًا في قلب القاهرة مما تسمعه عنها، توجهت بعدها للحمام لتغسل وجهها وأسنانها وتتأهب لليوم الثاني لوجودها في مصر، بممارسة طقوسها اليومية بداية بصلاة الفجر ومن بعدها البدء في توضيب أغراضها وترتيب شقتها، رفعت شعرها الناعم ببضع دبابيس، واستأنفت توضيب الكتب والمراجع التي أتت بها من البيت، بدأت بتعليق اللوحات التي رسمتها تغريد على حائط غرفتها، وأثناء اندماجها بترتيب الكتب على تلك الطاولة القابعة في غرفتها سمعت الجرس يدق في تمام الساعة الثامنة صباحًا.

فتحت الباب لتجد البواب واقفًا أمامها حاملا كيسًا بلاستيكيًا قائلاً:

- صباح الخير يا هانم.

ابتسمت على كلمة هانم وقالت:

- صباح الخيرات.

مد البواب يده بالكيس قائلاً:

- اتفضلي الكيس ده من أدهم بيه.

ارتبكت أسيل للحظة لأن شكلها لم يكن مهيئًا لاستقبال أي زائر في تلك الساعة المبكرة وبالذات الرائد أدهم قالت وهي تنظر بارتباك خلف البواب:

- ليش وينُه أدهم؟

أجاب البواب:

- معرفش يا بنتي هو بس طلب مني أوصلك الكيس ده مع الورقة دي.

ناولها البواب الكيس والورقة واتجه نحو بوابة العمارة ليكمل تنظيف المدخل ورش المياه.

أغلقت أسيل الباب وراءه ووضعت الكيس على الطاولة وفتحت الورقة لتقرأ ما كتبه أدهم:

- صباح الخير، كنت متأكد إن مافيش حاجة تتاكل في البيت فجبتلك الفطار أما القهوة حضريها بنفسك، بالهنا والشفا.. أدهم.

ابتسمت بارتياح واتجهت للمطبخ لتحضير القهوة العربية التي أتت بها من فلسطين، وقسمت من الكيس قطعة من الكعك لتأكلها مع قهوتها الصباحية.

بعد أن حضرت القهوة توجهت نحو الهاتف حتى تطمئن على والدتها ووالدها وأُختها تغريد وتطمئنهم أنها وجدت المكان المناسب في القاهرة وفي وقت قياسي.

تحدثت قليلاً معهم راوية لهم كيف أن أُمورها تسير على ما يرام حتى الآن ثم وضعت السماعة وبدأت تفكر في طقوسها اليومية، وكيف أن الجو في القاهرة قد زاد تلك الطقوس سحرًا وطعمًا مميزًا لقهوة الصباح.

***

مرت عدة أيام وأسيل تحضر لأول يوم دراسة بالجامعة وبدأت الاتصالات لتتأكد من اسم الأستاذ المشرف على رسالة الدكتوراة التي تتأهب لكتابتها، فقد اختارت أن تكون رسالتها بعنوان:

"أدب المقاومة ما بعد نكبة عام ١٩٤٨"

كان لابد أن تتجه لقسم الأدب بالجامعة ؛ لتحدد موعدًا مع الدكتور الذي سيشرف على رسالتها.

دخلت أسيل إلى سكرتيرة القسم وخفقان قلبها يكاد أن يتوقف من شدة التأثر ورهبة المكان الذي شعرت للحظة بالارتياح إليه، وقالت بصوت منخفض:

- السلام عليكم.

كانت السكرتيرة منهمكة بتوضيب بعض الأوراق أمامها حتى سمعت صوت أسيل فردت:

- وعليكم السلام.

- بعد إذْنك مُمكِن تْقُوليلي اسم الدكتور اللي رَح يِشْرِفلي على رسالة الدكتوراة تَبَعيّ؟ أنا اسمي أسيل وهاي أوراق تَسْجيلي لَلمِنْحة.

التقطت السكرتيرة الأوراق من يد أسيل وابتسمت قائلة:

- آه إنتِ أسيل اللي بروفيسور جمال بعت توصية عليها؟ كويس إنك جيتي لأني ماكنتش عارفة أتصل بيكي إزاي، الدكتور أمجد عبد الفتاح هو الدكتور المشرف على رسالتك، وهو على وصول ممكن تستنيه هنا أو لو عايزه تحددي معاد تاني أنا تحت أمرك.

قالت أسيل متلهفة:

- لالا أي وقت تاني..؟ بستناه طبعًا..

انتظرت أسيل عند السكرتيرة بضع دقائق حتى دخل الدكتور واتجه مباشرة لغرفته دون أن يتنبه لوجودها هناك.

استأذنت السكرتيرة منها قائلة:

- بعد إذنك ثواني.

واتجهت إلى مكتب الدكتور وأغلقت الباب خلفها، قائلة:

- إزيك يا دكتور أمجد أسيل عبد الله كيال مستنياك بره بمكتبي.

أجاب الدكتور دون أن ينظر لنسكرتيرة، وهو منهمك في فتح حقيبته وإخراج بعض الأوراق:

- أسيل عبد الله كيال مين؟

- البنت اللي جت من جامعة حيفا بتوصية من دكتور جمال.

نظر إليها الدكتور كأنه تذكر فجأة وقال:

- آه آه ..كويس، خليها تتفضل ...

خرجت السكرتيرة من عند دكتور أمجد لتأذن لأسيل بالدخول:

- إتفضلي هو بانتظارك.

دخلت أسيل عند الدكتور بخطى بطيئة ووقفت أمام مكتبه كالتلميذة التي تنتظر أن يأذن لها أستاذها بالجلوس.

تخيلت الدكتور رجلاً بدينًا كبيرًا بالسن مع كرش وإذا بها تجده شابًا وسيمًا في أوائل الأربعينات من العمر أنيقًا ذا عينين ثاقبتين يمكن القول إنهما ساحرتان بعض الشيء.

رفع دكتور أمجد عينيه باتجاه أسيل ناظرًا لوجهها الهادئ مع ابتسامتها المعهودة ووقف ليسلم عليها:

- أهلاً بيكي آنسة أسيل إزيك؟

بادلته السلام قائلة:

- الحمد لله كيف حَالَك إنتَ دكتور؟

عاود الدكتور أمجد الجلوس وهو يشير بيده لأسيل لتجلس على الكرسي المقابل له، جلست ناظرة إليه منتظرة أن يبدأ هو بالكلام.

تناول دكتور أمجد أحد الملفات من أمامه، يفتحه ليقول بصوت هادئ:

- أهااا، أسيل عبد الله كيال إسرائيلية ....

قبل أن ينهي دكتور أمجد جملته قاطعته أسيل بصوت منخفض ولكن حازم بعض الشئ قائلة بانفعال:

- إذا سَمَحِت دكتور، أنا صَح بَـــحْمِل الجواز الإسرائيلي بس أنا فلسطينية من جذور فلسطينية وبعدين إنتوا ليش بْتِعتِبرونا إسرائيليين إحنا ....

قبل أن تنهي جملتها قاطعها الدكتور بدوره قائلاً مدافعًا عن نفسه:

- أنا بقرا اللي مكتوب قدامي يا آنسة، أنا ما جبتش حاجة من عندي.

ردت أسيل بعد أن هدأت بعض الشئ:

- وهاي مصيبتنا يا دكتور إنه إحنا بْنِقرا بس السطور المكتوبة وبْنِجهَل المكتوب بين السُطور..إحنا مِشْ سطور يا دكتور إحنا بشر إلنا تاريخ ودم إنسكب ليدافع عن وجودنا.

ضحك أمجد بصوت عالٍ وهو يعود بظهره إلى الوراء ثم قال:

- واضح إنك شرسة جدًا يا آنسة أسيل.

همت بقول شيء لكنه سبقها بالقول:

- وأنا يشرفني إني أشرف على رسالتك.

صمتت أسيل بعد تلك الجملة فلم تعرف كيف ترد، رفع دكتور أمجد الأوراق مرة ثانية وعاود القراءة:

- أسيل عبد الله كيال فلسطينية من فلسطينيي ال ٤٨ حاملة درجة الماجستير مع مرتبة الشرف بموضوع الشخصية الفلسطينية في رواية غسان كنفاني، جميل أوي ملفك يا أسيل.

- أشكرك يا دكتور، إمتى ممكن نُقْعُد عَلَشان نِتْنَاقَش بموضوع رسالتي؟

أجاب الدكتور أمجد:

- الدراسة هاتبدأ خلال كام يوم، ريحي إنتي اليومين دول ونبدأ مع أول يوم دراسة إن شاء الله.

قامت أسيل من مكانها ومدت يدها مودعة الدكتور الذي قام بدوره وسلم عليها قائلاً:

- مع السلامة ..

***

في أول يوم دراسة كان الوضع مسليًا جدًا بالنسبة لأسيل، وهي تشاهد الطلبة الجدد والحيرة بادية على وجوههم، إنها أجواء جديدة بالنسبة لهم، كما هي جديدة بالنسبة لها مع الفارق طبعًا، تشاهد الأسر تحاول جذب الطلاب الجدد للانضمام إليها بشتى الطرق، أسرة المستقبل، أسرة الأحرار، أسرة نور الحق.

كلها أسماء يكتبونها على أوراق مطبوعة ويوزعونها على الشباب الجدد، شباب يحاولون جذب انتباه بعض الفتيات اللواتي يظهر عليهن السعادة لأن هناك من لاحظهن.

ابتسمت أسيل وهي تشاهد كل هذا ثم نظرت إلى ساعتها فوجدت أن موعدها قد حان..تحركت باتجاه مكتب الدكتور أمجد ودخلت إلى سكرتيرته:

- صباح الخير..عندي موعد مع الدكتور أمجد.

ردت السكرتيرة وهي تنظر لساعتها:

- صباح النور، في ميعادك تمام خليني أدي خبر للدكتور.

دخلت السكرتيرة لتجد الدكتور أمجد منهمكًا في كتابة شيئًا ما على حاسوبه المحمول، قالت مقاطعة حبل أفكاره:

- أسيل عبد الله كيال في انتظارك بره عندي، أخليها تتفضل؟

رفع عينيه من على حاسوبه لينظر إلى الساعة المعلقة على حائط مكتبه قائلاً:

- جات في ميعادها خليها تتفضل.

خرجت السكرتيرة لتسمح لأسيل بالدخول:

- إتفضلي يا آنسة.

دخلت أسيل عند الدكتور محملة بالمراجع والأوراق التي حضرتها مسبقًا لتكون جاهزة لأي سؤال، أو استفسار من قبل الدكتور، توجهت مباشرة حيثما يجلس:

- صباح الخير دكتور أمجد.

- صباح الخير يا أسيل إتفضلي أُقعدي.

نظر دكتور أمجد في الورق الذي أمامه قائلاً:

- قوليلي بقى يا أسيل، مكتوب إن الموضوع اللي إخترتيه للرسالة هو أدب المقاومة، إنتي ناوية تغيري الموضوع ولا خلاص اختيار نهائي؟

- لأ طبعا مِشْ رَح أغيرُه أنا اختَرتُه وجبِتْ كمان شويّة ملاحظات ونِقَاط اللي بدي أتطرقِلْهُم بالرسَالِة أنا حابه أكتِبْ عَن أدب المقاومة الفلسطيني ما بعد النكبة.

قال دكتور أمجد وهو ينظر إليها مباشرة:

- هو الموضوع جميل ومش سهل في نفس الوقت يا أسيل، ليه اخترتي الموضوع ده؟

اعتدلت في جلستها لتظهر على ملامحها علامات الجدية:

- أنا يا دكتور أمجد أؤمِن إن الفَن والأدَب هُم جَبْهَة مِن جبهات المقاومة..بمَعنى اللي بيحْمِل قَلَم عَلَشان يكتِب عن قَضيتُه بالشِعر أو القِصة أو حتى بالرَسِم مِثلُه مِثِل اللي بيحمل سلاح وبدافِع عَن وجودُه في أرض الـــمَعرَكِة.

إعتدلت في مقعدها وهي تضيف:

- إحنا الفلسطينيين بنْحَاوِل نحَفُر وُجُودْنَا في قلب التاريخ بنكتِبْ شِعر مُقَاوِم، بندْبكَ الدَبْكِة الفلسطينية ونْغَني الأغَاني الوَطَنيّة وإحنَا مَا خَضَعنَاشْ لِلإحتِلال ولا سَمَحنا لُه إنه يمحي ذاكرتنا الفلسطينية أو يقضي على حَضَارِتنا وتَاريخْنا، والفلسطينيين بيملكوا أدب بيواجهوا فيه العالم وبنثبِت إنه بعد أكثر مِن ٦٠ سنة مِن الإحتِلال في لِسَه أدب مُقاومَة لهاي اللَحظة واللي بيتمَثَل بشُعراء مُعاصرين ومُفَكرين فلسطينيين بيعرضوا قضايانا على منابِر الجَامعات والندوات الثقافية بكل العالم. زي المُفَكِر عزمي بشارة مثلاً.

اعتدل دكتور أمجد في جلسته ليقرأ في إهتمام ما كتبت من نقاط في الملف الذي وضعته بين يديه:

- إبراهيم طوقان!..بس ده شاعر فلسطيني كتب كل كتاباته قبل ال ٤٨ إنتِ ليه تطرقتي ليه هنا؟

- آه فِعلاً دكتور أمجد..إبراهيم طوقان توفي في ١٩٤١ بس حبيت إني أبدا دراستي بالأدب المقاوم قَبل النكبة كمقدمة لِلدِراسة ومِن بَعْدها أكتب عن أدب المقاومة ما بعد النكبة عام ٤٨.

واستطردت:

- بالنسبة لَلمُقَدِمِه اللي بدي أكتِبْها بدي أعرض فيها إن بدايه الأدب الفلسطيني المقاوم بَلَش حتى قبل الَ ٤٨ لأن فلسطين مرت بأحداث تاريخية مُهمة أثَرَت على الفلسطينيين من أول الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ووعد بلفور سنة ١٩١٧ ومن بعدها الإنتداب البريطاني على أرض فلسطين من سنة ١٩٢٢ لحد ١٩٤٨ وكمان بحب أنَوه برِسَالتِي لَكتاب أنا قَريتُه لَلمُفَكِر الفلسطيني إدوار سعيد بعنوان: "الثقافة والامبريالية" واللي بِحكي فيه ...

هنا قاطعها دكتور أمجد في قوله:

- المفكر الكبير إدوار سعيد بيتكلم في كتابه إنه الثقافة الاستعمارية بتؤدي إلى تطور "ثقافة مضادة" عند الشعوب المقهورة والمحتنة، أو المستعمرة ومن هنا بتتطور إلى ثقافة وطنية.

أضاف أمجد :

- وأعتقد لو ركزتي في أدب المقاومة بعد ال ٤٨ بيكون أفضل بالنسبة ليكي..كونك من فلسطيني ال٤٨ هايساعدك كويس في الموضوع ده.

أكمنت أسيل متجاهلة ذكره لهويتها:

- أنا بدي أتطَرق بالـــمُقدِمِة لأدب المقاومة قبل ال ٤٨ لأني بدي أقول إنه أدَب الـــمُقاومة عِند الشَعب الفلسطيني مَر بِكتير مِن المراحل.

بَسْ الدِراسِه رَح تكُون عَن أدَب الـــمُقاومة ما بَعد ال ٤٨ ومِن داخل إسرائيل نَفْسهَا لأنه أدَب الـــمُقاومة بداخل الأراضي المحُتلة له طَعْم تَاني وروح تانية. مع كل تقديري وحبي لِكُل مُبْدِع فلسطيني بالخارج إلا أنه أدبْ المقاوَمِة بالداخل بيختْلِف عَن اللي إنكَتَبْ بالخارج..عَلَشان الأدباء بالداخل محاصرين وبيمروا بأقسى ظروف الأسر والقَمِع. على الرَغِم مِن هيك بقيوا صَامدين، ومُمكِن نقول إنهم بيشكلوا أهم النماذِج التاريخية لثقافِة المقاومة واللي بتِتْجَلى بأسمى معاني الصمود والتحدي.

– يعني عايزه تقولي إن الأدب في الحقبة اللى هاتتكلمي فيها كان نوع من أنواع الأسلحة في وجه المحتل.

اعتدلت في جلستها وقالت:

– وهو سلاح فعلا..شوف دكتور أمجد أدبْ المقاومة ما بعد ال ٤٨ في فلسطين واللي بيتْمَثَل بمحمود درويش، إميل حبيبي، توفيق زياد، حنا أبو حنا، حبيب قهوجي وسالم جبران وغيرهم كثير، هذا نوع من الأدب اللي أزعج الإسرائيليين. لدرجة إنه البعض أطلق عليه شعر الخناجر وهذا هو أدب المقاومة ما بعد ال ٤٨.

نظر إليها دكتور أمجد باعجاب قائلاً:

– جميل.

ثم أضاف متسائلاً:

- إنتِ حتتطرقي كمان بالكتابة عن الأدباء والشعراء نفسهم؟

قالت أسيل:

- آه طبعًا، مُؤَسسي أدب المقاومة ما بعد ال ٤٨ بْتِعتْبرهُم إسرائيل نوع من الخَطَر الأمني لأنهم كانوا من الناشطين السياسيين المؤثرين على الفكر العربي الفلسطيني داخل إسرائيل، فمثلاً محمود درويش اعتُقِل من السلطات الإسرائيلية بتُهَم تِتْعَلَّق بنَشَاطاته وتَصْريحاته السياسية، ومش هو بَسْ، حتى توفيق زياد رغم إنه كان رئيس بلدية الناصرة وكمان عضو في الكنيست الإسرائيلي إلا إنه ما سِلِمِشْ من المضايقات لأنه واحد من الرموز الأساسية لصمود الشعب الفلسطيني وتصديه لسياسة الحكومة الإسرائيلية وممارساتها.

قال دكتور أمجد:

يعني عاوزه توصلي فكرة إن الأُدباء كانوا كمان محاربين وفعّالين على المستوى السياسي؟

أجابت أسيل:

- آه، مُحاربين بس من نوع مختلف، كانوا بيحَارِبُوا الـمُخططات الإسرائيلية في مَحو الهوية العربية الفلسطينية، فبَعد سنة ١٩٤٨ كانت خِطة الـمُحتَل هي عَبْرَنَة العرب بمعنى تحويل الُّلغة العبرية لِلُغَة الرئيسية والرسمية للفلسطينيين زي ما حاولت فرنسا إنها تفرنِس الجزائريين.

قال دكتور أمجد:

- هي دي طبيعة الإحتلال يا أسيل، طمس هوية الدولة المحتلة.

ردت أسيل:

- بالضبط بس الإسرائيليين فِشلوا بمُخَطَطْهُم لعدد من الأسباب السياسية والسبب الأهم هو الوعي العربي الفلسطيني وهذا كان دور أدب الـمُقاومة وشعراء المقاومة الفلسطينيين ما بعد قيام الكيان الصهيوني واللي صَعَّب الموضوع كتير على الإسرائيلين وتأثيرُه كان مصيري بالنسبة لفلسطيني ال ٤٨.

أنهت أسيل كلامها ونظرت لدكتور أمجد منتظرة رأيه في ما قالت إلا أنه ظل صامتًا للحظات واضعًا الملف الذي كان يحمله على مكتبه وأزاح نظارته الطبية عن عينيه ونظر إليها بإعجاب:

- إنتِ جاهزة فعلاً .. متأكدة إنك ماخدتيش الدكتوراة دي قبل كده؟

ردت أسيل مبتسمة:

- لأ .. بس ماجستير وغير هيك يا دكتور حسب ما سمِعِت عن حَضِرتَك المفروض إذا الدكتور أمجد هو اللي بيشرِفْلِي على الرسالة لازم أكون جاهزة.

أنهت أسيل جملتها حين سمعا طرقات على باب المكتب لتستأذن السكرتيرة بدخول إحدى طالبات الجامعة:

- دكتور أمجد الآنسة شيرين عمر بره عايزه حضرتك.

- آه طبعًا خليها تتفضل.

شيرين عمر، طالبة ماجستير في جامعة القاهرة والدكتور أمجد من يشرف لها أيضًا على الرسالة، ما يميز شيرين أنها بنت عفوية جدًا وذكاؤها الحاد يجعلها الطالبة المفضلة لدى الدكتور أمجد، وهي فتاة مرحة تحب الضحك وتأخذ الحياة ببساطة متناهية.

رسالتها تتناول الأدب الساخر .. لأنها تعتقد أن الحياة يجب أن تؤخذ بسخرية لتعيشها كيفما هي.

شيرين بنت هادئة الملامح، عيناها سوداء ذو بشرة قمحية، ملامح مصرية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. متوسطة الطول تملك ضحكة ساحرة تكشف عن أسنان ناصعة البياض.

محجبة وملابسها بسيطة وإن نمت عن ذوق راقٍ وحال ميسور.

دخلت شيرين إلى مكتب الدكتور أمجد، اقتربت حيث يجلس مع أسيل، عند اقترابها ابتسم دكتور أمجد ووقف ليسلم عليها:

- إزيك يا شيرين عاملة إيه؟

سلمت عليه شيرين ضاحكة ضحكتها الشهيرة التي يسميها أصدقاؤها بالإنجليزية:

"smiley face"

- الحمد لله كويسه جدًا، إزيك انتَ يا دكتور؟

نظرت باتجاه أسيل مبتسمة بادلتها أسيل ابتسامة بابتسامة. تنبه دكتور أمجد أنهما لا تعرفان بعضهما فبادر بالتعارف:

- يا شيرين دي أسيل تلميذتي الجديدة وأنا المشرف على رسالتها للدكتوراة، دي شيرين يا أسيل تلميذتي وأنا بشرفلها على رسالة الماجستير بتاعتها.

قامت أسيل بدورها وسلمت على شيرين:

- مرَحبا، تْشَرَفِتْ بَمعرفْتِك.

انتبهت شيرين للكنة فقالت:

- الله..! إنتي مش مصرية.

ابتسمت أسيل وردت بصوت منخفض:

- لا والله، أنا فلسطينية.

بادلتها شيرين الابتسامة قائلة بصوت أكتر جدية ولكن بود:

- منين بفلسطين؟ من غزة ولا من رام الله؟

ترددت أسيل بعض الشيئ في الرد ولكنها نظرت لشيرين مباشرة إلى عينيها قائلة:

- والله أنا لا من غزة ولا من رام الله، أنا من حيفا، أنا من اللي بتسموهم عرب ال ٤٨.

قالت شيرين وقد اتسعت ابتسامتها:

- من عرب ال ٤٨ أو من عرب ال ٣٥ حتى المهم إنك نورتي مصر.

ضحك الدكتور أمجد وقال لأسيل:

- شيرين بنت مجتهدة جدًا وعاوزك تتعرفي عليها هي هاتوضحلك أي حاجة إنتِ عاوزة تعرفيها.

سألت أسيل الدكتور أمجد:

- أعتقد إحنا خلصنا حوارنا، مش هيك دكتور أمجد؟

يحرك دكتور أمجد رأسه بالإيجاب:

- آه طبعًا، بَسْ ما تنسيش النقاط اللي إنتِ لازم تكتبي عنها بالرسالة زي ما اتفقنا وحددي موعد تاني مع السكرتيرة علشان أشوف إنتِ ماشية إزاي.

- حاضر، بعد إذنك.

ثم نظر الدكتور أمجد إلى شيرين وقال:

- عارف يا شيرين إنك هاتسأليني على مواعيد المحاضرات، هاتتحدد لسه النهاردة وهاتلاقي الجدول متعلق بره، المهم إني عاوزك تتكلمي مع أسيل شوية علشان أكيد عندها تساؤلات كتير عن طبيعة الحياة الدراسية هنا.

همت أسيل بقول شيء ما إلا أن شيرين شدتها من يدها سريعًا باتجاه باب المكتب. وهي تقول:

- بصي بقى أنا لازم أعرفك على الشلة بتاعتي ..

ابتسمت أسيل قائلة:

- آه يا ريت، ليش لأ؟

***

-الفصل الرابع -

تمتاز جامعه القاهرة بالتنوع الشديد في التيارات الفكرية والظروف الاقتصادية للطلبة حتى داخل مجموعة واحدة من الأصدقاء. وأصدقاء شيرين أو الشلة كما يسمون بعضهم نموذج فريد لذلك على الرغم من التنوع إلا أنهم يندمجون مع بعضهم البعض بشكل جيد.

اقتربت أسيل مع شيرين من الشلة الجالسة في الكافيتريا وهم يضحكون بصوت عالٍ، وقد خف صخبهم ما إن رأوا شيرين بصحبة بنت جديدة عليهم.

نظر خالد تجاه أسيل:

- إيه ده؟ مين المزه دي؟

لم تنجح أميرة في إخفاء مشاعر الغيرة:

- مزة إيه؟ إنتَ ذوقك بقى بلدي أوي يا خالد.

ثم نظرت ثانية إلى شيرين التي وصلت إليهم وبادرتهم بالقول:

- إزيكم يا عيال؟

ردت أميرة بسخرية:

- إزيك إنتي يا عيلة؟

لم ترد شيرين على أميرة بل أكملت كلامها لتعرفهم على أسيل:

- أنا عايزة أعرفكم.

واشارت بيدها لأسيل قائلة:

- أسيل بتعمل دكتوراة هنا، ودكتور أمجد هو اللي بيشرفلها على الرسالة.

ثم وجهت كلامها بعد ذلك لأسيل:

- بصي أسيل، ده محمد وده خالد ودي مِنّه وأخيراً بقى وليس آخِراً دي أميرة بس إحنا بنحب نقولها يا ميرو.

رحب بها كل واحد من أعضاء الشلة بطريقته فأحنى خالد رأسه في حركة أنيقة.

أحنت أسيل رأسها برقة ردًا على ترحيبه.

في حين لم يكلف محمد نفسه مشقة الوقوف ولكنه قال بتهذيب:

- أهلاً بيكي يا أسيل.

أميرة لم تقل شيئًا بل اكتفت بابتسامة وإيماءة من رأسها إلى الأمام بطريقة تمثيلية متعالية.

أما مِنّه فقالت بصوتٍ منخفض في خجل غير مبرر:

- أهلاً وسهلاً.

نظرت إليهم أسيل وهي ما تزال واقفة بجانب شيرين:

- مرحبا، كِيفْكُمْ؟

وهنا تنبهت الشلة للكنة أسيل على أنها غير مصرية، اعتدل كل واحد بطريقته على الكرسي ليقول خالد:

- إنتِ مش مصرية؟

نظرت إليه أسيل موجهه كلامها له:

- لا والله مِشْ مصريِّة.

قال خالد مستفسرًا:

- أُمال منين؟

واستطرد محاولاً التخمين حسب اللهجة:

- إنتِ أكيد لبنانية أو سورية..صح؟

ردت أسيل:

- لأ، أنا مِشْ سورية ولا لبنانية أنا فَلَسْطينيّة.

نظرت إليها مِنّه مستفسرة:

- بجد؟ منين في فلسطين؟

وجهت أسيل كلامها لِمَنّه:

- أنا من حيفا.

سألتها أميرة:

- حيفا؟ مش حيفا دي في إسرائيل؟

قالت أسيل مبتسمة وهي توجه نظرها لأميرة:

- حيفا فَلَسْطِينيّة يا أميرة ورَح تْضَل فَلَسْطِينيّة زَيّ ما أنا مهما مرت السْنين رَح أبْقَى فَلَسْطِينيّة.

أمسكت شيرين أسيل من يدها قائلة:

- تعالي يا أسيل أُقعدي خلينا نتكلم شوية واعرفك على أصحابي أكتر.

سحبت شيرين كرسيًا كان بعيدًا بعض الشئ عن طاولة الشلة، لتجلس عليه بجانب كرسي أسيل وبدأت بالكلام:

- على فكرة يا أسيل محمد من الناس المهمين عندنا هنا بالجامعة أصل هو اللي بينظم كل الفعاليات الثقافية والندوات، والسنة اللي فاتت كان عامل أمسية جميلة جدًا عن الشاعر الفلسطيني محمود درويش و...

وهنا قاطتها أميرة موجهة كلامها لأسيل:

- هو باسبورك إيه يا أسيل؟

أدركت أسيل أن أميرة تتعمد هذا السؤال ولكنها ردت بهدوء:

- إسرائيلي.

نظرت أميرة إلى شيرين قائلة في حدة:

- إنتِ جايبالنا إسرائيلية تقعد معانا يا شيرين؟

ثم وجهت كلامها إلى أسيل قائلة:

- أُعذرينا يا آنسة إحنا ضد التطبيع مع إسرائيل فا مش هانقدر نقعد معاكي.

ظهر الإحراج على شيرين وهمت بقول شيء ولكن أسيل سبقتها قائلة:

- أيّ إسرائيليين اللي إنتِ بْتُرْفُضي التَطْبيع مَعهُم؟!

أنا ...!؟

نظرت إليها أميرة:

- أيوه إنتِ، أنا مش شايفة إسرائيلية غيرك معانا.

كان محمد يفهم جيدًا أن جواز سفر أسيل لا يجعل منها إسرائيلية إلا أنه كان رافضًا لقبولهم العيش بداخل إسرائيل بل وحمل جنسيتها أيضًا، إلا أنه قال محاولاً توضيح الأمر لأسيل:

- معلش يا آنسة أسيل، أصل فكرة إن حد بيحمل الباسبور الإسرائيلي بالنسبة للمصريين موضوع حساس شوية، وزي ما إنتِ عارفة الأغلبية العظمى من الشعب المصري كارهين لكل ما يمت لإسرائيل بصلة.

قالت أميرة وكأنها تكمل جملة محمد:

- وده معناه يا آنسة إن جلوسنا معاكي نوع من التطبيع اللى إحنا كلنا بنرفضه.

لمعت في عيني أسيل دمعة لكنها أبت أن تنهمر وبقيت صامدة كأنها على وشك خوض معركة، ونظرت لأميرة قائلة:

- بْتِعْرَفِي؟ مِن سنة ٤٨ لهذه اللحظة العالم العربي بِيْتْفَنَّنْ في جَرِحْنا، إنتِي بِتْقولي ما بِدْكِيشْ تْطَبعي مَع أي إسرائيلي وهذا حَقِكْ وأنا بَحْتِرِمِك على مَوقِفِك، بَسْ أنا مِشْ إسرائيلية، أنا صَح بَحْمِل الجنسية الإسرائيلية والباسبور الإسرائيلي بَسْ أنا فلسطينية يا آنسة أميرة أنا جُزُء ما بتجزئش من الشعب الفَلَسْطيني جُزُء ما بتجزِئش من العالم العربي.

نظرت إليها أميرة وقالت في شيء من السخرية:

- بجد؟ أُمّال إنتو عايشين بإسرائيل ليه!؟ وكمان إسرائيل واخده بالها منكم أوي كده ليه؟

نظرت إليها أسيل مستغربة:

- إنْتِي مِن وين جِبْتِي هذا الحَكي؟

قالت أميرة مستفزة:

- تقدري تنكري إنكوا مبسوطين أوي هناك؟

أجابت بصوت حازم وجاد كان من الواضح أنها تجاهد كي لا تنفجر في وجهها:

- بالنسبة لَلجُزْء الأول لَسؤالِك إحْنا عايشين في وَطَنَّا وأرضْنَا وهذا شَرَف إلنَا ولَجدودنا اللي ظلوا مِتْمَسكين بالأرض بالرَّغِم مِن التَرهيب والمجازِر اللي إرتَكَبَتْها العِصَابات الصهيونية في ال ٤٨..اللي أنا مِستَغرِبة إنك ما سْمِعْتيش عَنْها، صُمودنا في أرضْنَا لا هو عيب ولا حَرام بَرْجَع وبَقُول إنُه شَرَف.

صمتت أسيل لِلَحظة كأنها تستجمع قواها وأخذت نفسًا عميقًا ونظرت لأميرة مستطردة:

- بتِعْرَفي إن العربي الفَلَسْطِيني في داخل الكيان الصهيوني وعلى مَدار حياتُه اليومية وفي كل مستويات مراحل حياتُه بِلاقي التمييز العنصري بيرافقه وين ما راح وكاسر ظهره.

نظرت إليها مِنّه مستغربة:

- عنصرية إزاي؟ مش إنتِ مواطنة إسرائيلية زيهم؟

أكملت أسيل:

- يا مِنّه إسرائيل مش "واخده بالها" مِنّا كيف ما بتقول الآنسة أميرة، العكس هو الصحيح..إحنا فَلَسْطِينية ال ٤٨ بنْجاهِد حتى نلاقي شُغُل وفي كتير أماكن بيُرفُضوا يشَغلوا عَرب حتى في أبسط

الأماكن..مَثَلا في محلات بيع الأحذية بحُط بعض أصحابها شرط عَلَشَان تِشْتِغل فِيه لازِم تْكُون خادم بالجيش الإسرائيلي.

والأدهى إن في السَنة الأخيرة بَدَأتْ بعض المنشآت التِجَارية في طلب شهادة "كاشير" اللي بْتِعني "حلال" حَسَبْ الديانة اليهودية وهاي الشهادة تعطي للمطاعم اللي بتقدم الأكل الحلال بحسب عقيدة اليهود، ولكن العُنصُرِيّة وِصلت إنهم يعطو بعض المطاعم شهادة "كاشير" بس لأنهم ما بِيَوظفوش عَرَب! يَعني يا أميرة "مِشْ واحدة بالها مننا كتير" زي ما إنتي مِعْتِقْدِة.

قالت شيرين مستفسرة:

– هو انتوا عندكم مدارس عربية؟ ولا كنتي بتدرسي في مدارس يهودية؟

– أنا شخصيًا كُنتْ بَدرُس في مَدرَسِة عَرَبيّة مَكَنْش عِنْدي زُمَلاء يهود في المدَرِسَة. المدارس في إسرائيل فيها فَصِل تام بين العرب واليهود، ومِن الصَعب على أي عربي إنه يُدْرُس بمدارس يهودية لأن العُنْصُرِية بين الطُلاب اليهود بتكبر مع الوقت.

سألت شيرين:

– طب والجامعة؟

نظرت أسيل لشيرين سائلة:

- من أي ناحيّة؟

أجابت شيرين:

- من ناحيّة الدراسة والطلاب والمعاملة؟ أقصد يعني ممكن تحسي بالعنصرية دي كمان في الجامعة؟

ردت أسيل:

- مرَحِلِة الجامعَة مابتْمُرش بالساهِل على أيّ عربي فَلَسْطيني، العنصرية وصلت إنه في مَوَاضيع عَلَشان نُدْرُسها لازم نِستَنى لعمر ال ٢١ عَلَشان يِقْبَلونا، إللي بِكُل العالم ممكن تُدْرُسيها بجيل ال ١٨.

سأل خالد باستغراب:

- ليه ٢١ يعني مش ينفع أول ما تخلصوا المرَحلة الثانوية تبدأوا دراسة في الجامعة؟

أجابت أسيل:

- طبعًا بْيِنْفَع بَسْ في مواضيع مُعَيّنة اللي بيحَاولوا يخَفِفوا مِن عَدَدْ العَرَب اللي بِدْهُم يُدُرسوها زَيّ الطب مثلاً وبالنسبة لسؤالك لِيشْ ٢١؟ عَلَشان الـــمُجَنَد الإسرائيلي بِخَلِص تَجْنيدُه بالجيش بهذا العمر.

سألت شيرين:

– طب خلال دراستكم بالجامعات التعامل مع الطالب العربي بيكون عامل ازاي؟

وجهت أسيل كلامها لشيرين قائلة:

– أولاً على الـــمُستوى الشَخْصي بيتْعَلَق مَع مين إنتِ بْتِتْعامِلي، وبيختْلِف مِن شَخْص لَلتاني يَعني حتى على مُستَوى الأساتذِة في الجامعة في مِنْهُم اللي بيَعاملوكي على إنِّك طالبة جَامعيّة عاديِّة وفي مِنْهُم اللي العُنْصُرِيّة بتِسْري بدَمهُم. والأسوأ لَو كُنْتِ بْتُدْرُسي في جامعة بعيدِة عَن مَدينتِك أو قَريتِك ولازم تِسْتأجري بيت قَريب مِن الجامعة..في هاي الحالِة رَح تْواجهي صُعُوبة ورح تظهر العُنصرية بأبْشَع صُوَرها لما يقُولولِك بصراحة وبدون خَجَل ما بنأجرش بيت لعربي، وفي الفَتْرة الأخيرة في فتَاوى عُنصُرِيّة بْتُصْدُر مِن حَاخامات اللي هُم رِجال دين يهود بتحرم بيع أو تأجير أراضي وبيوت لعرب.

شعرت أسيل بالصمت يلف المكان، صمت صوته أعلى من الصراخ؛ صوت يعلو ليدافع عن حقها بالوجود كفلسطينية لا يمكن اختزالها ولا يمكن تجريدها من فلسطينيتها. عصف الصمت في داخلها حتى سمعت صوت شيرين يقول:

– الظاهر إن اللي مِشْ فاهم بحقيقة وضعكم من السهل جدًا إنه يظلمكم.

موجهة نظرات عتاب لأميرة.

ابتسمت أسيل لشيرين وضغطت على يدها شاكرة في حين نظرت إلى أميرة قائلة بنبرة مليئة بالعتب:

- بْتِعْرَفي يا أميرة؟ إحنا..أو تَعَالي أَقُولِّك أنا..أنا أسيل البنتْ الفَلَسْطِينّية اللي إنْوَلدَتْ وإتْرَبَتْ كبنْتْ فَلَسْطِينّية بتِحْمِل الجِنْسَيّة الإسرائيلية. اللي الفِكرة بحَد ذاتها مِشْ مَقبولِة لأي عقل سلِيم ومناقضة لكل قوانين الطَبيعة..إن الواحد يحمِل هويّه الـــمُحتَل ولازم يتْعَامل مَعُه بشَكِل يَومي وطبيعي وهُو بيعاملني بِتَعالي..هذا الوَضِع المشوه عَامل حَالِة مِن الفوضى الداخلية وشعور بالغربة حتى عن نفسي..كُنّتْ بَتْمَنى هذا الشُّعور يختِلِفْ هُون وأنا في القاهرة..كُنّتْ بَتْمَنى إنْكُم تْسَاعدُوني في إنّي الآقي السلام الداخلي بينْكُم..إنّي الآقي جزء من الوطن..لأنْكُم جُزُء مِن لُغتي اللي أحيانًا كتير بَشْتَاق إني أسْمَعْها في حياتي اليومِيّة جُزُء مِن تَفْكِيري وثَقَافتي وعُرُوبتي كُنّت بَحب إنِّك تِسْمَعِيني الأول يا آنسة أميرة قَبل ما تُصْدُري في حَقّي الأحكام.

قال خالد:

- متزعليش يا أسيل أميرة ماتقصدش.

نظرت أميرة لخالد معاتبة لأنه تكلم بلسانها وهمت بقول شئ ما إلا أن شيرين لم تعطها الفرصة..أمسكت أسيل من يدها وقامت قائلة:

- معنش يا جماعة مضطرين نمشي دلوقتي علشان عندنا شوية مشاوير.

وأخذت أسيل من يدها وابتعدتا باتجاه بوابة الجامعة.

***

توجهت أسيل برفقة شيرين لخارج حرم الجامعة، وعند وصولهما موقف السيارات عرضت شيرين توصيل أسيل إلى بيتها إلا أن أسيل حاولت التهرب لأنها أرادت أن تكون بمفردها لانزعاجها مما حصل في الكافيتريا ولكن شيرين نظرت إليها معاتبة:

- إيه يا أسيل إنتي مش عاوزانا نبقى أصحاب ولا إيه؟

ردت أسيل بهدوء لم يُخفِ انزعاجها:

- بِالعَكْس بِتْشَرِفني صداقتِك بَسْ ما بِديش أَتَقِل عليكي وأنا مِشواري مِشْ بعيد، هُون جَنب الجامعة.

حاولت شيرين إضفاء بعض المرح على كلامها:

- أهي فرصة أوصلك وأشوف إنتي ساكنه فين وتعزميني على حاجة أشربها عندك.

واستطردت مازحة:

- إذا ماعندكيش ممكن أجيب أي حاجة أشربها من عند عم بدوي البقال بس برضه حشربها عندك.

ردت أسيل بنوع من الفرح الطفولي:

- يا ريت بالعَكْس وُجُودِك بْيسعدني رَح أعملِك أجْدَع فِنْجَان قهوة.

استقلتا السيارة وفي الطريق حافظت أسيل على هدوئها، ولم تتكلم إلى أن كسرت شيرين الصمت وهي تتذمر من الزحام:

- إيه ده الواحد مايعرفش يسوق في البلد دي.

ابتسمت أسيل ونظرت إلى شيرين:

- بْتِعرَفي إني حَبيت مَصِر كتير.

نظرت شيرين لأسيل مستغربة انبهارها الشديد بالقاهرة:

- هو إيه اللي عاجبك في الزحمة دي؟!

سرَحت أسيل ونظرت من الشباك قائلة:

- مِشْ عارفِة بَسْ في إشي غَريب بِمَصِر بِخَلّيني أحِس إني مِشْ غريبة، حاسِه إني عايشِه هون مِن زَمان.

وصلتا إلى العمارة التي تسكنها أسيل، وتوجهتا مباشرة إلى باب الشقة وعند دخولهما توجهت أسيل مباشرة إلى المطبخ مازحة باللهجة المصرية:

- تحبي تشربي إيه؟ ساقع ولا سخن؟ أنا تحت أمر حضرتك يا فندم.

ضحكت شيرين على لهجة أسيل المصرية وقالت:

- إنتِ لحقتِ تتعلمي المصري في كام يوم؟

أكملت أسيل في تحركها بالمطبخ:

- البركة في الأفلام..إنتي ما قولتليش عايزة تشربي إيه؟

ضحكت شيرين:

- كوباية شاي في الخمسينة.

ضحكت أسيل وهي تقول:

- شُوفي الإيشي الوحيد اللي مَوجود عِنْدي هُو القهوة العربية مع الِهيل أنا سِألِتْ بِسْ مِن باب الزوق مِشْ أكتَر..رَح أعْمِلّك أحسَن فِنْجَان قَهوة.

صمتت للحظة ثم أضافت مازحة:

- وفي الخمسينة برضه.

أنهت أسيل تحضير القهوة وانتقلتا إلى الصالون وبدأت شيرين بالكلام:

- يلا بقى، كلميني عن نفسك شوية.

نظرت إليها أسيل سائلة:

- لِيشْ يا شيرين؟

نظرت شيرين باستغراب من السؤال:

- ليه إيه؟ إنتي مضايقك إني بحاول أتعرف عليكي؟

ثم أضافت قائلة:

- عمومًا أنا أسفة إذا حسيتي إني بفرض نفسي عليكي وبعدين...

قاطعتها أسيل سريعًا:

- لا لا شيرين إنتي فْهِمتيني غَلَط..أنا مِا كَنش قَصْدِي اللي إنتي فهِمْتِيه..إنتي شُفتي وسِمِعتي إيشْ صار مِن زُمَلائِكْ وأصْحَابك بالجامعَة..أنا بَسْ مِسْتَغرِبة مَوقِفهُم مَعي ومَوقِفِكْ اللي بْيِخْتِلِفْ تَمَامًا.

ثم أمسكت بيدها بود وهي تقول:

- شيرين، بيشَرفني إنِّك تكوني صَاحِبْتِي.

اعتدلت شيرين على الكرسي وبدأت تتكلم:

- شوفي يا أسيل..بابا كان مجند في المخابرات العسكرية في أيام حرب أكتوبر وكان بيحكيلي دايمًا على فلسطيني زيك بيعيش داخل إسرائيل وحكالي أد إيه هو كان بيتعاون معاهم وبيبعتلهم معلومات كانت لها أهمية كبيرة جدًا علشان كده أنا عمري ما توقعت إن ممكن حد يقول عليكم خونه وفعلاً يا بنتي أنا مش بيهمني باسبورك ولا إنتي جاية منين أنا اللي يهمني إنتي كإنسانة مين؟ بتعبري وبتعرفي عن نفسك بإيه؟

واضافت ضاحكة:

- ألا بقى لو كنتي إسرائيلية فعلاً...

واستطردت:

- يا أسيل أنا شفتك النهاردة لأول مرة بس أنا حاسه إني أعرفك من زمان علشان كده حابه أتقرب ليكي أكتر بس على فكرة لو كنتي إسرائيلية بجد ماكنتش هاحبك.

ابتسمت أسيل:

- طَيِّبْ يا صَاحِبْتِي الجديدِة إنتِي إيشْ بدِكْ تِعرَفي عَني؟ غير إني فلسطينية.

ابتسمت شيرين بثقة:

- اللي إنتي عايزة تقوليه.

خيم السكون للحظة على فضاء البيت وقبل أن تبدأ أسيل بالكلام سمعت جرس هاتفها المحمول الموضوع أمامها فنظرت إلى شاشته مبتسمة وردت على المتصل قائلة:

- أهلاً أهلاً حضرة الضابط.

- الحمد لله أنا تمام.

- والله أنا لِسَّه بتْأقلَم واتعَرَفِتْ على بنت كتير مْنيحَة اليوم وهي مَعَاي هلأ في البيت.

- شكراً على اِتِصالَك..أنا حاسِة إني تَعَبْتَك مَعَي..

- أكيد لَو إحْتَجتْ أي شي رَح أتْصِل فِيك، آه .. كمان مرة شكرًا كتير.. مع السَلامة.

عند انتهاء أسيل من مكالمتها وضعت هاتفها مكانه مبتسمة ونظرت إليها شيرين قائلة:

- إيه ده بقى؟ أنا عايزه تفسير، مين حضرة الضابط ده، وإنتِ لحقتِ تتعرفي عليه إمتى ده، وحكايته إيه؟

ضحكت أسيل:

- لا حْكَايِه ولا شي، هذا الضابط أدهم من أوِل ما وصِلِتْ على مَصِر وهو بيساعدني، وبَسْ.

فتحت شيرين عينيها بطريقة تمثيلية:

- إيه بس دي؟ أنا عايزه تفاصيل، يعني إزاي وفين والساعة كام؟

ابتسمت أسيل بخجل:

- شُوفي يا ستي أول ما وصِلِتْ مَطَار القاهرة صارت مَعي مُشْكِلِة ..

حكت تفاصيل تعارفها بالضابط أدهم وبعد أن أنهت كلامها نظرت نحوها باهتمام:

- إيشْ رأيك؟

نظرت إليها شيرين:

- هممم شكلك معجبة بيه أوي.

إحمر وجه أسيل وهي ترد سريعًا:

- لا لا هو أنا لحِقِت أعْرَفُه لما أُعَجبْ فيه؟ بَسْ هو إنسان كتير شَهِم بِصراحة، أو زَي ما بِتْقُولوا بالمصري جَدَع أوي.

كانت تنظر إلى الأرض في خجل وهي تقول ذلك لتعاود النظر نحو شيرين قائلة:

- وراكِي إيشي اليوم؟

هزت شيرين رأسها بالنفي وهي تأخذ رشفة من فنجانها..ثم وضعته جانبًا وقالت:

- أنا النهاردة تحت أمرك، في حاجة ولا إيه؟

ردت أسيل:

- لأ..بَسْ بِدي أعمل شوَيِّة مُشْتَرِيات لَلْبيت إيشْ رأيِّك تِيجي مَعي؟

قامت شيرين من مكانها:

- موافقة طبعًا..الشوبينج ده هوايتي المفضلة.

-الفصل الخامس-

جلس أدهم يلتهم غداءه أمام التليفزيون كما يحب دائمًا حتى سمع صوت والدته قائلة:

- هات يا أدهم قناة الجزيرة لما نشوف إيه اللي حصل في القدس أحسن بيقولوا إن الكلاب بيحفروا تاني تحت الأقصى.

- هايكون إيه يعني يا أُمي؟ في الآخر أدينا بنتفرج ومش عارفين نعمل حاجة.

- هانعمل يابني إن شاء الله في يوم من الأيام..ولاد الكلب دول ربنا مش هايسيبهم كده للأبد.

أغمضت عينيها وهي تقول:

- نفسي يابني أشوف تار أبوك بيتاخد منهم قبل ما أموت.

ظهر على أدهم أنه قد سرَح قليلاً فقالت له والدته:

- إيه يا أدهم سرَحت فين؟

اعتدل أدهم وقد تذكر فجأة إنه يتكلم معها وقال:

- معلشي يا أُمي أصلي إفتكرت بنت كده في المطار.

نظرت إليه أمه بدهشة وهي تقول:

- بنت؟ أول مرة أعرف إنك بتاع بنات يا واد انت.

ضحك أدهم وهو يقول:

- لا يا أُمي ماتفهمنيش غلط دي بنت كانت شنطتها ضاعت في المطار وجبتهالها وبساعدها في كام حاجة كده لأنها أول مرة تيجي مصر..بس انتي تعرفي إن إبنك برضه ليه في الحاجات دي؟

نظر أدهم إلى والدته وقال بحذر:

- تعرفي يا أُمي صحيح إني شفت فلسطينين معاهم جواز سفر إسرائيلي؟

قالت والدته بحدة:

- إنت بتقول إيه يا أدهم؟ هو في فلسطيني هايقبل إنه يبقى إسرائيلي؟ هو ده اللي كان ناقص كمان!

- لا يا أُمي أنا بتكلم بجد إنتي مش سمعتي عن عرب ٤٨ قبل كده؟

- أيوه بسمع الكلمة دي في التليفزيون كتير بس ماكنتش أعرف إنهم عايشين في إسرائيل وكمان معاهم جواز سفر إسرائيلي؟

قال أدهم بحذر:

- أيوه يا أُمي بس ده مش يخليهم وحشين يعني؟

إحمر وجه الأم وهي تقول:

-لأ طبعًا، دول يابني خونة، عايشين وسطهم كده عادي ومصاحبينهم وبياكلوا معاهم كمان؟ ترضاها إنتَ على نفسك يا أدهم؟

تردد أدهم قليلاً ثم قال:

- ماهو يا أُمي الموضوع مش بالشكل ده يعني.. أصل...

قاطعته أمه في غضب:

- إنتَ بتقاوح في إيه يا أدهم؟ إنتَ نسيت عملوا إيه الكلاب دول في أبوك الله يرَحمه؟

توقف أدهم عن الأكل عندما ذكرته أمه بوالده الذي أستشهد في حرب أكتوبر فقال:

- أيوه فاكر طبعًا يا أُمي.

ضمها إلى صدره بعدما رأى الدموع تترقرق في عينيها وهو يردد:

- وربنا مش هايسيب حقنا يا أُمي، أبويا شهيد وبطل وعمرنا ما هاننساه.

ضمها أكثر إلى صدره وهي تبكي، وقد تذكرت زوجها وذهب هو بتفكيره إلى تلك الفتاة، هل يمكن أن يكون هذا الملاك، خائن؟

***

ازدحم ميدان طلعت حرب بالسيارات كعادته في مثل هذا الوقت من اليوم، ما جعل شيرين تتبرم وهي تبحث عن مكان لتركن سيارتها فيه وهي تقول:

– معلشي يا أسيل أول يوم تنزلي معايا فيه تبقى الدنيا زحمة كده.

ردت أسيل وهي تنظر من النافذة بسعادة لا تتناسب مع غضب شيرين الظاهر من الزحام الشديد:

– زَحْمِة مَصِر كتير حِلوِة.

نظرت إليها شيرين وقالت بتهكم:

– خديها معاكي يا حبيبتي تبقى خدمتينا.

ضحكت أسيل وقالت:

– أنا بَحْكِي جَدْ، الزَحمِة هُون إلها طَعِم تَاني، أنا زُرت مُدُن أوروبية وكانَتْ زَحمِة بَرضُه بَسْ زحمِتْهَا كانَت باردِة مِن غِير روح..بَسْ حَاولِي تِتْفَرَجي على الزَحَام اللي حَوَالينا، رَح تْلاقي كُل مَكَان بْتِتْطَلَعي إتجَاهُه فِيه قِصة.

أشارت إلى أحد الباعة المفترشين الأرض وضحكت:

– شوفي هذا مثلاً.

نظرت شيرين فلم تتمالك نفسها وضحكت فقد كان البائع يقف وهو عاري الجذع مناديًا على بضاعته بأغنية يبدو إنه هو مؤلفها وهو يضرب على كرشه بيديه معتبرها طبلة.

قالت شيرين:

- ماشي يا ستي بس يا رب ماتغيريش فكرتك بعد ما تجربي السواقة في القاهرة.

ردت أسيل ضاحكة:

- لا لا لا، شُكرًا..هَو هذا الـمُستَحيل بِحَد ذاتُه.

انفجرتا في الضحك، وبدأت شيرين تركن سيارتها في مكان وجدته بصعوبة بالغة، وما أن توقفت ونزلتا من السيارة حتى سمعتا صوت دراجة نارية وراءهما وقبل أن تلتفت أسيل كان راكب الدراجة قد خطف حقيبتها وانطلق هاربًا.

صرخت أسيل، وانطلق شابان كانا متواجدان بجانبهما سريعًا محاولين اللحاق براكب الدراجة النارية، ولكنه كان قد فر هاربًا بسرعة واختفي عن الأنظار في ثوانٍ، عاد الشابان وعلى وجههما نظرة اعتذار لأسيل، التي ما لبثت أن أجهشت بالبكاء، كان ما حدث معها مفاجئًا وصادمًا.

نظرت إليهما أسيل قائلة:

- ماتِعْتِذروش بيكَفي شَهامتْكُم، بَسْ الـــمُشْكِلِة إن باسبوري في الشنطة.

قالت لها شيرين:

- والله يا أسيل مِشْ عارفة اقولك إيه أنا مكسوفة منك أوي، أول يوم تخرجي معايا يحصلك كده؟

قالت أسيل بحزن:

- شيرين حبيبتي ما تِعتِذْريش بكُل مَكَان فِيه المنِيح والعاطِل، زَي مَا في الحرامي في كَمان مِثِل هَدُول الشابين اللي حَاولوا يسَاعدوني بدون ما يخافوا وكمان في إنتِ وفي...

برقت عيناها وقد تذكرت شيئًا وأضافت:

- كمان في أدهم، رَح أتْصِل فيه يِمكِن يعْرَف يعمِل إيشي.

رفعت هاتفها الذي لا يفارق كف يدها، حمدت الله إنها لم تضعه في الحقيبة واتصلت بأدهم وما أن رد حتى قالت:

- كِيفَكْ يا حَضرة الضابط؟

- الحمد لله تمام..بَسْ في إيشي صَار مَعي.

حكت تفاصيل ما حدث لأدهم ثم صمتت قليلاً لتستمع لما يقوله ثم ردت:

- حاضِر رَح أكون هُناك كمان شويّ.

- لأ، بَسْ شيرين صَاحِبتي مَعي وهِيّ أكيد بْتِعرَف المكان.

- مع السلامة.

أقفلت الهاتف ونظرت إلى شيرين التي أطل من عينيها تساؤل بخصوص ما تكلموا فيه فقالت لها أسيل:

- أدهم رَح يقَابِلني كمان شويّ قُدام قِسم شُرطة قَصر النيل بْتعرَفيه؟

ردت شيرين سريعًا:

- طبعًا..يلا أوديكي.

استقلتا السيارة وانطلقتا وسط الزحام الشديد لتصلا خلال ١٥ دقيقة، ووجدا أدهم واقفًا أمام سيارته ينتظرهما.

نزلت أسيل من السيارة فاقترب منها أدهم قائلاً:

- إنتي كويسه؟

أجابت في حزن:

- الحمد لله.

قال أدهم:

- خلاص يبقى فداكي.

- بَسْ الـمُشكِلة باسبوري في الشنطة.

فكر أدهم قليلاً ثم قال:

- ماتقلقيش كل حاجة وليها حل إن شاء الله، تعالي معايا.

أمسكت أسيل بيد شيرين وقالت:

- بَقَدِمْلَك الأول شيرين زميلتي.

تبادل أدهم وشيرين التحية ثم دخلوا جميعًا إلى قسم الشرطة.

***

انهمك المقدم توفيق رئيس المباحث في مطالعة أحد الملفات حتى سمع طرقًا على الباب فأذن للطارق بالدخول، دخل فرد أمن وأدى التحية وهو يقول:

- الرائد أدهم على الباب وبيقول إن في موعد مع سيادتك.

أذن له بأن يدخله ثم قام المقدم توفيق من وراء مكتبه ليستقبل أدهم، الذي دخل ومعه أسيل وشيرين..سلم عليهم توفيق مرحبًا ووجه كلامه لأدهم:

- والله زمان يا أدهم بيه هو الواحد مايشوفكش إلا إذا كان في حاجه؟

ابتسم أدهم وهو يقول:

- والله يا توفيق بيه مشاغل إنتَ عارف شغل المطار بياكل الوقت كله، المهم عنشان ما اعطلكش دي الآنسة أسيل اللي اتسرقت منها الشنطة.

أجلسهم توفيق وجلس وراء مكتبه ليستمع إلى ما حدث بالتفصيل من أسيل ومواصفات من سرقها.

ثم فكر قليلاً قبل أن يرفع سماعة الهاتف ويقول:

- تجيبولي الواد سرَحان بتاع الموتوسيكل من تحت الأرض حالاً.

أغلق السماعة ونظر إلى أدهم قائلاً:

- ماتقلقش يا أدهم حاجة الآنسة هاتكون عندها خلال ساعتين إن شاء الله..تحبوا تشربوا إيه بقى.

قالت أسيل:

- شكرًا، ما بديش أعطل حَضِرْتَكْ أكتر من هِيك، خَلينَا نْروح ونِرجَع كمان ساعتين.

أيد أدهم كلامها وسلم على توفيق، خرجوا جميعًا لتقف أسيل أمام سيارة شيرين وهي تقول لأدهم:

- تَعَّبْتَكْ مَعَايَ كتير.

- ماتقوليش كده يا آنسة أسيل أنا قلتلك قبل كده إنتي ضيفة عزيزة ويشرفني إني أخدمك.

رن هاتف شيرين فردت عليه وتكلمت مع المتصل قليلاً ثم قالت:

- أنا أسفة يا أسيل بابا عاوزني ضروري في البيت دلوقتي، تعالي معايا أشوفه عاوز إيه وبعدين أرجعك هنا تاني.

قبل أن ترد أسيل قال أدهم:

- أنا فاضي يا جماعة على فكرة لو يعني الآنسة أسيل ماعندهاش مانع أنا هافضل معاها لحد ما الساعتين يعدوا، وتقدري يا آنسة شيرين تشوفي اللي وراكي وماتقلقيش عليها.

نظرت شيرين إلى أسيل فوجدتها مترددة قليلاً، ولكن بخبرة الأنثى أدركت أن أسيل تفضل الانتظار مع أدهم فقالت:

- خلاص يا أسيل أنا هاروح البيت وهاتصل بيكي أشوفك عملتي إيه.

وقبل أن ترد أسيل تحركت شيرين لتركب سيارتها، وانطلقت لتتركها واقفة بجوار أدهم لا تدري ماذا عليها أن تفعل أو تقول لهذا الضابط الوسيم.

وسيم؟ فكرت أسيل في أنها تراه وسيمًا فعلاً منذ أن رأته أول مرة فابتسمت رغمًا عنها، فقد أحست أنها قد رجعت لأيام المراهقة.

قاطع أدهم تفكيرها بقوله:

- في كافيتريا هادية مش بعيدة من هنا ممكن أعزمك فيها على عصير لحد ما الوقت يعدي؟

هزت برأسها إيجابًا ففتح أدهم باب السيارة في حركة مسرحية أضحكتها، وهي تركب بجواره.

***

كانت كافيتيريا أنيقة على الطراز الأمريكي، ذلك الطراز الذي انتشر في الأونة الأخيرة في مصر وقد اختاره، لأنه خشي من أن يجلس مع أسيل في مكان أقل مستوى من هذا فتترعج، ومع ذلك قال لها بمجرد أن ارتشفت أول رشفة من الشيكولاته الساخنة التي طلبتها:

- يا رب يكون عجبك المكان.

قالت أسيل وهي تنظر إلى كوبها في تلذذ واضح:

- كْتِير حِلُو وكتِير عَجَبْني ديكور المحل، وكَمَان الشُوُكولاتَه.

تنفس أدهم الصعداء وهو يرجع بظهره إلى الوراء ثم قال:

- أخبار الجامعة إيه؟

- الحمد لله قَعَدِتْ اليوم مَع دكتور أمجد اللي رَح يشْرِفلي على الرِسَالِة، نَاقَشْنا نُقَط مُهِمِة في البَحث، على فِكْرة دُكتور أمجد طِلِع كْتِير مُثَقَفْ وفَهْمان على الرَغِم مِن عُمْرُه الصْغِير ووسَامتُه اللي ممكن تِلْفِتْ نَظَر كل بَنَات الجامعَة بَسْ هو كتير جَدي بِشُغْلُه.

قاطعها أدهم بضيق حاول إخفاءه فلم يفلح:

- وإنتِ مالك وسيم ولا لأ هو هايتجوزك ولا هايشرفلك على الرسالة؟

أحست أسيل برعشة خفيفة تتسلل لجسدها النحيل لم تفهم للحظة سبب رعشتها ولكن غيرة أدهم التي حاول جاهدًا إخفائها أشعرتها بجمالها، أشعرتها بما كانت على وشك نسيانه.

إنها أُنثى..

على الرغم من ضيق أدهم الذي بدا واضحًا تظاهرت بعدم انتباهها لغيرته، ولتخفف من وقع الإحراج حاولت تغيير الموضوع وكأن شيئًا لم يحصل:

- وإتْعَرَفِت كمان على شيرين، بِنْت بتجَنن وإنتَ شُفِتْ بنَفْسَك قَديش هالبنت طيوبة.

لكن على الرغم أنها لم تتطرق لكل ما حصل بكافيترية الجامعة إلا أن أدهم أحس أنها لم تخبره بكل الذي حصل معها فنظر إليها سائلاً:

- في حد ضايقك في الجامعة ولا حاجة؟

قالت مستغربة:

- ليشْ بْتِسأل؟

أجاب هامسًا بعد أن أشار لها باصبعه في الاقتراب:

- أصل الضباط أمثالي بيعرفوا يقروا اللي قدامهم كويس أوي.

وابتعد مبتسمًا قائلاً:

- بجد حصل حاجة؟

ابتسمت وقالت مازحة:

- بِدِّكْ الصراحة ولا إبنْ عَمُه؟

انعقد حاجبا أدهم وهو يقول:

- يبقى في حاجة بجد، حد ضايقك؟

أمسكت بكوب الشوكولاته الساخن بكلتا يديها، ونظرت بداخله كأنها تقرأ مستقبلها الذي تتمنى أن ترى ما يحمله.

اطالت النظر بكوبها كأنها تحاول الاستنجاد به قائلة في وجوم:

- إذا هيك يبْقى إنتَ بِدَك الصراحة، والصراحة يا أدهم آه صَار إيشي بالجامعَة اللي كتِير جَرَحْني ولولا شيرين مِشْ عارفِة إيشْ كُنتْ رَح أعمِل.

نظر أدهم إليها وقال بتحفز واضح:

- قوليلي مين اللي ضايقك بسرعة واسمه إيه؟

ابتسمت أسيل ورفعت عينيها من الكوب لتنظر في عيني أدهم مباشرة لتقول:

- ما تِقْلَقِشْ هيك يا حَضْرِة الضابط ما فِيشْ إيشي بسْتاهَل.

حَكَتْ أسيل لأدهَم ما دار بينها وبين أميرة وما شعرته إتجاه من كان جالسًا على نفس الطاولة بالتفصيل ثم نظرت لأدهم مستفسرة:

- ليشْ هاي النَظْرة مَع إنهم مَا بيعرَفونَاش ولا بيعرَفوا تاريخنا ولا الصِراع اللي بنْواجهُه لَنْحَافِظ على هويتنا العربِيّة الفَلَسطينيِّة..لنحَافِظ على أخلاقنَا العربية في مجتمع أقل إيشي ممكن تْقُولُه عَنُه إنُه بعيد تمامًا عن قِيَمنَا وأخلاقْنَا، وما بْتِتْخَيَلِشْ مَدى صُعوبة هذا الصِراع لما بتْقُوم فِيه وإنتَ داخل إسرائيل نَفْسْهَا.

صمت أدهم قليلاً وقد تذكر نقاشه مع والدته:

- الحقيقة يا أسيل علاقة المصريين مع إسرائيل تختلف عن علاقة أي دولة عربية أو إسلامية تانية..مفيش عيلة مصرية هنا إلا وليها تار عند إسرائيل، وإحنا مش بننسى تارنا، إنتِ عارفة إن الحكومة المصرية عاملة إتفاقية سلام مع إسرائيل إلا أن الحكومتين المصرية والإسرائيلية مع بعض فشلوا في فرض التطبيع علي المجتمع المصري وفشلوا في إنهم يقيموا أي علاقات على المستوى الشعبي..إحنا في مصر عندنا أسباب كتيرة تخلينا حساسين أوي ناحية أي حاجة إسرائيلية واللي حصلك ده ناتج عن حساسية زايدة مضاف إليه جهل بالأوضاع فا ماتزعليش منهم، لو هم كويسين فعلاً هايحبوكي بعد ما يعرفوكي ويعرفوا حقيقة وضعكم.

اشاحت بنظرها تجاه ذلك الحائط الزجاجي الذي يفصل المقهى عن الشارع المزدحم..انعكست ملامح وجهها على الزجاج مما أشعرها للحظة أنها جزء من ذلك الزحام الخارجي كأنه يعكس ويترجم ما يجول بداخلها من فوضى.

قالت ونظراتها تائهة غير مستقرة:

- بَسْ يا أدهم كُنتْ بَفَضِل إنُهم قَبل ما يعْمِلوا هُجُوم عَليّ إنُهم يتْعَرفوا عَليّ ويسْمَعوني مِتِل مَا عِمْلَت شيرين بَدَل مَا أحِس إني رَح أكون بحَالِة دِفاع عن النفس بكُل مرة وأنا بالجامعة.

- ده حال البشر يا أسيل ولكن إن شاء الله هايحبوكي أنا واثق من كده.

وصمت قليلاً ثم أضاف بصوت خافت:

- إنتي بجد مفيش حد يعرفك ومايحبكيش.

أحست أسيل بنبضات قلبها تتسارع مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان يتخلل هذه النبضات إحساس غريب لم تعرف تفسيره.

انتابها شعور مبهم كأن كل الفراغات التي سكنت روحها بدأت تتبدد بل وتنكمش بامتلاء مشاعر جميلة تكبر.

شعرت أن وجهها صبغه اللون الأحمر، وبدأت ترى الحمرة تنعكس على الحائط الزجاجي.

فهو حالها كلما شعرت بالخجل أو إنها على وشك أن ...

يا إلهي هي ليست مراهقة لتشعر بشيء بهذه السرعة.

على الأقل ليس الآن فجراح ما حدث لها من كمال لم تندمل بعد.. يا الهي..!! هي تشعر أنها على وشك أن تحب أدهم.

إن لم تكن قد أحبته أصلاً..!

رن جرس هاتف أدهم مما أنقذها من تفكيرها فقد كانت لا تعرف كيف سترد على جملة أدهم الأخيرة.

وما أن أنهى أدهم مكالمته حتى قال لها:

- شنتطك وجواز سفرك موجودين في قسم الشرطة خلاص، يلا علشان نجيبه.

- والله مِشْ عارفِة كيف أشكرَك يا أدهم، أقْصُد يا حضرة الضابط.

- خليها أدهم بلاش حضرة الضابط دي أنا مش في الشغل هنا وعمومًا في طريقة تقدري تردي بيها الجميل.

نظرت أسيل إليه بتساؤل فقال لها:

- تسمحيلي أشوفك مرة تانية...

***

-الفصل السادس-

أوصل أدهم أسيل الى بيتها بعدما أخذوا حاجياتهم من قسم الشرطة وانتظر في سيارته وما أن أطلّت أسيل برأسها من نافذة الشقة لتريه نفسها كما طلب منها حتى تحرك بسيارته، وهو يحاول نسيان ذلك الشيء العالق في ذهنه منذ أن أنهى مقابلته مع أسيل.

إنه ذلك الشمعدان اليهودي الشهير على جواز سفرها الأزرق... الإسرائيلي...

رفع هاتفه و طلب أحد الأرقام المسجلة به.

انتظر قليلاً حتى أجاب الطرف الآخر ليقول:

– أحمد، إزيك؟ عامل إيه؟

– أنا محتاج أقعد معاك شوية إنت في الجرنال؟

– تمام، عشر دقائق وأكون عندك إن شاء الله.

كان هذا أحمد صديقه اللدود كما يسميه، وهو صحفي متوسط الشهرة والآن كان يريد أن يعرف منه أشياء كثيرة. قاد سيارته في شوارع القاهرة المزدحمة وعقله لا يكف عن التفكير في أسيل و...

في جواز سفرها.

حتى وصل إلى الجريدة ودخل مكتب أحمد الذي استقبله قائلاً:

- الرائد أدهم عندي في مكتبي؟ ده آخر الزمان ولا إيه؟

ابتسم أدهم قائلاً:

- إيه يا أحمد ماحنا بنسهر مع بعض على طول.

- ما علشان كده عندي إحساس إن زيارتك دي وراها موضوع كبير.

- لا مش كبير ولا حاجة بس عاوز اسألك على حاجة كده قلت أكيد هايبقى عندك معلومات.

أخرج أحمد سيجارة من علبة سجائره الملقاة على مكتبه وقال بعد أن أشعلها:

- إتفضل اسأل.

تردد أدهم قليلاً ثم سأل:

- تقدر تقولي مين هم عرب ٤٨؟

نظر أحمد نحو أدهم بتفحص محاولاً إيجاد تفسير لسؤاله، ولكنه عاد ليجلس خلف مكتبه مسترجعًا أفكاره المبعثرة وتوجه إلى حاسوبه:

- أعتقد إنك عارف كويس أوي مين هم عرب ٤٨ يا أدهم بحكم شغلك.

- أيوه بس أنا عاوزك تكلمني عنهم بتفاصيل أكتر.. الرائد أيمن زميلي في الشغل دايمًا بيقول عليهم خونة فا قلت أعرف منك الصح.

نظر أحمد إلى وجه أدهم يتفحصه ثانيًة ثم ابتسم وهو يقول:

- مش بتعرف تكدب أبدًا يا أدهم على فكرة، لكن عمومًا أنا هاجاوبك.

استطرد قائلاً:

- بعد سنة ٤٨..أو عام النكبة زي ما بيتسمى، ظل جزء من الفلسطينيين في مدنهم وقراهم وباقي الأراضي المحتله على الرغم من التهجير والمجازر اللي مارستها العصابات الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني أكثر من ٨٠٠.٠٠٠ فلسطيني هجروهم سنة ١٩٤٨ ومابقاش غير ١٦٠.٠٠٠.

أوقفه أدهم قائلاً:

- ١٦٠.٠٠٠ بس فضلوا على أرضهم؟

رد أحمد:

- أيوه ١٦٠.٠٠٠ بس، وعلشان أكون دقيق هم آه فضلوا في فلسطين ولكن أغلبهم مش في أرضهم اللي اتولدوا وعاشوا فيها لأن إسرائيل حرمتهم من حقهم في العيش بيها وبنت عليها ما يسمى بالكيبوتسات لليهود، ونقلتهم لأماكن تانية ولكن بداخل إسرائيل

برضه لأنهم رفضوا الخروج.. المهم يا سيدي مرت السنين وازداد عدد الفلسطينيين المقيمين في الدولة الصهيونية لحد ما وصل عددهم دلوقتي تقريبا مليون ونصف المليون فلسطيني بيحملوا جوازات سفر إسرائيلية.

قال أدهم مستفسرًا:

- يعني اللي بتقوله، إن عرب ٤٨ هم فلسطينين ما قدرتش العصابات الصهيونية إنها تهجرهم وفضلوا متمسكين بوجودهم في وطنهم.

رد أحمد:

- أيوه تقدر تقول كده فعلاً.

- بس يا أحمد مجرد موافقتهم على حمل الجنسية الإسرائيلية بتحمل معاني سيئة.

أجاب أحمد:

- اولاً محدش خد رأيهم في حمل الجنسية من عدمها لأن الجنسية الإسرائيلية فرضت عليهم من إسرائيل.

قال أدهم مستفسرًا:

- طب ليه إسرائيل تفرض الجنسية على عربي فلسطيني مسلم كان أو مسيحي وإسرائيل هي دولة يهودية بالدرجة الأولى؟

ثم نظر لأحمد متسائلاً:

- مش هي برضه بتعرف نفسها على إنها دولة يهودية؟

أجاب أحمد:

- فعلاً بس مين قالك إن إسرائيل فرضت عليهم الجنسية بمزاجها دي إديتهم الجنسية غصب عنها وعن العرب نفسهم.

قال أدهم ساخرًا:

- ومن إمتى حد يقدر يفرض على إسرائيل وضع مش عاجبها؟

ابتسم أحمد قائلاً:

- خليني أوضحلك..إسرائيل لما راحت للأمم المتحدة وقدمت أوراق اعتمادها رجعولهم أوراق الاعتماد دي وطلبوا منهم ضمانات عن حقوق الفلسطينيين اللي فضلوا في داخل إسرائيل بعد الإحتلال، ووقتها فكروا في موضوع المواطنة علشان تقبل عضويتهم في هيئة الأمم المتحدة.

قال أدهم:

- يعني من رأيك هم مش خونة ولا جواسيس زي ما بيقولوا عليهم.

أجاب أحمد:

- اللي بيقول كده مايعرفش حقيقة اللي بيحصل فعلاً يا أدهم. صحيح إن عرب ٤٨ فيهم خونة وصحيح فيهم عملاء بس زيهم زي أي دولة عربية فيها العملاء والخونة ولكن اللي بيحصل على أرض الواقع هو إنهم بيتعرضوا لعنصرية شديدة في التعامل لدرجة إن لو أي يهودي قتل واحد من المواطنين العرب بتتم تبرئته بشكل مستفز، ولو تابعت تعليقات قادة إسرائيل على وجودهم هاتلاقي أغلبها تعليقات عنصرية، بنيامين نتنياهو رئيس الحكومة اليميني المتطرف، نفسه حذر من فترة مش بعيدة من إن عرب إسرائيل بيشكلوا خطر ديمغرافي حقيقى على التركيبة السكانية في إسرائيل و...

قطع أحمد حديثه فجأة ونظر لأدهم وساله:

- ولكن قوللي بقى بصراحة بتسأل ليه يا أدهم؟

صمت أدهم قليلاً ونظر إلى أحمد في تردد ولكنه سرعان ما حسم الأمر، وبدا يحكي لأحمد عن أسيل، وما أن انتهى حتى اعتدل أحمد في مقعده وظهرت على وجهه علامات الحيرة وهو يقول:

- اللي حكيتهولي ده خطير يا أدهم ..!

- خطير ليه؟ مجرد بنت أنا اتعرفت بيها إيه المشكلة؟

- للأسف هي مش مشكلة واحدة بس يا أدهم إنت ناسي إنت بتشتغل إيه؟

صمت أدهم لثوانٍ ثم قال بضيق وهو يهز رأسه:

- لأ مش ناسي.

- دي لوحدها مشكلة كبيرة ماتنساش إنك في النهاية معجب بنت بتحمل جواز سفر إسرائيلي.

قال أدهم بسرعة:

- فلسطينية يا أحمد إنت نسيت اللي إنت قولته من شوية وبعدين مين قالك إني معجب بيها؟

ابتسم أحمد وقال:

- إيه يا أدهم هو أنا عارفك امبارح ولا إيه؟ وعموما يا أدهم أنا عارف كده ومقتنع بإنها فلسطينية وإنت كمان عارف ومقتنع بس يا ترى رأي الناس هايبقى إيه؟ رأي والدتك اللي جوزها اتقتل في حرب أكتوبر برصاص اللي بيحملو نفس الجنسية يا ترى هايبقى إيه؟ ما فكرتش في كل ده؟

أطرق أدهم برأسه في ضيق:

- لو مافكرتش ماكنتش جيت سألتك النهاردة. بس هي مش إسرائيلية يهودية هي فلسطينية عربية مسلمة.

– بس بتحمل نفس جواز سفرهم نفس جنسيتهم عايشة معاهم بتاكل وتشرب معاهم، ليها أكيد أصدقاء وسطهم هاتقدر تقعد معاها يا أدهم وسطهم وتضحك وتهزر وكأن مفيش حاجة؟

هب أدهم واقفًا وقد إحمر وجهه:

– هو أنا جايلك علشان تجيبلي إحباط يا أحمد وبعدين إنت مش لسه كنت بتدافع عنهم دلوقتي؟

قام أحمد من خلف مكتبه وربت على كتف أدهم وقال:

– إهدا بس، أنا مش قصدي، أنا بس عاوز أوضحلك إيه اللي هاتواجهه وبعدين يا أخي حد قالك إنها هي كمان معجبة بيك؟ والله شكله إعجاب من طرف واحد وهاتفضحنا قدام الأجانب.

– لا يا أحمد البنت دي شفافة أوي غير كل البنات اللي قابلتهم لحد دلوقتي ونظرة واحدة لعنيها ممكن تقرا هي عايزة تقول إيه من غير ما تتكلم وعينيها بتقولي حاجات كتير أوي.

سار أدهم ناحية الباب خارجًا ثم وقف ثانيًة والتفت إلى أحمد قائلاً:

– آه وعلى فكرة، يا ريت ماتقولش عليها أجانب تاني....!

***

ابتسم أفراد الحرس لأسيل وهي تدخل الحرم الجامعي ردًا على ابتسامتها الرقيقة المعتادة التي ألفوها منها في كل مرة تدخل الجامعة.

وما إن دخلت البوابة حتى سمعت صوتًا مألوفًا يناديها من بعيد:

- أسيييييييييييل .. صباح الخير.

- اهلاً شيرين صباح النور.

- بقالك شهرين دلوقتي في الجامعة عمري ما شفتك بتتأخري دقيقة عن معادك في إيه يا بت الحياة مش جد أوي كده.

ابتسمت أسيل قائلة:

- نفسي يا شيرين أصِير دُكتُورة بْسُرعة.

- إن شاء الله، قوليلي بقى، عندك إيه النهاردة؟

- أنا رايحَة هَلأ عند الدكتور أمجد أوريه إيشْ كَتَبِتْ بالبَحث اللي طَلَبُه مِني.

- بسرعة كده؟ مش هو لسه طالبه من يومين؟

ضحكت أسيل وهي تقول باللهجة المصرية:

- هو إحنا بنلعب ولا إيه؟ يلا أنا رايحة للدكتور أمجد عَلَشَان متأخرش عنيه وأشوفك بَعْدْها.

***

أن تحمل شهادة الدكتوراة شئ وأن تقوم بالتدريس للطلبة الذين يحاولون الحصول على شهادة الدكتوراة شيء آخر تماماً..مسؤولية لا يعرف حتى هل هو فعلاً قادر عليها أم لا.

هل ظلم من قبل طالبًا كان يمكن أن يفعل شيئًا جيدًا لهذه البلد أم لا؟ هل دائمًا ما يكون تقييمهُ للطلبة صحيحًا؟

كان الدكتور أمجد يُفكر في هذا عندما طرقت سكرتيرتهُ الباب ودخلت بخطوة رشيقة وهي تقول:

- أسيل موجودة عندي وبتقول عاوزة تسلم لحضرتك بحث كنت طالبه منها.

رفع دكتور أمجد حاجبه في دهشة وهو يقول:

- هي لحقت تخلصه؟ خليها تتفضل.

دخلت أسيل بخطواتها الثابتة الهادئة لمكتب الدكتور أمجد:

- صباح الخير دكتور.

- صباح الخير.

- عندك شويّة وقت إلي؟

- وقتي كله دايمًا ليكي يا أسيل، سمعت حاجة من السكرتيرة بس مش مصدقها، إنتي فعلاً خلصتي البحث؟

– آه طبعًا أنا مَكُنْتِشْ بَنام لأني حَابة أسْمَع رأيَك بأُسلوبي في الكِتَابة وإذا أكمل على نفس النَّمَط أو بِتْحِبْ أستَخدِم أُسلوب تاني.

أخذ دكتور أمجد البحث من أسيل وجعل يتصفحه وهو يقول:

– طبعًا ماكنتيش بتنامي وإلا ماكنتيش هاتخلصي البحث في الوقت القياسي ده.

ثم توقف قليلاً عند صفحة بعينها وقرأ قليلاً ثم نظر إليها:

– ده أُسلوبك عموما في الكتابة؟

– آه..أنا بَحِب أُسلوب السَرد..بَحِب أكتِب كأني بَكتِب قصة، بَسْ في أُسلوب تَاني اللي هو الأُسلوب النَقْدي اللي بَفَضْلو أقَل لأني مَا بَحِبش أكتِب رأيي في البَحث الأكاديمي بالذات، إيشْ رأيك؟ أي أُسلوب أفضل؟

نهض دكتور أمجد من وراء مكتبه ووقف يتأمل الكتب التي تزخر فيها مكتبته وهو يقول:

– الأديبة العالمية ماري ويبراي ليها مقولة شهيرة جدًا يوم ما شبهت فيها الكتابة بالعضلات وأن الكتابة الروائية هي إستعراض لتلك العضلات.

انتقى كتابًا من المكتبة وأخرجهُ ثم نظر إلى أسيل وهو يُضيف:

- يا ترى يا أسيل عندك عضلات كنتي عاوزة توريهالي؟

ابتسمت ورفعت شعرها الناعم الذي سقط على عينيها في تلك اللحظة، قبل أن تجيب:

- أنا مِشْ مَع اسْتِعراض العضلات دكتور، بالذات قُدام أستاذي، لأني مَهما حَاوَلتْ مِشْ رَح أكون بمُستواك، بَسْ بالرَغِم مِن هيك بَحِب أكون كاتبِة بالمستوى المطلوب.

ناولها الكتاب الذي أخرجه من المكتبة، تناولته وفي عينيها نظرة تساؤل.

ابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول:

- ده كتاب لكاتبة اسمها دوروثي براند اسمه "كيف تصبح كاتبًا" وهو أحد أفضل ما كُتب في المجال ده، في الكتاب ده بتنصح براند الكاتب اللي عايز يحترف الكتابة إنه يكتب حاجة كل يوم. ممكن مايكونش هناك موضوع مهم تكتبي فيه كل يوم. في الحالة دي، اكتبي أي حاجة تخطر في بالك اكتبي رأيك في إعلان شفتيه أو حتى رأيك في زملائك المهم تكتبي ووقتها أسلوبك هايتحسن.

ضحك وهو يضيف:

- ومن عضلاتك اللي أنا شايفها في البحث ده صدقيني إنتي هاتبقى من كبار الكتاب في يوم من الأيام.

نظرت أسيل إلى الكتاب الملقى بين يديها، وبدأت في تصفح أول صفحاته في حين كان دكتور أمجد يراقب حركاتها الناعمة في قلب الصفحات ونظراتها الثاقبة للأسطر.

علت شفتيه ابتسامة حين رأى أسيل ترفع شعرها من على عينيها، لتمسكه بيدها كي لا يزعجها في قراءة الأسطر وبينما كانت تقلب الصفحة تلو الأخرى سألت الدكتور أمجد:

- بْتِسْمَحلي أستعير مِنَك هالِكتَاب؟ بَحِب أقراه وبَوعْدَك أرَجعلَك إياه في أسرع وقِتْ مُمكِن.

ولكنها لم تسمع رده فرفعت عينيها اتجاهه لتجده ناظرًا إليها كأنه لم يسمع ما قالت، لتقول مستفسرة ثانيًة:

- دكتور أمجد مُمكِن أستعير الكتاب؟

ليتنبه فجأة أنه كان ينظر إليها في شرود قام مرتبكًا وعاد خلف مكتبه وهو يقول في لهجة رسمية:

- الكتاب ده أنا مطلعه علشانك أصلا يا أسيل تقدري تاخديه معاكي.

ابتسمت قائلة:

- شكرًا كتير، وبَحِب كمان أسمَع نَقْدَك لأنه بدون ما تْقُولي وين أنا غْلِطِت ووين لازم أظَبط مِشْ رَح أتعَلَم، ويا ريت لو تقرا كل اللي كَتَبْتُه ونُقْعُد كمان كَم يوم وتقولّي إيشْ رأيَك بِصُورة موضوعية ودقيقة أكتر.

ابتسم دكتور أمجد قائلاً:

- ماتقلقيش، أنا موجود علشانك في أي وقت.

قامت أسيل مستأذنة:

- بعد إذنَك، أنا رَح أخد مَعَاد جديد من السكرتيرة.

قام دكتور أمجد ليسلم عليها مودعًا:

- مع السلامة وأنا بانتظار أشوف عضلاتك الكتابية قريبًا.

خرجت أسيل من مكتبه تحمل في داخلها شعورًا غريبًا من ناحيته، إعجاب فوق العادة، دكتور في جيله مثقف، مهذب وما لفت نظرها بالتحديد ثقافته السياسية التي تترفع عن المشاعر الزائفة والمتهورة. لتتذكر فجأة شيئًا ما وتبتسم.

فقد كان عندها اليوم موعد مع أدهم.

***

كوبري قصر النيل ....

لا أحد في مصر لا يعرف هذا الكوبري فعلى الرغم من انتشار الكباري بطول نهر النيل إلا أن كوبري قصر النيل التاريخي الذي يقترب عمره من قرن وربع من الزمان..سيظل واحدًا من الكباري التي يشتاق من يمر عليه مرة للعودة إليه مرة أخرى..قد يكون ذلك بسبب جمال تصميمه والأسود الأربعة التي تحرسه من جانبيه، وقد يكون بسبب المشهد الخلاب الذي تراه وأنت تقف عليه.

هناك كثيرون لا يعرفون أهم كانوا قديمًا مجبرين على دفع رسوم لاستخدام هذا الكوبري للعبور للناحية الأخرى من النيل.

كلما كان أدهم يمر بهذا الكوبري بعد الغروب كان يحب أن يشاهد المحبين المتراصين على جوانبه، وهم يطلون على واحد من أجمل مناظر النيل ويتناجون، ومن حولهم يتجول بائعوا الترمس والذرة المشوي وحمص الشام.

كان يحب هذا المكان بشدة ولكنه كان بانتظار من تشاركه تلك اللحظة. والآن لا يفكر في غير أسيل لتشاركه هذا المكان.

لذلك قرر أن يتقابلا هناك اليوم.

توقف أدهم بسيارته أمام مترل أسيل، وترجل سريعًا ليمارس عادته في فتح باب السيارة لها وهو يقول مبتسمًا:

- تفضلي فاتنتي.

توجهت أسيل لسيارة أدهم وأمسكت الباب وهي تبتسم:

- دير بَالَك أدهم أنا مُمكِن أتعوَد على هيك حركات.

ضحك أدهم وهو يغلق الباب خلف أسيل، وانحنى بعض الشئ ليقول لها من الشباك المفتوح جانبها:

- بحاول أغويكي أنا بشوفهم في الأفلام بيعملوا كده وبيحصلوا على نتائج كويسه أوي.

ضحكت أسيل وهي تقول:

- تغويني؟ ماشي.. رَح أعتبِرها مُجاملة يا حضرة الضابط.

ما أن جلس أدهم في مقعد السائق وبدأ يتحرك حتى نظرت إليه أسيل مستفسرة:

- إحْكِيلي وين مَاخدني؟

رد أدهم وهو ينظر اللى الشارع:

- النهاردة هاخدك لواحد من الأماكن اللي بحبها أوي..يا رب تحبيها إنتي كمان.

ابتسم وهو ينطلق بالسيارة وأضاف:

- النهاردة هانقف على كوبري قصر النيل.

هدأ أدهم من سرعته وهو يبحث عن مكان في منتصف الكوبري ليركن سيارته حتى وجد مكانًا فتوقف فيه، وترجل سريعًا ليمارس عادته الأثيرة ويفتح باب السيارة قائلاً:

- تفضلي فاتنتي.

ترجلت أسيل من السيارة بهدوء، وما أن اقتربت مع أدهم من سور الكوبري حتى اتسعت عيناها انبهارًا..لكنها صمتت للحظات فلم تجد ما يمكن أن يقال غير النظر إلى هذا المشهد الخلاب.

مرت لحظات ثم نظرت إلى أدهم قائلة:

- بْتِعرَف أدهم؟ أنا مريت مِن هذا الِجسر أكم مرة.. بَسْ ولا مَرّة إنْتَبَهتْ لَهذا الـــمَشْهَد السَاحِر لأني دايمًا بكون مَشْغُولِة بإيشي معين بَس هاي المرة قدِرت تْخَليني أشوف الأشياء الحِلوة بِعِينيك إنتَ.

صمتت للحظة كأنها تنبهت للكلام الذي قالته وكأنها لم ترد قوله وقالته بدون إدراك منها؛ لتدير رأسها بخجل لجهه النيل وفي تلك اللحظة وقعت خصلة من شعرها الناعم على عينيها فرفعتها بأناملها للوراء بتلقائيتها المعتادة، ابتسم أدهم لهذه الحركة التي يعشق النظر إليها كلما فعلتها أسيل وقال:

- أنا قولتلك قبل كده إن شعرك جميل أوي؟

نظرت إلى النيل بخجل كأنها تستنجده من نفسها ومن عيني أدهم لتقول بصوت هادئ ممزوج بابتسامة خجل:

- لأ ما قُلتِش.

سرَحت وهي تنظر للنيل حتى سمعت أدهم يقول:

- أسيل إنتِ عمرك ما كلمتيني عن حياتك في إسرائـ.. أقصد فلسطين؟

صمتت كأنها تحاول ترتيب أفكارها..أغلقت عيناها مستنجدة بأعماق ذاتها لتستنبط قضية كاملة فغرقت في الكثير من الأحداث والقضايا التي تمنت لو سردتها في تلك اللحظة ولكنها لم تعرف من

أين تبدأ..أطالت النظر باتجاه النيل كأنها تنظر إلى تاريخ كامل..شعرت في حيرة النيل وتردده التفتت تجاه أدهم لتجده ما زال ينظر إليها فقالت سائلة:

- إنتَ إيشْ بِدَك تِعْرَف؟

ابتسم بهدوء:

- اللي عاوزة تقوليه قوليه.

عاودت النظر للنيل وقالت:

- بَسْ أنا مِشْ عارفيه مِن وين بِدي أَبَلِش.

تقدم أدهم ليقف حاجزًا بين أسيل والنيل كأنه مُصِرّ على النظر في عينيها:

- إيه يا أسيل مش عاوزاني أعرف حاجة عنك ولا إيه؟

ابتعدت عنه عدة خطوات، ورفعت يدها بتحية رجل الأمن محاولة الهرب من حيرتها لتقول باللهجة المصرية:

- تمام يا حضرة الضابط هاعترف خلاص.

ابتسم أدهم لتصرفها وهو يتقدم باتجاهها، أمسك ذراعها كأنه يريد احتضانها وقال بنوع من الجدية:

- أنا فعلاً عايز أعرفك.

تحركت مرة ثانية تجاه سور الكوبري وارتكزت بذراعها عليه وهي تنظر إلى تلك الطبيعة الساحرة.. ثم بدأت بالكلام:

- شوف أدهم أنا رَح أبدأ قِصتي من فَلَسْطين وبالتَحديد مِن مَسقَط رأس أبوي، قرية البروة، القرية اللي إهَجَر مِنْها سيدي وستي واللي كُل ما بَتْذَكَر سيدي وستي وهم بيحكولي عن القرية بَحِس بريحة شجر الليمون بتْلِفني.

قال أدهم مستفسرًا:

- اشمعنى شجر اللمون؟

أجابت أسيل مبتسمة:

- لأنها كانت مَليَانة بشَجَر الليمون.

نظرت إليه مستفسرة:

- بْتِعرَف الشاعر محمود درويش؟

قال أدهم:

- أيوه طبعًا أسمع عنه.

قالت أسيل:

- هاي القرية اللي اتوَلَد فيها الشاعر محمود درويش الله يِرْحَمُه.

قال أدهم:

- الله يرحمه..بس دلوقتي إنتوا مش عايشين بقرية البروة صح؟

– لأ، إحْنَا عَايشين بحيفا، مُمكِن تِعْتبرنا لاجئين بحيفا إحنا من اللاجئين داخل فَلَسْطين، الناس بْتِسْمَع عَن الّلاجئين بالمُخَيمات الفَلَسطينية في لبنان والّلاجئين في أوروبا وأمريكا وكندا ومنَاطِق كتيرة بالعالم. ولكن أصعب حالات الّلجوء لما بتكون لاجئ بِبَلَدَك. لما بْتِبعِد كيلومترات بَسيطة عَن بيتك ومَا بْتِقْدَرش تُوصَلُه عَلَشان في عِيلة يهودية ساكنة فيه ومِسْتَمتِعَة بكُل مُمتَلكاتَك وأرضَك وزَرعَك، اللي إنتَ ما بتِقْدَرش تِتْصَرَف فيهم.

قال أدهم وهو يهز رأسه موافقًا:

– حاجة صعبة جدًا طبعًا.

قالت أسيل وهي تنظر للنيل:

– كتير صعِب، وحنين إمي ليافا كمان صعِب.

نظر إليها مستغربا:

– يافا ولا حيفا؟

قالت أسيل وما زالت تنظر للنيل:

– يافا، حيفا مَلجأنا بعد النكبة بَسْ يافا هي بيت سيدي وستي من جهة إمي اللي لَحَد اليوم بيت سيدي الله يرْحَمُه مَوجود هُناك، وبَتْذَكَر كيف كان يحكيلي عن اللي صار بيافا سنة ٤٨ من تهجير ونَهب وقَتِل قُصص مُمكِن تْبَكي بَدَل الدموع دم، وكيف كان يحكِيلي عَن الحاله اللي عاشوها لما حَشَروهم اليهود في حي إسْمُه

العجمي واللي حوطوه بالأسلاك الشائِكِة وخَلُوا الدخول والخروج منه بإذن مِنهُم، كل هاي الذكريات بتُسْكُني زَي ما سَكْنَت سيدي وستي.

صمتت للحظة لتستحضر بعض الذكريات:

- بْتِعرَف أدهم، أنا قَضيت لَيالي وأنا بَسْمَع قِصَص سيدي وستي عن النَكبِة وعَن الناس اللي إستَشْهَدَتْ والناس اللي هَرَبَت و...

صمتت لثانيَّة ثم أضافت:

- والناس اللي بقيَّت، اللي بقيَّت لَحَد اليوم بتَحَدي مَع الدولة الصهيونية اللي بتْحَاوِل تِمحي أي وجود أو رَمز فَلَسطيني في يافا..الفترة الأخيرَة يافا بتْمُر بعَمليِّه تهويد قاسيِّة..لما بتشُوف اليهود الـمِتْشَددين بيُسكُنو عَمَارات في يافا بيمْنَعوا العَرَب مِن السَكَن فيها وبْتِنبَنى أماكن مخصصة لَليهود وبيشَجْعُوهُم في إنُهم يِنْتِقلوا لأجمل مُدُن الساحِل اللي بتْطُل على البحر الأبيض المتوسط وكَأنْهُم مِستَكترين يافا على أهلها الأصليين.

نظر أدهم لأسيل مستفسرًا:

- هي يافا جميلة أوي كده؟

ابتسمت أسيل قائلة:

- هو أصلاً إسِم يافا جاي مِن كِلمِة *يافي* الكنعانية واللي بْتِعني الجميلة وكل الوَثَائِق والأدِلِة التاريخية بتْدِل على إنُه جَميع التَسْمِيات

ليافا واللي إنذَكرَت بكُل المصادر القديمِة بتعَبر عَن معنى الجمال. وبْتِعرَف إيشْ أقدَم تَسْجيل لإسِم يافا وصِلنا إلو لَحَد هاي اللحظة؟

ثم نظرت لأدهم وهي تغمز بعينيها:

- إحزر إيشْ؟

استغرب أدهم من سؤالها:

- إيه؟

- أقدم تَسْجيل مَوجود باللُغَة الهيروغليفية مِن عَهد "تحتمس الثالث" وإتْسَجَلَتْ هُنَاك بإسم "يوبا"، يافا ما سَمُوهاش بالجميلة عَبَث..لأ...سَموها يافا لأنها جميلة الجميلات، ويافا كَمَان كانَت مَركَز ثقافي وتجاري كبير قَبل الإحتلال وكانت بتُصدُر بيافا أهَم الصُحُف الفَلَسْطينية وممكن نقول إنه يافا كانت منارة الثقافة الفَلَسْطينية، بالإضافة لَلمسارِح ودور السينما، وكانت مَركَز مُهم كتير لَلتِجارة الداخليِّة والخارجيِّة بفَضِل وجود مينا يافا، والبرتقال اليافاوي كان معروف عالميًا وكانت العلامة التجارية "**Jaffa Orange**" من أشهر العلامات التجارية المعروفة في العالم.

أما الطبيعه في يافا ساحرة بشكل لا يوصف..بيكَفِي إنَك تِنْزِل البَحَر حافي وتْلامس الأمواج رِجليك ساعتها رَح تِحس كأنك مَلَكِت الدنيا وما فيها.

صمتت أسيل كأنها تستجمع أفكارها:

- على فِكرة لما بَحكيلَك عن يافا بَشِم ريحة البُرتقال اللي بتْلِف المكان زَي لما بَحكي عَن البروة بَشِم ريحة الليمون لكل مَكَان في فَلَسطِين مِيزتُه وجَمالُه وطَعمُه وريحتُه

قال أدهم وقد اتَّجه بعينيه إلى النيل:

- تعرفي يا أسيل، لما عرفتك ماكنتش أعرف كتير عن اللي بيسموهم عرب إسرائيل.

قاطعته أسيل بلهجة معاتبة:

- وبعدين يا أدهم..؟!! بعد كل اللي قلته بترجع وبتقول عرب إسرائيل؟

- سامحيني بس زي ما كنت بقولك ماكنتش أعرف كتير عنكم، فلسطينيي ٤٨، ولما عرفتك سألت ولقيت إن في ناس بيعتبروكم خونة أو عملاء لمجرد إنكم رضيتم الحياة مع المحتل. ولكن كلامك خلاني أحس بإن في حاجات كتير محتاجين لسه نفهمها عن أوضاعكم.

ابتسمت أسيل وأرادت أن تقول شيئًا إلا أنه نظر للساعة فوجد أن الوقت قد تأخر جدًا:

- إيه ده؟ الوقت اتأخر أوي واحنا مش حاسين.

نظرت إليه أسيل سائلة:

- إيشْ بِدَك تِعرَف كمان؟

- أعرف إيه بس؟ إنتي هاتروحي الجامعة الصبح إزاي؟ يلا علشان أروحك.

مشت أمامه بدون أي تعليق كأنها منهكة من الذكريات.

تقدم أدهم من باب السيارة وفتح لها الباب، وقبل أن تجلس قال:

- عاوز أقولك إن النهاردة كان من أحلى الأيام اللي أنا عشتها بحياتي.

ابتسمت وبدون أي تعليق، جلست في السيارة وأغمضت عينيها في استرخاء.

***

على الرغم من وصوله لأحد أهم المناصب الأمنية في مصر كان اللواء فؤاد عبد الناصر رئيس مباحث أمن الدولة قصير القامة ممتلىء الجسم ملامح وجهه طفولية كالتي يتميز بها ممتلئوا الجسم عادة..ذا وجه يصعب تذكره بسهولة..لكن من يعرف اللواء فؤاد جيدًا يعرف أن هذا لا يعكس شخصيته على الإطلاق فهو يمتلك شخصية جبارة وحضورًا طاغيًا جعل الجميع يتجنبون نظراته التي تجعل أعلى الرتب الأمنية في مصر ترتجف رعبًا.

لذلك كان أدهم قلقًا للغاية عندما جاءه استدعاء من مكتب اللواء فؤاد يفيد بأنه يريد مقابلته شخصيًا فهو على الرغم من أنه قد

جاء لإدارة مباحث أمن الدولة من قبل..إلا أنه لم يقترب من اللواء فؤاد أبدًا، ولم يتبادل معه كلمة واحدة في حياته..إلا أن ما يسمعه عنه كفيل بأن يجعله قلقًا من سبب هذا الاستدعاء.

أبطأ أدهم بسيارته عند الحاجز الأمني على بوابة مقر أمن الدولة فجاءه أحد المجندين يتفحص وجهه بشك أخرج له أدهم بطاقته:

- الرائد أدهم مصطفى، عندي موعد مع سيادة اللواء فؤاد.

توتر المجند حين سمع اسم اللواء فؤاد، وذهب ليلقي نظرة على سجل البوابة ليتأكد من وجود اسم أدهم ثم رجع ليفتح البوابة ويعطيه اشارة الدخول.

جلس أدهم قليلاً في قاعة الانتظار حتى سمع صوتًا يقول:

- اتفضل، سيادة اللواء مستنيك.

طرق أدهم الباب قبل دخوله، وعند فتحه الباب كان اللواء فؤاد أمامه يقول له:

- إتفضل اقعد يا سيادة الرائد.

جلس أدهم متحاشيًا النظر إلى عيني اللواء فؤاد الناريتين حتى لا يتوتر أكثر.

تصفح اللواء فؤاد ملفًا أمامه وهو يقول:

– ملفك بيقول إنك من أكفأ ضباط أمن المطار يا سيادة الرائد وده دفعنا لأننا نقرر نقلك لمباحث أمن الدولة للاستفادة من كفاءتك دي، أفضل من وجودك في المطار.

– ده شرف كبير يافندم إن سيادتك تقول عني كده.

قالها أدهم بحذر ثم صمت.

– لكن وجدنا عائق كبير أوي يا سيادة الرائد.

قالها اللواء فؤاد بصرامة شديدة هذه المرة وهو يكمل تصفح الملف مستطردًا:

– أسيل، طالبة دكتوراة من عرب ٤٨ وتحمل جواز سفر إسرائيلي رقم ١٢٥٥٤٨٧ إتعرفت عليها في المطار عند وصولها ومن يومها وإنتوا بتتقابلوا شبه يومي بخلاف الاتصالات التليفونية الكثيفة طبعًا.

نظر إليه أدهم مستغربًا وحاول أن يقول شيئًا لكنه فضل أن ينتظر حتى يكمل:

– مالك يا سيادة الرائد؟ مش معقول تكون مستغرب إننا عارفين كل ده.. إنت رجل أمن مدرب كويس وعارف إن الأمور دي مش هاتخفي علينا أبدًا.

– عارف يافندم لكني لسه مش شايف برضه إن فيه مشكلة في اللي سيادتك قولته.

ضرب اللواء فؤاد على المكتب بيده وهو يقول في صرامة أربكت أدهم:

- ضابط شرطة مصري على علاقة ببنت إسرائيلية يا سيادة الرائد وتقولي مفيش مشكلة؟

- فلسطينية يا فندم.

قالها أدهم بسرعة ثم صمت ثانية.

رد اللواء فؤاد بغضب:

- لأ، إسرائيلية يا سيادة الرائد حسب ما جواز سفرها بيقول وبعدين حتى ولو فلسطينية فا شغلك يمنعك تمامًا من إقامة علاقة زي دي، وبعدين يا أخي ما عندك البنات في مصر كتير أي واحدة تتمنى إن ضابط زيك يشاورلها بصباعه بس..إشمعنى دي يعني؟

صمت أدهم أمام هذا السؤال قليلاً ثم قال:

- يافندم علاقتي بأسيل علاقة شريفة ومش هاتأثر على شغلي.

- إحنا يا سيادة الرائد مش هانستنى لما نعرف هاتأثر في شغلك ولا لأ. حركة الترقيات اللي إنت المفروض يتم فيها ترقيتك قدامها شهر، خلال الشهر ده لازم تكون العلاقة دي منتهية.

صمت اللواء فؤاد قليلاً ثم أضاف:

- وإلا الموضوع مش هايقف عند منعك من الترقية وبس يا سيادة الرائد.

ثم ضغط جرس الاستدعاء، دخل العسكري فورًا وادى التحية فقال اللواء فؤاد بطريقة توحي أنه لا يريد سماع كلمة أُخرى:

- وصل سيادة الرائد لحد بره.

***

شرد أدهم وهو يخرج بسيارته باتجاه الطريق الرئيسي وجعل يفكر فيما سمعه من اللواء فؤاد منذ قليل..سمع صوت فرامل سيارة فجأة بجانبه وشخصًا يبدو أنه يسبه بالفاظ يعاقب عليها القانون توقف على جانب الطريق بعدما أدرك أنه يجب عليه أن يتجنب القيادة الآن ورجع إلى تفكيره ثانية. كان واضحًا من كلام اللواء فؤاد أنه قد اتخذ قراره بأن تلك العلاقة يجب ألاّ تستمر، وهذا يؤلمه بشدة فقد تغلغلت أسيل في حياته لدرجة لا يتصور أنها يمكن أن تخرج منها.

"يا إلهي إنني وسط أمر معقد"

فكر أدهم في هذا وهو يدير محرك سيارته وقد قرر الذهاب إلى الوحيد الذي يمكن أن يتكلم معه بصراحة شديدة.

صديقه المشاغب أحمد.

كان الزحام قليلاً في هذا الوقت فوصل أدهم سريعًا إلى الجريدة التي يعمل فيها أحمد وصعد مهرولاً إلى مكتبه وما أن رآه أحمد حتى أحس من ملامحه أن هناك خطبًا ما.

جلس أدهم يحكي لأحمد كل ما حدث.

- بحبها يا أحمد..بحبها أوي..!

نطق أدهم تلك الجملة ثم أشاح ببصره حتى لا ينظر في عيني صديقه أحمد الذي قال وهو يضحك:

- اخيرًا وقعت يا سيادة الرائد الهمام، طيب هي بتحبك برضه زي ما إنت بتحبها كده؟

- ماعرفش..!

- ماتعرفش؟ كل المشاكل اللي إنت فيها دي بسببها ولسه ماتعرفش؟

- مش عارف يا أحمد حاجة، بس أنا حاسس إنها، يعني هي مهتمة بيا بس، بس ما قالتليش بحبك!

- وهو يعني إنت قولتلها بحبك؟

- مش عارف بقى يا أحمد.

- طيب خلاص هاتعمل إيه في شغلك؟ أعتقد إن الترقية دي مهمة ليك.

– بصراحة الموضوع مربك شوية لأسباب كتيرة، أولاً أنا دخلت سلك الشرطة علشان أخدم الناس علشان يكون عندي سلطة أقدر بيها أفيد الناس ولو تفتكر أنا كنت رافض إني اشتغل في أمن الدولة، فاكر السبب؟

– فاكر طبعًا.

– زي ما قولتلك قبل كده في مباحث أمن الدولة بتتم ممارسات بكل صدق أنا مش راضي ولا عمري هارضى عنها أبدًا، ودلوقتي ترقيتي مرتبطة بإني أروح مقر مباحث أمن الدولة الرئيسي، وهنا بقى أول مشكلة.

– طيب ما تعتذر عن قبول الترقية وتريح دماغك من اهتمامهم كمان بموضوع أسيل.

– الوقت اتأخر على إني أفكر في كده، الموضوع دلوقتي ببساطة يتلخص في جملة واحدة، إني أقطع كل علاقة ليا بأسيل تمامًا...أو أسيب شغلي في سلك الشرطة.

***

ارتفع صوت شيرين وهي تنادي:

– أسيييييل إنتي فين يا بنتي؟ إنتي اتاخرتي ليه عند دكتور أمجد؟! هو طلعلك القطط الفطسانه من البحث اللي كتبتيه.

اتسعت ابتسامه أسيل وهي ترد:

– لا أبدًا بالعكس كتير عَجَبُه اللي كَتَبْتُه وطلب مني إني أتوَسَع أكتر في شويّة نُقَط لأنها محورية في موضوع الرسالة.

نظرت شيرين مستغربة:

– أُمال إنتِي اتأخرتي ليه عنده المرة دي؟ المرة اللي فاتِت قعدتي عنده نص ساعة والمرة دي ساعة كاملة المرة الجاية لازم تحجزي يوم كامل!

نظرت أسيل باتجاه بوابة الجامعة كأنها تنظر إلى المستقبل قائلة:

– لأنُه من الناس القَليلين اللي بَستَمتِع في الحَكي معاهُم عَن قضايا مِختِلفِة وبتْحِسي بلذِة في النِقَاش لأنهم بيناقشوا عقلك.

بدأت شيرين بالمشي باتجاه الكافيتريا:

– سلامات يا عقلك..شكله بوظلك دماغك.

لحقت أسيل بخطوات شيرين ضاحكة:

– يعني، إيشي ومِنُه.

تسارعت الفتاتان باتجاه الكافيتريا وهما تضحكان وتحثان الخطى لتجلسا على طاولة مجاورة لشلة شيرين، إذ تعمدت شيرين عدم الجلوس معهم لتبتعد عن أميرة لإدراكها عدم ارتياحها لأسيل، إلا أن خالد قام من مكانه ليجلس بجوار شيرين في حين نظرت إليه

أميرة نظرات الغيرة التي لا تفارقها كلما رأت خالد يقترب من شيرين.

نظر خالد لأسيل:

- إزيك يا أسيل عاملة إيه؟

- الحمد لله تمام، إنتَ كِيفَك خالد؟

نظرت إليه شيرين قائلة:

- بص بقى البت دي هي اللي حتجيب آخِر دكتور أمجد، أنا كنت فاكرة إنه جد أهي جت اللي جد أكتر منه.

ضحكت أسيل:

- أُمال يا بنتي هو إحنا بنلعب، وحياتِك رَح أخد الدكتوراة مع مرتبة الشرف والمخدة كمان.

وتعالت ضحكات أسيل وشيرين وخالد معهما. يزداد فضول باقي أعضاء الشلة، ينضم إليهم محمد ومن بعده أميرة وتلحق بهم مِنّه التي لا تتحرك بدون إذن أميرة.

اقترب محمد منهم قائلاً:

- ما تضحكونا معكم.

نظرت إليه شيرين:

- لا أبدًا أصل أسيل بتعاكسني شوية.

نظر محمد باتجاه أسيل قائلاً بلهجة أقل حدة مما اعتادته منه:

- عاملة أيه؟

ردت أسيل بهدوء:

- الحمد لله، إنت كيفك؟

- كويس الحمد لله.

في تلك اللحظة نظر خالد لمحمد قائلاً:

- ها يا محمد حتعمل إيه في الموضوع اللي كنا بنتكلم فيه من شوية؟

قال محمد محتارًا:

- مش عارف يا خالد أصل مش سهل تجيب أي حد يتكلم بالموضوع ده، لازم يكون حد فاهم ومتابع للأحداث كويس.

قالت شيرين مستفسرة:

- موضوع إيه اللي بتتكلموا عليه؟

رد خالد:

- أصل محمد بدور على حد فلسطيني بمصر علشان يتكلم عن النكبة في الأمسية اللي هو بيحضرلها عن ذكرى النكبة.

فقالت شيرين مستغربة:

- إنتو بتدوروا برة على أساس إن أسيل هندية مثلاً؟ ما أهي أسيل فلسطينية وممكن إنها تتكلم في الأمسية عن النكبة.

بمجرد أن أنهت شيرين كلامها خيم الصمت على أعضاء الشلة حتى قال محمد:

- إنتي عارفة إن ده صعب أوي يا شيرين.

نظرت إليه أسيل مستغربة:

- لِيش يا محمد صعِب؟

قال بصوت منخفض:

- لأنك بتحملي الجنسية الإسرائيلية! وده منبر جامعة القاهرة وكمان هاتتكلمي عن النكبة؟

أجابت أسيل بعد أن ركزت ظهرها للخلف وبصوت هادئ:

- بالعكس يا محمد، عَلَشان هذا السبب بالذات أنا لازِم أطلع على المنصة والكل يِسْمَعني.

شدت كرسيها لتقترب من محمد:

- شوف يا محمد، بمساعَدتَك ممكن أمرِر مِن على منبر جامعة القاهرة كِلمِتْنا إحنا فَلَسْطِينيي ال ٤٨، وأقول إن إحنا كُنا ومازلنا بْنِحمِل الهوية العربية الفَلَسْطِينية على الرَغِم من هويتنا الإسرائيلية اللي إتفَرضَت علينا من قِبَل الدولة الصهيونية.

قال محمد بنوع من الإحراج:

– ماتنسيش إنه مش كل الناس بتفكر كده، في خلال ٦٢ سنة يا أسيل أعتقد إن ماحصلش حاجة زي دي أبدًا!

قالت أسيل بعد أن اعتدلت في جلستها، ناظرة مباشرة لعيني محمد:

– بتِعرَف يا محمد إنه في عام ٤٨ أجدادنا ما تْوَقَعوش إنه رَح يجي يوم اللي نْقِيم ذكرى النكبة ال ٦٢ لأنهم كانوا على يقين إن إسرائيل مِشْ أكتر من مَزْحَة بايخة مزَحها التاريخ مع الشعب الفلسطيني وإنهُم رَح يرجعوا بعد أيام مَعدُودِه، ولهذا السَبَبْ أخدوا مَفَاتيح بيوتهُم، بَسْ زي ما أجدادنا ما تْوَقَعوش إنه إحنا نْقيم الذكرى ال٦٢ للنكبة كمان الدولة الصهيونية في أعظم كَوابيسها ما حِلْمَتِش إنه رَح يكون في شَباب وصبايا فَلَسْطينيين بيقيمو ذِكرى النكبة داخل إسرائيل نَفسها لأنهم تْخَيلوا إنه الفَلَسطينيين اللي بِقيو بَعد الإحتلال رَح يندِمجوا مَع الـمُجتمع الإسرائيلي وينسوا قضيتهم، وهايني أنا قدامك، متذكرة ومِشْ رَح أنسى.

قال محمد:

– بس إنتِ مش كل الفلسطينيين اللي بيحملوا الجنسية الإسرائيلية.

أجابت:

– أكيد أنا مِشْ كُلهُم بَسْ أنا جُزُء مِنْهُم، في إشي يا محمد اسمُه الذاكرة الجماعية اللي مَوجودة في ذِهِن كل الفَلَسْطِينيين.

صمتت للحظة ثم أضافت:

– بْتِعرَف الفِكرِة الصهيونية اللي بتْقول "الكِبار يموتون والصغار ينسون"؟ هاي الفِكرِة ما تْحَقَقَتِشْ والصِغار ما نسيوش واللي صار في ال ٤٨ ظل في الذاكرة الفَلَسطينية.

واستطردت قائلة:

– أعطيني الفُرصَة يا محمد أقول كِلمِتِي عَلَشان يعرفوا إنه حرب ال ٤٨ لِسَه ماخلصَتِشْ.

نظروا إليها جميعًا باستغراب لتكمل:

– آه الحرب ضِدنَا لِسه ماخلصَتِشْ غَيَّرَت سْلاحهَا بَسْ ماغيَّرَتِش أهدافهَا والهَدَف الرئيسي تَطْهير إسرائيل من العرب كأنه إحنا حثالة ولازم يطَهروا الأرض منَّا. سياسة التَهجير والتَمييز العنصري ما بتْخِفِش بالعكس بتزيد يوم بعد يوم ومستمرة من ال ٤٨ لحد هاي اللحظة.

قال محمد بصوت متردد:

– للأسف الشعب المصري معظمة مش يفهم الكلام ده وصعب جدًا إنك تطلعي تقولي الكلام ده لشعب رافض تمامًا التطبيع مع إسرائيل.

هزت أسيل برأسها وهي تقول:

– ولهذا السبب أعطيني الفرصة إني أفهمهُم وبعدين إنتَ اللي قُلتْهَا يا محمد إسرائيل وأنا ما بَمَثِلِشْ إسرائيل ولا بأي شَكِل مِن الأشكال، ومِن جهَه تانيِّة أنا اللي بَعتِب على مَصِر..مَصِر اللي لَحَد هاي اللحَظَة بَعتبرها بلدي الثاني وبَعشَقها هي اللي كل يوم بتِجرَحنا..هي اللي حاصرت أهِلنَا في غزة من الجنوب لحد ما إسرائيل تخَلِص عليهم..هي اللي راحت كامب ديفيد ونزعت إيدها من قضيتنا مقابل الحصول على سيناء اللي أصلاً مَصِر حصلت عليها بدَم ولادها وماكانَتِشْ محتاجة لا مُعاهدات ولا الإعتراف بإسرائيل.

صمتت أسيل لحظة لتستطرد:

– بتْجِب يا محمد إني أتعامل مَع المصريين على إنهم مسؤولين عن كل هاي الأفعال؟ مِشْ اللي عمِلها مصريين برضه؟

أطرق محمد وهو يقول بصوت خافت:

– عمر ما اللي عمل كده كان مصري.

نظرت أسيل لمحمد سائلة:

– المهم إيشْ رأيك؟ بَقْدَر أحكي عن النَكبة؟

صمت محمد قليلاً ونظر إلى اصدقائه ثم قال:

– طبعًا تقدري.

خيم الهدوء لحظة على كل المجموعة فقالت شيرين محاولة تغيير دفة الحوار:

- إيه رايكم يا جماعة أنا عزماكم على عيد ميلادي يوم السبت الساعة ٨ بالليل واللي مش حيجي حيتخصمله يومين دراسة.

ضحكت المجموعة في حين نظرت شيرين لأسيل وأمسكت يدها وضغطت عليها كأنها تهدئها:

- حتيجي صح؟

- آه رَح أجي بَسْ مِش لحالي، مُمكِن أجيب حدا معي؟

اقتربت شيرين من أسيل بخبث هامسة:

- هو حضرة الضابط مش حيفرج عنك ليلتها ولا إيه؟

ضحكت أسيل:

- لا أبدًا بَسْ بَحِب يكون معي، إذا مافِيشْ مانع.

- مانع إيه يا بنتي ده يشرف طبعًا.

ابتعدت أسيل خطوات عنهم وأخرجت هاتفها لتخبر أدهم عن عيد ميلاد شيرين ليكون مستعدًا..ما أن أنهت معه المكالمة توجهت شرين ناحيتها قائلة:

- من السعادة اللي كانت على وشك دلوقتي يبقى أكيد كنتي بتكلميه.

ردت أسيل في خجل:

- آه هو..كُنتْ بَقُوله على حفلة عيد ميلادك.

اقتربت شيرين منها وقالت في خبث:

- مش ناوية تصارحيه بقى بمشاعرك ده إنتو بتقابلوا بعض بقالكم شهرين؟

ردت أسيل بسرعة:

- لا لا مابَقْدَرِش..إيشْ أقول له؟

قالت شيرين ضاحكة:

- والله أنا مش عارفة الراجل ده مستني إيه؟ أقطع دراعي إن مكانش بيحبك أكتر ما بتحبيه بس إنتوا الاتنين شكلكم خيبة أوي.

رفعت شيرين هاتفها قائلة:

- هاتي رقمه علشان أعزمه بنفسي.

أخذت أسيل هاتف شيرين وضغطت رقم أدهم وقالت:

- هذا رقمُه.

اعادت أسيل الهاتف لشيرين لتسجل اسم أدهم على الرقم وبعد أن انهت شيرين كتابة الاسم اضافت:

- يلا تعالي أوصلك.

ردت أسيل مبتسمة:

- لا مَعلِشْ حابة أكون لحالي شويّ، وكمان أنا تْعِبتْ من الحوار اللي كان..بدي أرَيّح راسي شويّ.

***

-الفصل السابع-

انهمك مصطفى بعمله في كافيتيريا الجامعة وإن ظل عقله مشغولاً بما رآه بالأمس، فقد رأى تلك الفتاة تخرج جواز سفرها لصديقتها لتراه وقد استطاع بسهولة أن يميز ذلك الشمعدان اليهودي الشهير على غلافه.

وهذا يعني شيئًا واحدًا...

إن جامعة القاهرة قد أصبحت تقبل طلبة إسرائيليين في داخلها!

لذلك خرج سريعًا من الجامعة ليخبر مروان بهذا.

فمنذ أن ألحقه مروان بالتنظيم وهو يتمنى أن تأتي مثل تلك اللحظة إليه ؛ ليقوم بعمل جهادي يرضى الله عنه ورسوله.

لقد اتصل به مروان من ساعتين ، لينقل إليه تعليمات الدكتور الجديدة بشأن تلك الفتاة وهو يشعر بسعادة غامرة.

شعر باستغراب عندما تذكر الدكتور..هو حتى لا يعرف أن كان لقب دكتور حقيقيًا أو مجرد تسمية فهو لم يقابله في حياته فقط يعرف أن قائدهم الأول في التنظيم ملقب بالدكتور.. لم يره أحد أبدًا إلا مروان، ومروان هو الذي يبلغهم بالتعليمات.

نفض عن رأسه التفكير في الأمر باعتبار أنه لا يعنيه..يجب ألاّ يفكّر إلا في تلك الفرصة التي انتظرها سنوات طويلة والآن جاءت

إليه على طبق من ذهب. منذ أن اعتقلوا أباه وهو صغير بتهمة الانتماء لجماعة التكفير والهجرة وهو يتمنى أن يصبح مثله.

مجاهد في سبيل الله ...

صحيح أن أباه ربما تكون أفكاره قد تغيرت وأخبره قبل موته بأن ما كان يفعله خطأ وقتل للأبرياء..إلا أن مروان أخبره أن أباه كان يقول ذلك فقط ليخرجوه من السجن ليواصل جهاده..ألم يخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الضرورات تبيح المحظورات!

إذن لا يأثم أبوه إن كذب..هو يعلم بالتاكيد أن أباه كذب لهذا السبب. وحتى إن لم يكن يكذب فعشرون سنة في السجن بالتأكيد تكفي لكي يغسلوا له مخه ولكن هذا لن يحدث له أبدًا..كان طفلاً عندما اعتقلوا أباه إلا أن هذا لم يمنعه وقتها من أن يتشرب منه أفكاره التي جعلته يرى العالم بشكل مختلف، وعندما عرف مروان أبلغه بأن والده كان على حق وكل هؤلاء منقسمون ما بين كفرة ومغيبين لا يعلمون أنهم على خطأ. فقط هو وإخوانه ممن يحملون نفس الفكر على الحق.

قد مات والده في السجن قبل أن يخرج لذلك لا يملك إلا كلام مروان ليصدقه..فهو يبدو تقيًا..والأتقياء لا يكذبون.

والآن قد جاءته الفرصة أخيرًا وليس عليه إلا أن يبدأ بشيء واحد..أن يقتل تلك الكافرة الإسرائيلية التي تدعي إنها فلسطينية.

قطع تفكيره عندما لمح أسيل تستعد للخروج من الجامعة فاستأذن سريعًا من عمله..فقد كانت التعليمات اليوم بأن يعرف بيتها جيدًا ويراقبها.

وهذا ما حدث...

***

سارت أسيل بخطى بطيئة وهي مطرقة الرأس كأنها تمشي في مكان خال من البشر مكان لها وحدها ملكها وحدها. لم تسمع بائع الكتب الذي يفترش الأرض وهو يشير لها ببعض الكتب التي أمامه، ولم تنتبه لذلك الشاب الذي يعاكسها محاولاً لفت نظرها..فكرت في الفراغ الذي تفشى بداخلها والذي حملته معها وقطع كل المسافات حتى القاهرة..ذلك الفراغ الذي تشعر الآن إنه يتلاشى كالظلام المتلاشي والذائب أمام النور.

تسير خطوات بطيئة والأفكار تتخبط بداخلها وعقلها مشغولاً بما قالته شيرين لها منذ قليل، نعم حان الوقت أن تعترف..أنها تحب. غياب الحضور وحضور الغياب في المرحلة السابقة يتجلى في هذه اللحظة بلقاء. حضور أدهم بحياتها هو اللقاء الذي شعرت أنها انتظرته عمرًا كاملاً، وكل شئ قبل أدهم لم يكن أي شئ. أدركت بأن حبها الأول كان سرابًا.

داهمتها الأسئلة ولم تكن متأهبة لأي منها. هل هي تعشق من لا يعشقها؟ وإن كان يحمل لها الحب لماذا إذن لم ينر روحها حتى الآن

بمصارحته لها؟ هل طبيعة عمله تمنعه؟ أم شخصيته الجدية بحكم عمله كضابط؟ أم عزة نفسه ؟ أم...

توقفت للحظة ملتفتة وراءها وقد شعرت بظل يتعقب خطواتها لكنها لم تر أحدًا كان كل شئ عاديًا..عادت للسير لكن هذه المرة لم يكن أدهم من خطف تفكيرها بل ذلك الظل الذي تشعر بوجوده خلفها ولا تراه، إحساس قوي بالخطر نما بداخلها فجأة بحكم الغريزة الأنثوية، بدأت تسرع في خطواتها أكثر.. توقفت فجأة وعاودت النظر للخلف كأنها تحاول إمساك ذلك الظل، ولكن أين هو؟ عادت لسيرها بخطى سريعة.

وفجأة التفتت وراءها.

ورأته ...

أكملت سيرها ليست متأكدة مما رأت، ولكنها تذكر فقط تلك العينين اللتين تحملان كل كره الدنيا قبل أن يختفي مرة أخرى من أمامها، بدأت بالركض خائفة إلى أن وصلت باب العمارة ليقف البواب مستغربًا ركضها:

- إنتي كويسه يا بنتي؟

ولكن أسيل لم ترد عليه بل ركضت باتجاه المصعد، ولكنه كان في الطابق العلوي فركضت باتجاه السلم وبدأت بالركض إلى أن وصلت بيتها لتدخله وتقفل الباب وهي مرعوبة.

جلست على أقرب كرسي تكاد يغمى عليها من التعب التقطت هاتفها المحمول واتصلت بأدهم..بمجرد أن سمعت صوته شعرت بارتياح غريب وقالت:

– أدهم أنا أسفِة بَسْ أنا كتير خايفِة..

استغرب أدهم كلام أسيل:

– في حاجة ولا إيه!!؟

استجمعت ما تبقى لها من قوة:

– مِشْ عَارفِة..بَسْ وأنا راجْعَة مِن الجامعَة حسيت إنه في حَد براقبني وماشي ورايّ مِثِل ظِلي، وكُل ما كُنتْ أمشي بسُرعة يمشي هو كمان بسُرعة ولما كُنت بَركُض كان بيُركُض وراي لحَد ما وصِلِت البيت.

شعر أدهم بتوتر مفاجيء فقال:

– ماتخافيش وماتفتحيش الباب لأي حد لحد ما اوصل أنا جاي حالاً.

أقفلت أسيل المكالمة لكنها لم تستطع أن تنهى مشاعر الخوف والتوتر التي انتابتها.

بقيت جالسة مكانها بدون حراك لعدة دقائق..إلا أن استجمعت قواها، ذهبت إلى المطبخ لتشرب الماء بكثرة لكي تهدأ قليلاً..بعد أن

هدأت بعض الشيء توجهت إلى النافذة المطلة على الجامعة لتستنشق الهواء كأنها تريد أن تتأكد أنها قادرة على التنفس بعد الرعب الذي شعرت به..لمحت شخصًا واقفًا على الرصيف المقابل للشارع الذي تسكنه، وحين رآها اختفى خلف إحدى الشجرات متعمدًا الهرب من نظراتها فعاد لها ذلك الشعور بالخوف وبدأت ترتعش كالطفلة الخائفة من الشبح.

عادت أسيل مسرعة إلى نفس الكرسي الذي جلست عليه عند دخولها البيت كأنها تستنجد به..جلست كالجنين في بطن أمه وبدأت دموعها الصامتة في الانهمار خائفة من سماع الجدران انفاسها.

حتى سمعت جرس الباب ...

انكمشت أكثر في مقعدها مرتعبة ولا تدري سبب هذا الخوف من ذلك الظل، وبدأت تتخيله يتسلل من تحت باب بيتها إلى أن سمعت صوت يقول:

- افتحي يا أسيل..أنا أدهم...

هرعت أسيل باتجاه الباب فتحته بسرعة لتجد أدهم واقفًا وعلى وجهه علامات القلق الشديد بمجرد أن رأته ارتمت كالطفلة في حضنه واجهشت بالبكاء..وضع أدهم يده على شعرها الناعم محاولاً تهدئتها وقال:

- ماتقلقيش مفيش حد في الكون يقدر يلمس شعرة منك وأنا جنبك..إحكيلي بس إيه اللي حصل.

أدركت فجأة أنها في حضنه فإبتعدت عنه وهي تشعر بالحرج قائلة:

- آسفِة مَكَنشْ قَصْدِي..إتفَضَل..

دخل أدهم بخطى بطيئة لتغلق أسيل الباب ولكن أدهم قال سريعًا:

- خلي الباب مفتوح.

تركت الباب مفتوحًا وابتسمت ابتسامة خفيفة فأخلاق أدهم العالية كانت دائمًا أحد الاشياء التي تجذبها إليه.

أجلسها أدهم وجلس بجانبها وهو يقول:

- قولي بقى في إيه ومين اللي كان ماشي وراكي.

بدأت بالكلام وهي ترتعش:

- مِشْ عارفِة، بَسْ حَسيت إنه في حَد ماشي وَرَايّ وأنا راجعَة مِن الجامعة وكُل ما كُنت بَسْرِع أكتَر كان هو يسْرِع لَحَد مَا رَكَضِتْ حَسيتُه بيُركُض ورايّ. لما وصِلِتْ البيت وحَكيتَكْ رُحِتْ على الشُباك شُفِت واحد عِينيه بيِتطَلَع على شُباكي ولما شافني هَرَب مِشْ عَارفِة يا أدهم..أنا مَرْعوبة..مِين مُمكِن يكون ماشي وراي وإيشْ بِدُه مِني؟

- قدرتي تشوفي شكله؟ لو وريتك صور مثلاً تقدري تطلعيه من وسطهم؟

- لأ..أنا أصلاً لما كُنت التْفِتْ كان يختفي ولما إتْطَلَعِتْ مِن الشُبَاك اختَفَى.

أمسك أدهم تليفونه وطلب رقمًا وانتظر حتى أجاب وقال:

- إزيك يا عماد بيه أنا الرائد أدهم مصطفى.

- الحمد لله أنا كويس بس طالب منك خدمة كده.

- في المنطقة اللي تبعك في حد يهمني أمره جدًا شاكك في إن حد بيراقبه خاصة إن الحد ده وضعه حساس شوية لأنه من عرب ٤٨.

صمت قليلاً ثم قال بضيق:

- أيوه باسبورها إسرائيلي.

استمع قليلاً إلى محدثه ثم أضاف:

- خلاص مش هاوصيك بقى..متشكرين يا عماد بيه.

أقفل أدهم التليفون ونظر لأسيل وقال لها:

- بصي ده عماد رئيس مباحث المنطقة اللي إنتي تبعها هنا وهو هايقوم باللازم علشان يشوفوا مين اللي كان بيراقبك وليه. بس يا أسيل هاطلب منك طلبات ولازم تنفذيها ماشي؟

قال أدهم تلك الجملة بصرامة أدهشت أسيل فقالت:

- ماشي يا أدهم إيشْ بِدَك إيّاني أعمِل؟

- موبايلك ما يتقفلش ولما اتصل بيكي في أي وقت مهما كان تردي عليا، وإلا هاقلق عليكي. لو حصلك أي حاجة أو أي موقف أو اشتبهتي في أي حد تكلميني فوراً في أي وقت من ال ٢٤ ساعة.

هزت رأسها موافقة:

- حاضِر إتَفَقْنا.

وبدأت تشعر بالارتياح وحتى نبرة صوتها اختلفت، واسترخت بعض الشئ وركزت ظهرها على الكرسي الذي تجلس عليه، نظرت إلى السقف ومن ثم إلى أدهم الذي انتقل توترها إليه وظهر ذلك التوتر في عينيه أمسكت أسيل يده قائلة:

- ماتِقْلَقِش كتير عليّ، عُمُر الشقي بقي.

قالت مبتسمة وهي متجهة نحو المطبخ:

- إيشْ تِشْرَب ساقِع ولا سُخُن؟ ولا أقُولَك خليني أعمِلَك فِنْجان قهوة يِعدِّل مزاجَك اللي عَكَرتِلَك إيّاه.

وأضافت مازحة:

- خليه عيش وقهوة.

ولكن أدهم لم يضحك كأنه لم يسمعها وظلت نظراته عالقة على الكرسي الذي كانت تجلس عليه إلى أن تنبهت أسيل إليه وعادت تجلس بجانبه:

- ماتِقْلَقِش.. خَلَص.

أرادت تغيير الموضوع فقالت مبتسمة:

- إيشْ قُلِت رَح تِيجي مَعِي على عيد ميلاد شيرين يوم السبت؟

أسند أدهم ظهره على الكرسي كأنه ارتاح ونظر إلى أسيل:

- بصي بقى إنتِ كده كده أصلا مش تروحي ولا تيجي من أي مكان من غير ما اكون معاكي أو على الأقل اكون عارف بيه.

قالت باسمه:

- هو إيش اللي كُنت بقوله؟ أنا بدي إيّاك تيجي معي لَسَبَب واحد إني بَحِس بالأمان وإنتَ معي.

نظر إلى عينيها وهو يقول:

- وماحدش هايقدر يمس شعرة واحدة منك طول ما أنا موجود.

قام أدهم من مكانه قائلاً:

- وراكي حاجة دلوقتي؟

قامت أسيل من مكانها متجهة للمطبخ:

- آه وراي فِنجان قَهوِة لازم أعمله لحضرة الضابط.

وقبل دخولها المطبخ نظرت إليه وبدون أن يعلق على كلامها أشار لها بيده أن تقترب..عاودت إلى حيث كانت تقف:

- نعم؟ إيشْ في؟

أمسكها أدهم من يدها وأخذها باتجاه الباب:

- في إنك حتيجي تتغدي معايا أصل ماما عملالنا النهاردة أحلى ملوخية بالأرانب ممكن تاكليها في حياتك.

- هيك بْتُقْبُض عليّ بدون إحم ولا دستور؟ طَب إستنى على الأقل بَسْ أغْسِل وشي وأغَيِّر أواعيّ يا حضرة الضابط.

ابتسم أدهم قائلاً:

- طيب يلا بسرعة..أصل ماما مستنية ومش عايزها تستنى كتير.

قالت أسيل:

- هوا

وانطلقت باتجاه الحمام.

***

تلفت مصطفى حوله في حذر وهو يسير في تلك الحارة حتى وصل إلى باب خشبي دفعه بقدمه بهدوء، وهو يعيد النظر يمينًا ويسارًا ليتأكد من أن أحدًا لا يراقبه، ثم دلف إلى الداخل بسرعة أغلق الباب وراءه وصعد بضع درجات حتى وجد بابًا آخر فطرقه حتى سمع صوتا يقول:

- مين؟

- أنا مصطفى يا أخ مروان.

فتح مروان الباب فدلف مصطفى سريعًا إلى الداخل وهو يلقي نظرة على الموجودين قائلاً:

- السلام عليكم.

نظر مروان بحذر ليتأكد من عدم وجود أحد وراءه ثم أغلق الباب وقال:

- عليكم السلام ورَحمة الله وبركاته، ها عملت إيه؟

سأله مروان بحذر.

قال مصطفى:

- عرفت بيتها مش بعيد عن الجامعة كتير، تقريبًا عشر دقائق مشي.

مروان:

- والمنطقة؟

- منطقة هادية والبواب عجوز مفيش منه خوف بس خدت بالي من حاجة مهمة.

سأل مروان مستفسرًا:

- إيه هي؟

قال مصطفى:

- واضح إنها حست بإني براقبها فخافت وجرت على البيت بسرعة.

قال مروان:

- إوعى تكون شافتك؟

مصطفى:

- لا لا ماتخافش بس هي طلعت البيت بسرعة وهي مرعوبة وبعد شوية لقيت عربية وصلت لوحتها سودة وعليها علامة نسر.

مروان:

- إيه ده بلغت البوليس بسرعة كده؟

مصطفى:

- ماظنش إنها بلغت البوليس لأن صاحب العربية نزل بسرعة وطلع على البيت على طول الظاهر إنه يعرفها كويس وكان واضح عليه إنه قلقان.

فكر مروان قليلاً وقال:

- خطتنا لازم تكون دقيقة جدًا خاصة وإنه واضح إن ليها صديق من الأمن وأكيد زمانه مراقبها دلوقتي علشان يعرف مين اللي كان ماشي وراها. وأنا هابلغ الدكتور بموضوع صديقها ده وهو هايقدر يعرف هو مين.

- أخ مروان..

تكلم مصطفى وهو يتقرب من مروان بهدوء وأضاف:

- أنا عاوز العملية دي..إنت عارف أد إيه أنا مستنى اللحظة دي..إديني أي حزام ناسف وسيب الباقي عليا..نفسي أموت شهيد وأحقق اللي أبويا ماعرفش يحققه.

قال مروان:

- ماتخليش عواطفك تحركك يا مصطفى لازم نستغل العملية دي استغلال كويس..مش هانقتلها بالطريقة السهلة دي..هانخطفها الأول علشان نخلي العالم كله يتفرج عليها واحنا بنذبحها زي النعاج علشان يعرفوا مصير كل خنزير منهم يجي مصر هايبقى إيه. وقتها يا أخ مصطفى أنا هاكلملك الدكتور علشان يخليك تذبحها بايدك.

برقت عينى مصطفى في حماس وقد بدأ يحلم بتلك اللحظة، اللحظة التي ستسيل فيها دماء أسيل على يديه.

***

كادت والدة أدهم تطير من السعادة عندما أخبرها أنه سيدعو تلك الفتاة الفلسطينية التي حدثها عنها.

فقد أحيا هذا الأمل بداخلها في رؤية أبناء أدهم قبل أن تموت لربما تكون هي العروس المستقبلية.

لذلك كانت منهمكة بشدة في إعداد الطعام، وترتيب المترل لتشرف إبنها أمام تلك الفتاة التي ترجو أن تكون مناسبة.

سمعت باب الشقة يفتح وأدهم ينادي عليها:

- أنا جيت يا أُمي.

خرجت من المطبخ وهي تمسح يدها في المريلة التي ترتديها لترى أسيل مبتسمة قائلة:

- مساء الخير خَالتو.

توجهت والدة أدهم باتجاه أسيل وشدتها لحضنها وهي تقبلها قائلة:

- إزيك يا بنتي؟ ما شاء الله إنتي فعلا زي القمر زي ما أدهم دايمًا بيقول.

أشارت إلى الصالون هي تقول:

- اتفضلي يا بنتي حالاً الأكل هايكون جاهز.

ردت عليها أسيل:

- يعطيكي الف عافية.

- يعافي قلبك يا رب.

- بتحبي أساعدِك؟

- لا يا بنتي أنا خلصت ثواني والأكل يكون جاهز على السفرة.

دخلت أسيل إلى الصالون حيث كان أدهم يوضب الورود التي أتت بها واضعًا إياها في مزهرية بوسط طاولة السفرة.

وقفت بجانبه دون أن تقول شيئًا، نظر إليها أدهم مستغربًا:

- في حاجة؟

قالت بصوت هادئ:

- لا ما فِش إيشي.

قال لها أدهم بقلق:

- طيب مالِك؟

- عن جَد مَا فِش إيشي بَسْ إشتَقِتْ لعيلتي ولما دَخَلِتْ بِيتكُم حسيت بجَو العيلة.

كانت أم أدهم قد وصلت مائدة السفرة حاملة الأطباق التي وضعتها بدورها على المائدة وهي تقول:

- ولا يهمك يا بنتي اعتبرينا عيلتك هنا في مصر لحد ما ترجعيلهم بألف سلامة.

- الله ما يحرمني مِنكُم.

قالت أم أدهم:

- يلا يا ولاد تعالو اتغدوا قبل ما الأكل يبرد.

تنبهت أم أدهم أن أسيل لم تبدأ بالأكل فقالت:

- إيه يا بنتي مابتكليش ليه؟ إنتي مكسوفة مني ولا إيه؟

- لا أبدًا بَسْ ريحِة الأكل كتير حلوة مِشْ عارفِة بإيش أبَلِش.

- ربنا يجبر بخاطرك يا بنتي..هاتي طبقك خليني أحُطِلِك أنا.

ناولت أسيل أم أدهم صحنها وسكبت لها الملوخية والرز وبعد أن أنهت وضعت الصحن أمام أسيل قائلة:

- بصي كلي كل الطبق ده ولما تخلصيه حملاهولك.

بدأت أسيل بأكل الملوخية وأحبت طعمها جدًا، نظرت لأم أدهم قائلة:

- يسلَموا إيديكي..أكلِك كتير طيب.

قالت أم أدهم:

- الطيبون للطيبات.

ونظرت لأدهم نظرة تحمل الكثير من المعاني مما أخجلت أسيل في حين ابتسم أدهم لوالدته وهو يغمز بعينه.

بعد انتهائهم من الغداء جلست أسيل برفقة أدهم ووالدته، سألت أم أدهم:

- إنتي منين يا بنتي؟

- من فَلَسطين.

- ربنا يسترها معاكم وينصركم على الظلمة.

- اللهم آمين.

- إنتي منين من فلسطين.

- أنا ساكنة مع أهلي في حيفا بَسْ أبوي أصلُه مِن قريّة اسمها البروة وإمي أصِلها من يافا.

لاحظت أسيل أن والدة أدهم لم تعلق على كلامها وعلى كونها من حيفا فأدركت إن تلك المرأة الطيبة لا تعرف أن حيفا تقع بداخل الأرض المحتلة، داخل حدود إسرائيل.

تنهدت أم أدهم وقالت:

- استحملوا يا بنتي واصبروا معلشي حسبي الله ونعم الوكيل في الإسرائيلين كلهم دول يا بنتي مايعرفوش ربنا ولا بيخافوا منه ولاد كلب ملهومش كبير.

تنهدت كأنها تذكرت شيئًا مؤلما إذ قامت من مكانها متجهة للمطبخ موجهه كلامها لأسيل:

- تحبي تشربي إيه يا بنتي؟

قال أدهم مازحًا:

- هو في إيه؟ أنا مش موجود مثلاً علشان تسأليني إذا كنت عايز أشرب حاجة؟

قالت والدته ضاحكة:

- اللي حتقول عليه أسيل حتشربه غصب عنك.

جملة أم أدهم زادت من خجل أسيل ودفعتها لتقول:

- اللي رَح يِطْلَع من بين إيديكي أكيد بِدُه يكون أحلى من السكر.

نظرت أم أدهم له قائلة:

- سامع الناس اللي بتفهم؟

أمضت أسيل اليوم بأكمله مع أدهم ووالدته يتبادلون أطراف الحديث والنكات الفلسطينية عن الفلسطينيين الذين يقطنون منطقة الخليل "الخلايلية" والتي تشابه نوعًا ما النكات على من يقطنون منطقة الصعيد المصري "الصعايدة" حتى المساء إلى أن نظرت أسيل إلى ساعة يدها ومن بعدها نحو أدهم الذي قام بدوره من مكانه ليقول ضاحكًا:

- خلاص فهمت ميعاد نومك جه، صح؟

ابتسمت بخجل وأشاحت بنظرها نحو أم أدهم قائلة:

- مَعلِشْ سَامحيني خالتو أنا إتاخرِتْ ولازم أرَوِّح عَلَشان بنام بدري.

اقتربت أم أدهم منها واحتضنتها قائلة:

- خلي بالِك من نفسك.

وقبل أن تبتعد اقتربت مرة ثانية قبلتها وهي تهمس في أذنها:

- ومن أدهم.

ابتعدت أسيل ببطء وقد إحمر وجهها خجلاً مما قالته أم أدهم ونظرت كلتاهما باتجاه أدهم الذي لم يفهم ماذا يحصل أمامه ونظر لوالدته غامزًا:

- هو إيه النظام يا حاجة؟

أجابت والدته:

- وإنت مالك يا ولد دي حاجات بيني وبين بنتي أسيل.

فقال ساخرًا:

- يا سلام أطلع منها أنا بقى؟ ماشي يلا بينا قبل ما أم أدهم تتبرى مني.

خرج ومعه أسيل متجهان لبيتها وفي الطريق صمتت أسيل معظم الوقت، تنبه أدهم لصمتها ليقول:

- إنتي كويسه؟

نظرت إليه أسيل مستغربة:

- ليشْ بتِسأل؟ في إيشي؟

- لا ولا حاجة بس شفتك ساكتة افتكرت إن في حاجة مضايقاكي.

ابتسمت قائلة:

- بالعَكس أنا كتير مَبْسُوطة لَدَرَجة مِشْ عارفِة أحكي.

- بجد مبسوطة؟

- آه والله العظيم يعني أقضي يوم مَعك ومَع إم أدهم وما بِديش أكون مبسوطة؟

لم يعلق أدهم إلا أنه حاور صمتها بصمت حتى وصلا بيتها وعند وصولهما ترجل مسرعًا من سيارته، ليفتح لها الباب كعادته منحنيًا بطريقة تمثيلية:

- تفضلي فاتنتي.

قالت أسيل ضاحكة وهي تخرج من السيارة:

- شكرًا كتير على التوصيلِة.

- عفوًا يا افندم، أي خدمة؟

نظرت إليه بتردد قائلة:

- خِدمِة أخيرة ولو سَمَحتِ.

قال أدهم بعد أن أغلق أبواب السيارة وبدأ بالسير باتجاه العمارة:

- إيه؟

- مُمكِن تْوَصِلني لَفُوق لأني لِسَه خايفة شويّ؟

- طب إمشي قدامي أنا أصلا مستحيل أسيبك تطلعي لوحدك في الساعة دي، يلا قدامي.

دخلا العمارة وكان البواب نائمًا على كرسيه ولم يشعر بدخولهما. صعدا بالمصعد حتى وصلا ولم يطمئن أدهم حتى فتحت أسيل باب بيتها فقال:

- يلا خشي نامي واقفلي باب الشقة كويس أوي ومتفتحيش لحد قبل ما تتأكدي من شخصيته.

رفعت يدها مقلدة الشاويش قائلة:

- تمام يا فندم.

ابتسم أدهم قائلاً:

- تصبحي على خير وخلي بالك من نفسك.

- وإنتَ مِن أهل الخير..ما تِنْسَاش بعد بُكرا عيد ميلاد شيرين صَاحِبْتِي ما بديش أروح لحالي.

- ليه هو مين ده اللي حيخليكي تروحي لوحدك؟

***

وصل أدهم إلى بيت أسيل الساعة السابعة والنصف ليذهبا معًا لعيد ميلاد شيرين لكي لا يتسبب في تأخيرها عن ميعاد نومها وهو يعلم أنها تحب النوم باكرًا.

أوقف سيارته أسفل العمارة، وتوجه نحو بيت أسيل لياخذها من الباب كما عودها. قرع الجرس وانتظر أن تفتح الباب ولكنها لم تفتح بسرعة كعادتها بل سمعها تقول من الداخل:

- لحظة أدهم.

انتظر لدقائق معدودة لتفتح الباب وهي بكامل أناقتها وأجمل ما كانت ترتديه تلك الابتسامة الساحرة التي يعشق أدهم النظر إليها وبمجرد أن وقع نظره عليها لم يستطع لفظ أنفاسه للحظة..إذ كانت واضعة بعض المكياج الخفيف الذي لم يشعر بوجوده لكنه أضفى لمسة جمال رقيقة، وقد أبهره ذلك الفستان الأسود الطويل الذي أبرز ذراعيها وبياض بشرتها ولون عينيها الأسود..أما شعرها البني الغامق المنسدل على كتفيها بدلال فقد توّج أناقتها..كانت تقف أمامه امرأة بكامل أُنوثتها، ولكن طفولتها الداخلية طغت بعض الشئ على أُنوثة المرأة فيها.

وقف أدهم مندهشًا من حضورها الناعم أمامه ولم يوقظه من إنبهاره إلا صوت أسيل وهي تقول:

- تمام يا افندم أنا تحت أمرك.

أغلق أدهم عينيه للحظة ليعيد توازنه وقال مازحًا:

- افندم إيه بس؟ أنا اللي تحت أمر حضرتك النهاردة.

ضحكت أسيل، وسارت أمامه نحو المصعد، قائلة:

- طَيِّبْ تَعال يا أُسطى إفتَح لي الباب.

لم يتمالك أدهم نفسه من الضحك حين قالت أسيل "اسطى" فقال:

- هي وصلت لحد كده؟ ماهو أنا اللي جبت ده لنفسي.

نظرت إليه مستفسرة:

- بَسْ عَلَشان أفهم هو في أي اعتراض؟

- اعتراض إيه يا آنسة؟ يلا بينا أحسن ما ترقيني لسفرجي الهانم.

فتح لها أدهم باب المصعد، وعند وصولهما السيارة أسرع في خطاه ليتخطى أسيل ويفتح لها الباب بحركة تمثيلية:

- اتفضلي يا هانم.

جلست كالأميرة في السيارة وانتظرت حتى يجلس أدهم بجانبها، نظرت اتجاهه محاولة البحث في ملامحه عن شئ تقوله يعبر عن مدى سعادتها في تلك اللحظة لحضوره في حياتها،كأنه البرد الدافئ الذي تعشقه، كأنه تشرين مُبَعثِرًا أمطاره النقيه بشوق ليروي روحها العطشى من نقاء قلبه، أسندت ظهرها على المقعد وقالت بخجل:

- بْتِعْرَف؟ صعِبْ إنَّك تلاقي إنسان تِرتَاح لُه على مدى حياتَك كُلْهَا، وأنا بَعتبر حالي مَحظوظة إني بمُجَرَد وصولي لَلقاهرة تكون إنتَ باستقبالي بدون ما تِعرَف الزمان ولا المكان.

ارتبك أدهم وحاول أن يرد..إلا أنه لم يجد ما يقوله فأمسك يدها وضغط عليها بشدة وانطلق بالسيارة باتجاه فيلا والد شيرين.

***

فيلا كبيرة جدًا وحوض السباحة يتوسط الحديقة مع بعض الكراسي المصنوعة من القش على جانبيه لتتماشى مع ديكور الحديقة، أما أشجار السرو هرمية الشكل موزعة بأناقة وكأنها من المدعوين للحفل لتشارك شيرين عيد ميلادها.

طاولة طويلة وضعت على حافة المسبح وعليها كل ما لذ وطاب من أطعمة وحلويات إذ حرصت شيرين أن تحضر تلك الحلويات من مكان محدد يقع في وسط البلد لحبها لهذه النوعية البلجيكية من الشوكولاته والحلويات.

أما تلك الموسيقى التي تمتزج بفضاء المكان كأنها لحنت خصيصًا لتلك المناسبة فكانت الأنغام تنبعث من السماعات الموزعة بشكل مدروس في الحديقة، ومما زاد من جمال السهرة هؤلاء الشباب والبنات أصدقاء شيرين الذين تفرقوا في أرجاء حديقة الفيلا..منهم من يتراقص على أنغام الموسيقى وآخرون يشربون العصير..في حين

تتنقل شيرين بينهم كالفراشة تنثر المرح وتتبادل الابتسامات والضحكات. ارتدت شيرين ليلتها أجمل فساتينها..فستان أزرق فاتح من الشيفون يغطي ذراعيها بأناقة..طويل يتناسب مع حجابها ويتطاير كلما تحركت ملائمًا نفسة مع حركاتها الناعمة الأنيقة.

وقف الدكتور أمجد بوقار بجانب والد شيرين يتبادلان أحاديث السياسة وأحوال البلد.

قطعت شرين حديثهما ضاحكة:

- إحم إحم، بس لمعلوماتك يا أعظم محامي بمصر ومعلومات حضرتك يا أعظم دكتور في الأدب العربي في مصر، إن النهاردة عيد ميلادي وممنوع الكلام في الأمور الجدية والنكدية.

ضحك الاثنان بصوت عال وقال والد شيرين:

- إنتي عايزانا نتكلم في إيه يا بنت؟ ولا عايزانا نيجي نتنطط زي أصحابك المجانين دول.

قالت شيرين وهي تبتعد عنهما:

- هو إنتو تطولوا أصلاً بس إنتو اللي عاملين مكسوفين خليني أروح أتجنن أحسن ما تعقلوني يوم عيد ميلادي واتفضح.

ضحك الرجلان وأكملا حديثهما بعد أن ابتعدت عنهما بعض الشئ ليسمعها دكتور أمجد وهي تنادي من بعيد.

- أسيييييل تعالي أنا هنا.

التفت دكتور أمجد حيث صوت شيرين وانعقد حاجبيه بضيق حينما وقع نظره على أسيل وهي بصحبة أدهم متعلقة بذراعه كالطفلة الصغيرة وكأنها خائفة أن يضيع منها إن تركته.

سلمت شرين على أسيل وعلى أدهم وصحبتهما مباشرة باتجاه والدها إلا أن أسيل استوقفتها للحظة قائلة:

- إيشْ يا بنتي ما بِدْكِيشْ توخْدِي هِدِيتِك؟

- هو إنتي جبتي حاجة، وأنا قلت مش عايزة؟ ما هي إيديك فاضية أهي.

فتحت أسيل حقيبة يدها وأخرجت علبة صغيرة حمراء مخملية:

- إيه ده يا بنتي أنا بهزر معاكي بجد مش عايزة منك أي هدية، هديتي إنك جيتي وجبتي معاكي أدهم تعرفيني عليه.

بدا على وجه أسيل وكأنها تذكرت شيئًا ما وهي تقول:

- هو كمان ما كَنِشْ رَح يسْمَح لي أجي الحالي.

همست شرين في أُذن أسيل:

- في حاجة حصلت؟

حكت أسيل لشيرين باقتضاب عن ذلك الظل الذي شعرت به يراقبها.

قالت شيرين في قلق حقيقي:

- مش ممكن يكون مجرد واحد بيعاكسك بس؟

أحست أسيل بأن الوقت غير مناسب لطرَح هذا الموضوع فقالت باسمة:

- الموضوع انتَهى وأدهم مَعاي ما تِقْلَقيش..وبعدين مابدْكِيش تشوفي هديتِك؟

فتحت العلبة المخملية وهي تقدمها لشيرين وأضافت:

- هاي إشْتَريتْها بآخر زيارَة إلي للقدس وماكُنْتِش عارفِة مين صاحب النَصيب فيها..بَسْ كُنتْ مِتْأكدِة إنها رَح تكون مِن نَصيب حَد بيستْاهَلهَا.

نظرت شيرين للعلبة الصغيرة لتجد عقدًا من الذهب الأبيض، مع مجسم صغير للمسجد الأقصى مصنوع بحرفية وأناقة فقالت في انبهار:

- إيه ده يا أسيل دي حلوة أوي.

عانقتها بحنان، ووضعت العقد في عنقها وجرّت أسيل من يدها قائلة:

- تعالي عايزة أعرفك على بابا.

في حين نظرت أسيل باتجاه أدهم مبتسمة ابتسامة تدعوه فيها ألا يبتعد عنها. تتبع أدهم بدوره خطوات أسيل وشيرين إلى أن وصلوا جميعًا إلى حيث يقف والد شيرين والدكتور أمجد.

- بابا .. بابا .. عايزة أعرفك على صاحبتي أسيل .. أنا كلمتك عنها قبل كده.

ضحك والد شيرين قائلاً:

- هو إنتي عندك سيرة غير أسيل.

خاطب أسيل ضاحكًا:

- أهلا يا بنتي إزيك؟ أصل شيرين بتحبك أوي.

ردت أسيل بخجل:

- اتشَرَفِت بمَعرِفتَك عمو وشيرين إلها معزة خاصة بقلبي.

ونظرت باتجاه دكتور أمجد قائلة:

- مساء الخير دكتور أمجد..كيف الحال؟

- الحمد لله، إزيك إنتي يا أسيل؟

ثم التفت نحو أدهم:

- إزيك، أنا دكتور أمجد.

سلم عليه أدهم وهو يتفحصه بغيرة واضحة..إنه وسيم فعلاً كما وصفته أسيل..مدّ يده قائلاً:

- مساء الخير دكتور أمجد..أسيل كلمتني عنك كتير..أنا أدهم صديق أسيل.

قاطعته أسيل وهي تضيف:

- الضابط أدهم.

سلم عليه أمجد مبتسمًا:

- تشرفنا يا حضرة الضابط.

بعد أن سلم أدهم اندمج الثلاثة في حديث تخلله نكات عن الأمن والشرطة..كان الثلاثة يضحكون بصوت عال.

أخذت شيرين أسيل من يدها قائلة:

- تعالي اعرفك على ماما.

عند اقترابهما حيث تجلس والدهما بادرت شيرين في التعارف:

- أسيل دي ماما، ماما دي أسيل.

اقتربت أسيل بدون تكلّف لتقبّل والدة شيرين:

- مرَحبا خالتو كِيف حالِك؟

- الحمد لله إزيك إنتي يا بنتي؟

- الحمد لله تمام مبسوطة بوجودي بينكم.

قالت شيرين:

- بعد إذنك يا ماما حاخد أسيل بقى نروح نشرب حاجة.

قالت أسيل مستأذنة:

- بعد إذنك خالتو.

عند البوفيه كان أدهم واقفًا يبحث بقلبه وعينيه عن أسيل بعد أن أنهى حديثه مع الرجلين حتى جائت شيرين بصحبة أسيل إليه..واستأذنت منهما لتذهب للقيام بواجب الضيافة مع باقي الضيوف..بعد أن كانت قد أهملتهم عند قدوم أسيل.

انتبه أدهم أن الوقت قد تأخر بعض الشئ فقال:

- يلا علشان تلحقي تنامي.

نظرت إليه أسيل وهي ترتشف عصير الفواكه الذي قدمته إليها شيرين، ورفعت كتفها بحركة طفولية قائلة بعد أن وضعت كأس العصير على الطاولة:

- بِديش أنام.

نظر إليها أدهم:

- يعني إيه بديش دي؟ يلا قدامي أحسن ما أشيلك قدام كل زمايلك ويكون منظرك مسخرة.

وأمسك يدها ووضع فيها حقيبة يدها الصغيرة قائلاً:

- قداااامي.

لم تعترض أسيل، نظرت نحو شيرين مودعة ومرسلة لها قبلة من بعيد رافعة يدها بحركة تعني أنها ستتصل بها لاحقا، وأعادت شيرين نفس الحركة كأنهما الوحيدتان اللتان تفهمان تلك اللغة.

في السيارة ساد الصمت، وتبادلت قلوبهما كلام الحب الوليد. كان أدهم يسترق النظر إلى أسيل بين الفينة والفينة، وابتسامة رقيقة تزين ثغرها..أغمضت عينيها وأسندت رأسها إلى الخلف هامسة:

- يااااه يا أدهم من زمان ما انبَسَطِش هيك..الحَفلِة كانَتْ كْتِير حِلوِة..شيرين وأهلِها بيجَننوا..كُل إشي كان كامل بالحفلة.

أطرقت في خجل وهي تضيف بصوت خافت:

- مَرات بيخونَك التعبير في وَصِف مَشَاعرَك بَسْ اللي أنا حَسَاه هاي اللَحظَة صعِب إني أترجِمُه لأحرف وكلمات.

أوقف أدهم السيارة، فنظرت إليه أسيل وهي تقول:

- في إيشي أدهم؟

صمت أدهم لثوان ثم قال لها:

- ممكن تيجي معايا مكان؟

ردت باستغراب:

- لَوين؟

- حتعرفي لما نوصل.

- أدهم ؟ إيشْ فيه؟

- عاوز اكلمك بموضوع مهم، ومهم جدًا.

فاجئها بدعوته:

- أدهم، بَحكي جَد إيشْ مالَك؟

ولكن أدهم لم يجب على سؤالها فقط ابتسم بهدوء وأدار مقود السيارة إلى ناحية اليسار حيث شعرت أسيل بعد فترة أن السيارة تصعد إلى مرتفع كأنهما يتسلقان جبلاً.

قالت مازحة:

- شِكْلَك ناوي تُخطُفني بجد.

ابتسم أدهم وهو يقول:

- عندي حاجة عاوز أقولهالك بس لما نوصل.

- وين نُوصَل؟ قول اللي بِدَك إيّاه عادي.

- لأ لازم مصر كلّها تشهد على الكلام ده.

حاولت تعريف وترجمة تصرفاته إلا أنها أخفقت فنظرت عبر النافذة وهي تحاول رؤية أعلى الجبل الذي يصعدان إليه وقالت ضاحكة:

- ليشْ؟ هي مَصِر كُلهَا ساكِنة فوق.!؟

***

نظر مروان إلى هاتفه وما إن رأى اسم المتصل حتى أشار بيده للمحيطين به ليصمتوا وأجاب:

- السلام عليكم يا دكتور.

ما أن سمع المحيطون به كلمة الدكتور حتى أنصتوا باهتمام وظهر على وجه مصطفى التحفز الشديد..بدأ يراقب تعابير وجه مروان وهو يستمع لحدثه ثم قال:

- تمام يا دكتور هابلغك بالتطورات أول بأول.

وضع هاتفه على الطاولة، نظر إلى المحيطين به قائلاً:

- حصلت بعض الأمور وأصبحت العملية مستعجلة، وبإذن الله عملية الفتاة الإسرائيلية هاتتم خلال يوم واحد.

نظر إليه مصطفى بلهفة وقد برقت عيناه قبل أن يقول:

- أنا معاكم مش كده يا أخ مروان؟

ابتسم مروان وهو يربت على كتفه:

- طبعًا يا أخ مصطفى يا ريت كل الإخوة يبقوا زيك كده مؤمنين باللي إحنا بنعمله.

ثم أشار إلى ثلاث رجال آخرين وقال:

- إنتم معانا برضه قرّبوا مني علشان هاقولكم تفاصيل العملية.

وبدأ يتكلم وهم ينصتون باهتمام شديد فقد كانت الخطة هذه المرة جديدة تمامًا و...

وقاتلة ..

***

تعدّدت الآراء حول تسمية جبل المقطم بهذا الاسم. إذ يقال إنه سميّ بالمقطم لأن أطرافه منقطعة أي مقطمة..فالقطم هو القطع..ولا يعرف الكثيرون أن هذا هو المكان الذي دفن فيه الصحابي الجليل عمرو بن العاص، حتى أدهم لم يكن يعرف هذا وهو يصعد إليه بالسيارة، وبجواره أسيل تحاول معرفة إلى أين هما ذاهبان.

اقترب أدهم بسيارته من حافة جبل المقطم في منطقة وعرة قليلاً حتى توقّف ومقدمة سيارته تجاه الحافة وقال لأسيل:

- إنزلي يلا.

- وين أنْزِل؟ إحنا في الصحرا.

ابتسمت وهي تضيف:

- على هالموال شِكلَك رَح تُخطُفني عن جَد.

قالت ذلك وهي تفتح الباب وتنزل من السيارة، وما إن رفعت عينيها حتى قالت:

- اللهم صلي على سيدنا محمد.

وظلت متسمرة تنظر أمامها حاولت أن تقول شيئًا إلا أن الأحرف تكسرت على شفتيها. جالت بنظرها منبهرة بمشهد لم تره من قبل. كأنها تنظر إلى قطعة قماش من الحرير الأسود مبعثرة عليها حبات اللؤلؤ والألماس ينبعث منها ضوء ساحر يخطف الأنظار.

تقدمت عدة خطوات باتجاه حافة الجبل، وبدأت تتكلم بصوت هادئ كأنها تخشى أن توقظ ذلك الجمال من سباته العميق:

- مَرات لما بتكون بِحَضرة الجمال بتحِس إنَّك أسير له هو الحاكم ومَفِيشْ قُدامك غِير الطاعة، وكأن حواسنا بِتِتْبَعثر وإنتَ مِشْ قَادِر حتى إنّك تسيطر عليها.

صمتت للحظة لتتأكد أن أدهم يسمع ما تقول، نظرت خلفها لتتقابل عيناها مباشرة بعينيه، سمحت لنفسها أن تطيل النظر إلى هاتين العينين التي احتارت كثيرًا في تحديد لونهما ولكن الآن هي لا ترى اللون فحسب بل تتلمسه وتتذوقه، فلا أجمل من عينيه العسلية التي تمنت كثيرًا الإبحار فيهما، لتكون مرساها بعد الرَحيل من غربة ذاتها إلى غربة أوسع وأشمل. كم تمنت أن تكون هاتان العينان وطنًا. وطن يحتضنها بكل تناقضاتها..حاولت استعادة توازنها..فهي بالرغم مما تقوله عيناه لا تدري ما تخفي أضلعه من مشاعر.

أكملت أسيل ما بدأت من كلام حتى لا يفضحها سكوتها وتهمس عيناها بما تحبس ضلوعها:

- كُنتْ بَتْمَنى في هاي الّلحظة إني أكون شاعرة عَلَشان أكتِب أحلى قَصَيدة لإم الدِنيا يا الله ما أجمل مَصِر ..

يْتِعرَف يا أدهم ؟

استدارت لتكمل حديثها، اقترب أدهم هامسًا في أذنها وأنفاسه تطير شعرها بنعومة من على خدها:

- بحبك.

تراجعت إلى الوراء مرتبكة، كادت تتعثر بحجارة الجبل، إلا أن أدهم التقطها بكلتا يديه ورفع وجهها باتجاهه..كانت تحاول حجب وجهها عنه..رأى الدموع العالقة بين جفونها..دموعًا زادت من جمال عينيها:

- والله والعظيم بحبك يا أسيل.

حاولت أن تقول شيئًا، لكنها عجزت عن التعبير. فرحتها ببوح أدهم كانت كبيرة لدرجة أنها عجزت عن الكلام وترجمة ما بداخلها..سادت لحظات صمت ونظراتهما عالقة بعيني الآخر.

ابتعدت عنه بلطف، وأشاحت بنظرها بعيدًا عنه كأنها تستنجد بالأضواء كالفراشة الهاربة ولا تعرف أنه هلاكها:

- لأ أدهم ما بينْفَعِشْ.

لم يتوقع أدهم جواب أسيل إذ كان متأكدًا من حبها بنفس درجة حبه لها، عاد خطوتين للوراء قائلاً:

- أنا آسف مكنش قصدي أضايقك، يلا تعالي أوصلك.

أمسكت أسيل بكف أدهم:

- إستنى ماتِفْهَمنيش غَلَط.

توقف أدهم محاولاً تجنب النظر إليها قائلاً:

- خلاص مش مشكلة أنا مش زعلان منك تعالي أوصلك علشان تلحقي تنامي.

أراد أن يترك يدها ولكنها أحكمت إمساكها أكثر وقالت:

- على عِلمي إنَّك ذَكي وبتِفْهَمهَا على الطاير يا حضرة الضابط.

نظر إليها أدهم:

- مش فاهم عايزة تقولي إيه، في إيه لازم يتفهم غير اللي إنتي قلتيه؟ وبعدين أنا شكلي كنت حاسس غلط أنا آسف...

وضعت أسيل يدها على فمه لتسكته، واقتربت منه حتى أحسّ بقلبها يخفق بصوتٍ عالٍ، ورائحة عطرها سيطرت على حواسه، تعمّدت النظر إلى عينيه حتى يتسنى له هو الآخر قراءة ما تحمله في وجدانها من حب، أمسك أدهم يدها وأنزلها عن شفتيه محاولاً الكلام إلا أنها قالت بصوت هادئ:

- والله العظيم أنا كمان بحبك ...

ابتعدت عنه مستنجدة بالأضواء قائلة:

- ويمكن أكتَر ما إنتَ بتْحِبني..بَسْ أنا عَارفِة إيشْ مَعناه هذا الحب..! وإنتَ شِكلَك نَاسي أنا من وين وإيشْ باسبوري. ولا إنتَ ناسي كمان إنتَ إيشْ بْتِشْتغِل؟

تجاهل كل ما قالت كأنه لم يسمعه وبتلقائية وجد نفسه يحتضنها بقوة غير مصدق ما قالت..ثم أبعدها عن صدره للحظة ناظرًا في عينيها وأمسك يدها وقبّلها قبل أن يقول في فرَحة الطفل:

- أسيل إنتِ بتحبيني؟ بتحبيني؟

هزت رأسها بالموافقة فابتعد عنها قليلاً وصرخ عاليًا:

- بحبك والله العظيم بحبك.

سمعت أسيل صدى صوت أدهم يردد كلمة بحبك في كل أرجاء المكان، كأن مصر كلها شاهدة على تلك اللحظة، وقفت محاولة تلمّس مشاعرها، تلمّس حبها لتتأكد من أنها تتكون من جديد تنبعث من جديد.

يُعيدها إلى رشدها صوت أدهم:

- متفكريش..قولي وأنا كمان وبس.

أومأت برأسها للأمام وهي تردد:

- وأنا كمان.

قال أدهم كأنه يحاور طفلة:

- وإنتي كمان إيه؟

ابتسمت والدموع تتراقص على أهدابها:

- بحبك.

كانت دموع الفرَح قد وجدت طريقها لخديها متلألئة مثل تلك الأنوار التي تزين ذلك الظلام الدامس قالت بلهفة الطفلة التي تسيطر عليها أحيانًا:

- يخرب بيتك يا أدهم...بحبك...!

***

توقفت السيارة أمام بيت أسيل وترجل أدهم منها سريعًا ليفتح لها الباب وهو ينحني انحناءة خفيفة مبتسمًا وقائلاً:

- إتفضلي.

ابتسمت في خجل وهي تترجل من السيارة قائلة:

- تصبح على خير يا حضرة الضابط.

- ضابط إيه بس دلوقتي..أنا خادمك يا مولاتي.

ابتسمت ثم نظرت في عينيه وهي همس:

- كُنت بَتمنى إنه الليلِة تِمتَد للأبَد..بَسْ إيشْ نعمِل ما باليد حِيلة، ما بْنِقْدَرِش نِتحَايل على الوقت.

أمسك بكفيها وضغط عليهما كأنه خائف أن تضيع منه بعد أن وجدها وقال:

- الأكيد إن اللي ابتدا الليلة حيستمر بقلبي للأبد معاكي اتغيرت حاجات كتير في حياتي..والأكيد للأحسن إن شاء الله..أنا حروّح آه..بس مش نفس أدهم اللي كان قبل كام ساعة..بصي، أنا حكلمك الصبح بدري أول ما أصحى، عايز صوتك يكون أول صوت اسمعه وآخر صوت..اتفقنا ؟

أجابت:

- إتفَقنا.

قالت وهي تبعد عنه:

- تصبح على خير.

- على فين يا هانم؟

نظرت إليه مستغربة وقبل أن تقول أي شئ أمسكها من ذراعها بلطف قائلاً:

- مش حنتفق إلا لما اطمأن عليكي وإنتي بتقفلي باب شقتك.

استطرد قائلاً:

- حوصلك لحد باب الشقة.

أسعدها حرص أدهم عليها..حبُّه هبة السماء.

عند باب شقتها التفتت تجاه أدهم قبل أن يودعها قائلة:

- شكرًا على كُل إيشي.

صمتت للحظة لتقول:

- شكرًا لحبك.

سلمت عليه وضغطت على يده شاكرة حضوره الجميل في حياقما، استدارت لتفتح الباب ودخلت بيتها مودعة أدهم حاملة سعادة الكون في قلبها.

رمت نفسها على السرير بحركة طفولية شقية..أغمضت عينيها ولكنها لم تستطع النوم..فرحتها التي غمرتها في تلك اللحظة كانت أقوى من النوم..أقوى من الليل..أقوى من كل كلمات الحب التي سمعتها في حياتها. قامت مجددًا من السرير لتبدل ثيابها وتستعد للنوم كانت تتحرك بهدوء كأنها تصارع الهواء في التحرك كالثملة..فهي لا تشرب الخمر ولكن النشوة كانت تغمرها..نشوة الحب الجميل..بدلت ثيابها ببطئ غسلت وجهها من المكياج وعادت إلى السرير والابتسامة لا تفارق ثغرها .. اطمأنت أن الهاتف قريب منها.. ثم أغمضت عينيها وكأنها تستعجل موعدها مع صوت أدهم في الصباح..

***

-الفصل الثامن -

فتحت عينيها في نفس الساعة التي تعودت أن تقابل السكون فيها، واليوم لديها الكثير ما تنثره على جبين الصباح تنثر أجمل المشاعر وأصدقها لتزيد السكون سحرًا وجمالاً..قامت لتؤدي واجبها تجاه ربها شاكرة إياه على كل الهبات التي وهبها إياها من حب صادق وصحبة طيبة. أنهت صلاتها مطمئنة القلب وهمّت لتقوم بباقي طقوسها، ومن أهم تلك الطقوس القهوة الصباحية.

حضّرت قهوتها على مهل وتركت البن يغلي كأنه يتراقص ويغازلها برائحته التي كانت مختلفة هذا الصباح، كأنها ممزوجة برائحة الصباح الندي، وطعمها كان بطعم حلم الليلة الماضية البهي.

كانت تنتقي ملابسها حين سمعت هاتفها المحمول ينادي عليها لتلتقي بالصوت المنتظر، وقبل أن ترد قرأت الاسم كيفما دونته "ملاكي الحارس" على الرغم من معرفتها شخصية المتصل.

ردت بصوت هادئ كأنها لاتزال تحلم:

- مين معي؟

أجاب أدهم باستغراب:

- نعم؟

ضحكت قائلة:

- غَلَط يا أفندي..كُنتْ لازم تقُول: "حضرة الضابط أدهم معك يا هانم".

- شكلك صاحية رايقة أوي.

- من حَقي ما دام لاقيت اللي يرَيِّحلي بَالي ويِسعِدلي قلبي.

شعرت بابتسامة أدهم حين قال:

- ربنا يخليكي ليا..إنتِ حتروحي إمتى الجامعة؟

- رَح أنزِل على التمانيِّه ونُص لأنه مَعَادي مع دكتور أمجد على الساعة تِسْعَة.

- طيب يا حبيبتي إنتِ خلصي مقابلتك وكلميني.

ردت مبتسمة:

- تمام يا فندم.

أنهت مكالمتها مع أدهم وبدأت بتحضير نفسها للذهاب إلى الجامعة، وهي في خضم التحضير للخروج من البيت سمعت هاتفها المحمول، ظنت للحظة أن يكون المتصل أدهم ولكنها رأت رقمًا دوليًا على شاشة هاتفها ردت مستغْربة الساعة المبكّرة للمتصل:

- ألو!

سمعت صوت أُمها قائلة:

- أسيل كِيفكْ حبيبتي؟

ردت باندفاع:

- إم أسيل، طَمنيني عَلِيكي وعَلى أبوي وتغريد، كِيف حَالكُم وإيشْ بْتِعِملوا ؟ و...

قاطعتها أُمها قائلة:

- أسيل إنتِ منِيحَة؟

استغربت سؤال والدهما لتقول:

- مالِك إم أسيل؟

ردت والدها بقلق:

- مِشْ عارفِة حبيبتِي قُمِتْ اليوم قَلبي مَقْبوض عليكي كتير، طَمنيني عليكي.

ابتسمت أسيل قائلة:

- ما تِقْلَقيش يامّا أنا كتير مْنيحة وأكتَر ما بْتِتْصَوَري. هاليومين أسعد أيام عُمري، وضعِي هون كتِير منيح، وكتير مَبْسوطة.

- طب الحمد لله، ديري بَالِك على حَالِك.

- وين أبويّ وتغريد؟

- أبوكي نزِل على الشُغُل بَدري وتَغريد بالجامعة.

انهت أسيل المكالمة بالقول:

- طَبْ سَلميلي عَليهُم وقُوليلهُم مِشتَقَالهُم كتير.

- الله يسلمك يا رب ويخليكي، يلا ديري بالِك على حَالِك.

- وإنتو كمان، باي.

وبمجرد أن أنهت مكالمتها مع والدتها خرجت من شقتها نحو الجامعة.. لم تستعمل المصعد في ذلك اليوم بل نزلت على السلم وهي تركض كالطفلة والحقيبة معلقة على ظهرها، وصلت باب العمارة حيث كان البواب منهمكًا في رش الشارع بالماء.

- صباح الخير عَم سيد كيف حَالَك؟

- صباح النور يا بنتي إزيك إنتي؟

- الحمد لله تمام، عن إذنك.

- في رعاية الله يا بنتي.

وبدأت في السير باتجاه الجامعة.

***

كان كل شيء يسير كما هو مخطط بالضبط إلا أن هذا لم يمنع مصطفى من أن يتصبب عرقًا وهو يركب السيارة، ويراقب أسيل وهي خارجة من بيتها كان متحمسًا ليثأر لوالده..كان متحمسًا ليثبت للجميع وأولهم نفسه أنه مؤمن بكل ما يفعلونه..كان ينظر إلى المارة ويتمنى قدوم تلك اللحظة التي تثبت لهم جميعًا صدق ما يفعله هو وإخوانه من أجلهم وأنهم ليسوا إرهابيين كما

يصفونهم..إنهم يحاربون أعداء الدين بنفس سلاحهم فلماذا إذن نكون نحن الإرهابيين وهم لا..!!؟

نظر مصطفى باتجاه أسيل ووجدها تقترب من ذلك الشارع الهادئ الذي تمر منه يوميًا في طريقها للجامعة، هنا تحفزت أعصابهم جميعًا وبدأ مصطفى ينظر حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يرى شيئًا..كانت أسيل تحب تلك اللحظة التي تمر بها من هذا الشارع..كان هادئا جدًا مليئًا بالأشجار وكانت تتعجب دائمًا من وجود مثل هذا الشارع في وسط تلك المنطقة المزدحمة التي تعج بالسيارات والمحلات التجارية والمارة القادمين من كل مكان..تلك المرة لم تكن مرتاحة أبدًا..كانت تشعر وكأن أحدًا ما يراقبها وكلّما نظرت للخلف لا تجد سوى بعض السيارات.

أسرعت الخُطى: "آه يا أدهم ...كم أُريدك معي الآن"

رفعت هاتفها لتتصل بأدهم و...

هنا أحست بمنديل يوضع على فمها وأَنفها..حاولت التملّص إلا أن أيادٍ أمسكتها بشدة..حاولت أن تنظر إلى من يفعل ذلك فلم تر غير سيارة جيب سوداء بابها مفتوح وهي تُجَرُّ إلى داخلها.

بدأت الدنيا تظلم أمام عينيها. وكان آخر شيء تتذكره هو ..

أدهم.

***

دخلت السيارة من البوابة الضخمة المفتوحة لتلك الفيلا المعزولة على طريق مصر الاسكندرية الصحراوي..أسرع حارس الفيلا ليغلق البوابة بعد أن نظر جيدًا ليتأكد من أن أحدًا لم يكن يراقب السيارة.

وقفت السيارة أمام الفيلا وترجل منها مصطفى ورجلان يحملان أسيل فاقدة الوعي.

هتف مصطفى بهم:

– ادخلوا بسرعة قبل ماتفوق مش عاوزينها تعرف هي فين.

أسرعا وهما يحملانها إلى داخل الفيلا حيث كان يقف مروان يتابع ما يحدث، وقد برقت عيناه في ظفر ثم نظر إلى مصطفى الذي مازال متوترًا وقال:

– ماتتوترش يا أخ مصطفى، هي أول مرة بس بتكون كده ماتفكرش غير في حاجة واحدة بس دلوقتي، إن ربنا راضي عنك وعلشان يرضى عنك أكتر لازم توري العالم كله دم الكافرة دي بيسيل على إيدك. هاتقدر ولا نشوف حد تاني؟ كل الإخوة هنا يتمنوا يكونوا مكانك.

هنا هتف مصطفى:

– لا يا أخ مروان..أنا أقدر ونص.

ابتسم مروان في رضا ودلف إلى داخل الفيلا وترك مصطفى يقف وحيدًا متوترًا بشدة في وسط الحديقه يفكر.

فالتفكير شيء .. والفعل شيء آخر تمامًا.

منذ ساعات لم يكن لديه أدنى شك في أن ما يفعله هو الصحيح، ولكن الأمر يختلف الآن، فقد بدأت تلك الأفكار تتحول إلى أفعال وليست أي نوع من الأفعال..بل من النوع الذي لا يمكن التراجع عنه.

لا يمكن أبدًا...

***

فتحت أسيل عينيها ببطء وأحست بألم رهيب يعصف برأسها..حاولت أن تتذكر ما حدث إلا أن آلام رأسها حالت دون ذلك. الرؤية لم تكن واضحة المعالم..فتحت عينيها على وسعهما محاولة أن ترى أي شيء فلم تر سوى ظلال أشياء لا تدري كنهها. ولكنها بدأت تشعر بأنها تجلس على كرسي خشبي..حاولت تحريك يديها ولكنها أحست بأنهما مقيدتان إلى الخلف.

يا إلهي مقيدتان..!

هنا بدأت تستعيد جزءًا من ذاكرتها..كانت تسير في الشارع باتجاه الجامعة وهنا..هنا ماذا..!؟

لا تتذكر جيدًا، تتذكر سيارة جيب سوداء و...

- يا الله وَجَع الراس رَح يِقْتُلني.

بدأت الرؤية تتضح شيئًا فشيئًا، إنها غرفة مربعة بها نافذة صغيرة مغطاة بستارة سميكة تحجب الضوء فلا تدرى هل هي الآن نهارًا أم ليلاً؟ أحست أن ألم الرأس بدأت تخف حدته قليلاً..الآن تتذكر كل شيء..يا إلهي لابد أنهم من كانوا يراقبونني.

سمعت صوت خطوات تسير باتجاه باب الغرفة، حاولت أت تتملص من قيودها فلم تستطع، فانهمرت دموعها وهي تردد:

- وينك يا أدهم؟

***

جلس مصطفى أمام الفيلا وقد بدا على ملامحه الهم الشديد، لا يعرف بالضبط لماذا هو مهموم هكذا، فقد حقق أول خطوة فيما كان يتمناه وأَسَرَ تلك الكافرة.

ولكن، هل هي كافرة فعلاً؟

سمعها تقول يا رب وهم يخطفونها .. أيُّ رب تنادي تلك الإسرائيلية؟ تذكّر مصطفى أول مرة قابل مروان فيها وهو يصلي الفجر، كان ناقمًا على من كان السبب في سجن أبيه ومروان جاء كطوق النجاة ليعطيه وسيلة الانتقام،..خلاف أن ما يفعله سيكون سببًا بإذن الله في دخوله الجنة.

رجع برأسه إلى الوراء وأغمض عينيه وهو يتذكر ذلك اليوم حينما سمع صوتًا يقول:

- السلام عليكم.

رفع مصطفى رأسه ليرى من يكلمه وهو يرد السلام:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- أنا أخوك مروان.

- وأنا مصطفى.

- أنا من سكان المنطقة وملاحظ إنك ما شاء الله مواظب على أداء الصلوات في موعدها بالمسجد وده يدل على حسن إيمانك يا أخ مصطفى في زمن القابض على دينه كالقابض على الجمر..فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَتَعَاهَدُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ".

- ربنا يكرمك يا أخ مروان والحمد لله، أنا والله بعمل بس اللي ربنا أمرنا بيه.

- والله يا أخ مصطفى أنا متوسم فيك الخير والصلاح بإذن الله ولكن إنت فاكر إن الإيمان بالله ورسوله هو فقط باداء الفروض كالصلاة والصيام وحج البيت؟ لا يا أخ مصطفى الإسلام مفيهوش رهبانية..الإسلام دين عمل وعبادة..فمثلما نؤدي الفروض مفروض علينا أن نعمل لأجل الإسلام علشان يكتمل إيماننا وأنْ نتفاعل مع مجتمعنا الإسلامى إنت ماسمعتش قوله عليه الصلاة والسلام: "من لم يهمه أمر المسلمين فليس منهم"؟

- أنا حاسس إنك عاوز تكلمني في حاجة يا أخ مروان فا وضحلي أكتر.

- اسمع يا أخ مصطفى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف" وفي حديث آخر: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" إنت عاوز يا أخى أنْ يكون إيمانك ضعيفاً؟ عاوز تنزوى بأحد أركان المسجد لتقرأ القرآن ومايهمكش أمر إخوانك المسلمين في كل مكان اللي بيتقتلوا ويتعذبوا في أرجاء الأرض.

- في الحقيقة أنا بتابع الأخبار دايمًا وبتأثر جدًا لما بشوف اللي بيحصل للمسلمين في كل مكان ولكن نعمل إيه ما باليد حيلة.

ظهر على وجه مصطفى الانزعاج وهو يقول:

- مابليد حيلة؟ استغفر الله ماتقولش كده أبدًا يا أخ مصطفى وإلا هاتكون من اللي بينطبق عليهم حديث المؤمن القوى والمؤمن الضعيف أو ممن يرى المنكر ولايغيره فالساكت عن الحق شيطان أخرس إنت عاوز تكون شيطان؟

- لالا طبعًا أعوذ بالله..لكن يا أخ مروان إيه العمل؟

- اسمع يا أخ مصطفى هاقولك حاجة ولكن إوعدني بإنك ماتقولش أبدًا لأي حد قبل أن يمن الله عليه بالفتح الإيمانى.

- اتفضل يا أخ مروان أنا سامعك.

- اسمع يا أخ مصطفى إنت عارف إن أفضل الأعمال عند الله هو الجهاد في سبيله ويقول الله في القرآن الكريم: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} صدق الله العظيم. وإنت عارف يا أخي حال المسلمين في كل مكان فقد استباحت دماؤهم وديارهم وأموالهم واعراضهم، فهل نسكت بعد كل ده؟ نسكت عن عمل الحق ونكون كالشياطين؟

اقترب مروان منه حتى أحس مصطفى بأنفاسه تلفح وجهه وهو يقول:

- الجهاد يا أخ مصطفى دلوقتي أصبح فرض عين على كل مسلم..يعني حتى أبوك وأمك ليس لهما عليك سلطان في هذا الفرض.

- في الحقيقة يا أخ مروان أنا معاك في الموضوع ده والحقيقة إن الجهاد هو أعظم درجة عند الله من أى عمل آخر ولكن أنا سمعت واحد من المشايخ من فترة في واحدة من القنوات الفضائية بيقول بأن الجهاد لايعلن إلا من قبل ولي الأمر أى الحاكم، وفي بلادنا لم يعلن و لم يطلب منا الجهاد.

- هداك الله يا أخ مصطفى ماتسمعش الكلام ده..دول أبواق بيقولوا اللى عاوزه منهم الحاكم وبس وإنت عارف إن كل حكام

المسلمين دلوقتي موالين لحكام الكفار من الغرب والله يقول ومن يواليهم فإنه منهم. يعني هؤلاء الحكام قد خرجوا عن ملة الإسلام بموالاتهم للكفار، وكمان لايحكمون بما أنزل الله..إنت مش شايف بعينيك إزاي الفساد انتشر واستشرى في مجتمعاتنا الإسلامية؟ فالنساء أصبحن متبرجات والفنادق أصبحت مرتعًا للخمور والفجور والإعلام لايبث إلا المسلسلات والأفلام الإباحية وأصبحت البنوك كلها ربوية والكفرة رايحين جايين بيتمتعوا بحياتهم في بلادنا من غير حسيب أو رقيب..إحنا بنعيش في مجتمع جاهلى إنت ماقريتش كتاب (جاهلية القرن العشرين) لسيد قطب.

– لا ماقريتوش.

– في الكتاب العظيم ده بيشرَح لينا شيخنا السيد قطب إزاي إن مجتمعاتنا رجعت لجاهليتها الأولى جاهلية قريش وعبادة الأصنام! أيوه الأصنام دلوقتي بتتمثل في عبادة المال والدنيا والبعد عن الدين وعبادة الحاكم الذي لايحكم بما أنزل الله وأصبح الشرك في كل مكان وأصبح تقديم القرابين والنذور والأولياء والطواف حول الأضرَحة والقبور هى عادة كل الناس وهذا ما حاربه شيخنا المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد العصر ألم تقرأ كتابه التوحيد؟

– لالا ماقريتوش.

– مفيش مشكلة هاجيبلك كل الكتب دي، وكمان في كتاب عظيم لازم تقراه اسمه الولاء والبراء. وبعد كل ده إنت مش شايف

معايا إننا لازم نقتدي بالسلف الصالح في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله ولتكون كلمة الله هى العليا؟ ماسمعتش حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اللي بيقول فيه: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ"؟ يبقى عليك إنك تختار إما تجاهد هؤلاء الحكام الكفرة أو إنك تختار بإنك تعيش مع الكفار وتهادنهم و... وتحشر معهم.

– أعوذ بالله لا طبعًا يا أخ مروان اعتبرني خلاص بقيت واحد منكم بس قولي أبدأ إزاي وأعمل إيه؟

– سيب الموضوع ده عليا يا أخ مصطفى.

***

– أخ مصطفى، تعالى أخ مروان عاوزك جوه.

أفاق مصطفى فجأة من ذكرياته عند سماعه ذلك الصوت وتحرّك بخطوة سريعة تجاه الفيلا ليدخل ويجد مصطفى جالسًا على أريكة في وسط الردهة وهو يقول له:

– إجهز يا مصطفى علشان هانصورك فيديو وإنت مع الكافرة اللي جوه دي.

– هاتصوروني؟! ولكن أنا ماعرفش المفروض أقول إيه.

– ماتقلقش خد الورقة دي احفظ اللي فيها على ما نجهز الكاميرا.

أخذ مصطفى الورقة وألقى نظرة عليها قبل أنْ يقول لمروان:

- هاحفظها زي اسمي دلوقتي.

ثم اتجه إلى كرسي في أحد الأركان وجلس يقرؤها بتركيز شديد مرة واثنتين وثلاث مرات وظل يعيدها في سره حتى تأكد من أنه حفظها جيدًا ورفع رأسه باحثًا عن مروان كي يخبره أنه انتهى.

وهنا وجد نصل سكين أمام وجهه...

كان مروان يقف أمامه وبيده سكين ضخم مرعب يلوح به بفخر وهو يقول:

- السكينة دي هاتحطها على رقبتها وإنت بتقول اللي مكتوب عندك، إنت حفظته مش كده؟

- زي اسمي يا أخ مروان.

- ممتاز توكلنا على الله.

قام مصطفى مع مروان وذهبا حيث يحتجزون أسيل ...

***

وقفت شيرين على باب الكافيتريا وهي تضع هاتفها المحمول على أذنها وقد ظهر عليها القلق الشديد..كانت تحاول الاتصال بأسيل، هي تعرف أنها لا تتأخر عن موعدها أبدًا..على الأقل كانت ستتصل، ولكنها اختفت تمامًا منذ الصباح..ربما تكون قد ذهبت إلى

موعدها مع دكتور أمجد مباشرة ولكن لقائهما لن يطول أكثر من ساعة أو ساعة ونصف في الحد الأقصى وقد مرت الآن أكثر من ساعتين ولا تزال مختفية عن الأنظار.

عاودت الاتصال ولكن أسيل لم ترد..فخطر لشيرين أن تبحث عنها عند دكتور أمجد.

لاحظت سكرتيرة الدكتور أمجد القلق البادي على وجه شيرين عندما دخلت:

- صباح الخير شيرين..إيه في إيه ؟ إنتي كويسه؟

سألتها شيرين بدون أن ترد الصباح وفي قلق شديد:

- أسيل كان عندها موعد النهاردة الصبح مع دكتور أمجد، مش كده؟

ردت السكرتيرة بجدية:

- أيوه فعلاً ..بس أسيل ماجتش.

اتسعت عينا شيرين وقالت بصوت مخنوق:

- معلش بعد إذنك ممكن أدخل للدكتور أمجد؟

قامت السكرتيرة من مكانها قائلة:

- لحظة بس استأذنلك منه واشوف إذا كان فاضي.

هزت شيرين رأسها بدون أن تقول أي شئ وركزت على مكتب السكرتيرة وهي تدعو الله على أن تكون أسيل بخير.

بعد لحظات عادت السكرتيرة لتأذن لشيرين بالدخول:

- اتفضلي.

دخلت شيرين مسرعة لمكتب دكتور أمجد وكان القلق قد سيطر على كل حواسها وبدون أن تطرح السلام قالت:

- دكتور أمجد أنا قلقانة أوي على أسيل..هي مجتش في معادها ومش بترد على التليفون من الصبح.

ظهر جليًا أن دكتور أمجد قد انتقل إليه القلق الشديد وهو يقول:

- وأنا استغربت جدًا بس توقعت إنها انشغلت وكنت لسه بفكر أتصل بيها و...

قاطعته شيرين لتقول:

- مش بترد على الموبايل وحاولت أكلمها على تليفون البيت كمان مش بترد، أنا قلقانة عليها أوي.

وبدون إدراك منها انهمرت دموعها، وجلست على أقرب كرسي بجانب مكتب دكتور أمجد، وقد لف السكون المكان.

قامت شيرين من مكانها فجأة وهي تقول:

- أنا هاروحلها البيت حالاً مش هاقدر أفضل كده.

قال لها دكتور أمجد:

- مفيش داعي للقلق يا شيرين تلاقيها راحت عليها نومة ولا حاجة.

- لا يا دكتور في داعي للقلق، أسيل كانت قالتلي إنها لاحظت حد بيراقبها قبل كده و...

قاطعها دكتور أمجد قَلِقًا:

- بيراقبها؟ متأكدة إن في حد كان بيراقبها فعلاً؟

- أيوه هي شافته بنفسها.

قام دكتور أمجد مسرعًا من وراء مكتبه قائلاً:

- طيب يلا أنا جاي معاكي.

ثم نادى السكرتيرة وقال لها:

- أي حد يسأل عليا أنا مش فاضي عندي مشوار مهم.

خرجا من الباب في حين نظرت شيرين إلى دكتور أمجد باستغراب فهي تعرفه جيدًا أنه لم يفعل هذا من قبل مع أي طالب مهما كان..طردت تلك الأفكار من رأسها وقد أحست بأن هذا ليس الوقت المناسب للتفكير في مثل هذه الأمور.

- اتفضلي اركبي.

قالها دكتور أمجد لشيرين وهو يفتح باب سيارته لها.

- لا يا دكتور..أسيل ساكنة جنب الجامعة يلا نمشي أسرع.

أغلق باب سيارته وسارا اتجاه بيت أسيل حتى دخلا في شارع صغير هادئ فصرخت شيرين فجأة:

- دكتور أمجد ...

وانحنت على الأرض ملتقطة سلسلة ذهبية معلق بها أيقونة صغيرة لطفلٍ يضع يده خلف ظهره وهي تقول في جزع:

- دكتور أمجد دي السلسلة بتاعت أسيل أنا عارفاها كويس أوي.

نظر دكتور أمجد إلى تلك الأيقونة التي تمثل حنظلة الشخصية الشهيرة التي ابتكرها الفنان الفلسطيني ناجي العلي في رسومه..همَّ بقول شيء ولكنه لم يجد شيرين فقد كانت تجري تجاه بيت أسيل في هلع شديد..فسار بسرعة وراءها وقد ضاقت عيناه بشدة.

وصلت شيرين إلى مدخل العمارة بسرعة وهي تنادي:

- يا عم سيد..يا عم سيد إنت فين؟

دخل وراءها في تلك اللحظة دكتور أمجد وقد ظهر عليه التوتر الشديد.

خرج البواب مسرعًا وهو يقول:

- أيوه يا بنتي..أنا هنا..في حاجة؟

- أسيل فين يا عم سيد؟

- أسيل يا بنتي نزلت الصبح بدري راحت الجامعة..هو في حاجة ولا إيه؟

استندت شيرين على الحائط لا إراديا وقد أحست بأن قدميها لم تعودا قادرتين على حملها وهي تقول:

- أسيل يا عم سيد ماوصلتش الجامعة وتليفونها مقفول لحد دلوقتي.

- إزاي يا بنتي؟ دي صبحت عليا الصبح وهي ماشيه و...

قاطعه دكتور أمجد قائلاً:

- ماشفتش أي حاجة غريبة كده ولا كده يا عم سيد؟ يعني مثلاً حد بيعاكسها وهي ماشية أو حد ماشي وراها؟

- لا يا بيه ماخدتش بالي من حاجة زي دي خالص.

سمعا صوت شيرين فجأة يخرج من بين دموعها المنهمرة بغزارة:

- أنا هابلغ البوليس حالاً.

قال دكتور أمجد وهو يتحرك باتجاه الشارع:

- البوليس مش هايعملك حاجة قبل مرور ٢٤ ساعة على غيابها.

- إحنا لسه هانستنى ٢٤ ساعة؟

التفت دكتور أمجد وراءه ليخبرها بشيء فوجدها تمشي ببطء وعلى وشك السقوط عاد تجاهها سريعًا ليأخذ بيديها وهو يقول:

- إهدي بس يا شيرين إن شاء الله خير مش هانسكت النهاردة إلا لما نعرف هي فين يلا مافيش فايدة في وجودنا كده في الشارع تعالي نرجع الجامعة ونشوف ممكن تكون راحت فين؟

نظرت شيرين مستغربة لدكتور أمجد:

- راحت فين يعني إيه، أكيد اللي كان يراقبها ده له يد في اختفائها يا دكتور.

- طيب اهدي دلوقتي وتعالي معايا بجد مفيش فايدة من وجودنا هنا.

ما إن دخلا بوابة الجامعة حتى ركض خالد باتجاه شيرين حين رآها باكية وقد اعتمدت في مشيتها على يد الدكتور أمجد اقترب قائلاً:

- في إيه يا شيرين حصل إيه؟

نظرت إليه شيرين:

- أسيل يا خالد..أسيل.

نظر خالد نحو الدكتور أمجد بعد أن تملكه الخوف:

- حصلها حاجة؟

أجابت شيرين:

- أسيل مختفية من الصبح ومش بترد على الموبايل ولا جات الجامعة ولما رحنا نشوفها في البيت لاقيت السلسلة دي مرمية مش بعيد عن بيتها.

أخذ خالد بيد شيرين قائلاً لدكتور أمجد:

- متشكرين يا دكتور على المساعدة سيب لي شيرين دلوقت حخليها تهدى شوية وبعد كده حنجيلك المكتب.

توجه خالد وشيرين إلى الكافيتريا..مكان باقي الشلة الاعتيادي، وما إن رأوا شيرين في تلك الحالة أسرع محمد سائلاً:

- في إيه يا جماعة؟ تعالي يا شيرين أُقعدي هنا..هو إيه اللي حصل؟

وأزاح أحد الكراسي لتجلس عليه، وحكت له ما حدث سريعًا

قال خالد ليهدئ من روعها:

- متخافيش يا شيرين حيكون حصلها إيه؟ أسيل بنت عاقلة جدًا ويمكن ظنك يطلع مش في محله، وتلاقيها داخلة علينا بعد شوية.

نظرت شيرين إليه والدموع في عينيها، وحكت له عن كلام أسيل بخصوص من كان يراقبها..فخيم السكوت للحظات على أعضاء الشلة إلى أن قام محمد من مكانه قائلاً:

- تعال يا خالد نشوف حنعمل إيه مش معقول نسيب البنت كده وهي ملهاش حد هنا.

تعال نروح لدكتور أمجد ونشوف حنعمل إيه في الموضوع ده يمكن يكون له علاقات في البوليس تسرع عملية البحث عنها.

قامت شيرين وهي تقول:

- أنا جاية معاكم.

***

انهمرت دموع أسيل والخطوات تقترب من الباب..كانت خائفة من أن يتم تعذيبها فهي لا تتحمل الألم..لو كانوا يريدون منها معلومات ما فستعترف بأي شيء كي لا تتعذب.

أصيبت بالإحباط فجأة عندما أدركت أنها لا تملك أية معلومات تهم أحدًا...

أفاقت من تفكيرها فجأة على صوت الباب، وهو ينفتح ويظهر أمامها مروان ومصطفى وهو يحمل أكبر سكين رأته في حياتها.

اتسعت عيناها رعبًا..حاولت التملص من قيودها وقد شل الرعب لسانها.

- إهدي إحنا مش هنا علشان نقتلك.

قال مروان هذا ثم ابتسم ابتسامة خبيثة وهو يضيف:

- لسه ماجاش الوقت.

دخل اثنان آخران بكاميرا فيديو وبدأ في تثبيتها ومراجعة الأسلاك الموصولة، فأعطيا للغرفة طابعًا مختلفا قليلاً عما كان منذ قليل مما جعل أسيل تهدأ بعض الشئ، نظرت إلى مروان ومصطفى قائلة في حذر:

- إنتو مين وليش خَاطفيني؟

نظر إليها مروان قائلاً:

- إحنا اللي هاننضف البلد من أمثالك بإذن الله.

- أمثالي؟ أمثالي؟

كررت أسيل الكلمة في دهشة ثم أضافت:

- أمثالي اللي هُمّ مين يعني؟

قال مروان في غضب:

- أمثالك من الإسرائيلين الكفرة اللي مالين بلاد المسلمين.

قالت بدهشة والدموع تملأ عيناها:

- أنا كافرِة؟

- بصي لجواز سفرك ولبسك وإنتي تعرفي إنتي إيه.

اغمضت عينيها كأنها تحاول ترتيب أفكارها وقالت بعد أن هدأت قليلاً:

- أها جواز سفري ولِبْسي؟ فهمتَك! أنا يا أفندي عرَبيَّة فَلَسطينيّة، ولو إنَّك بتِعْرَف الله أكثَر مني، كيف ما بْتِدَعي، كان عرفِت إني فَلَسطينيِّة أكتر من كونَك إنتَ مِسلِم.

استفزت جملة أسيل مروان ليمشي بخطى سريعة اتجاهها ويمسكها من شعرها ويشد رأسها للخلف ويقول بعد أن قرب وجهه من وجهها:

- مافضلش غير كافرة زيك اللي تشكك بإيماني.

نظرت أسيل في عينيه وهي تقول في تحدٍ استفزه بشدة:

- مِش أنا اللي كافرِة في هاي الأوضَة، وإنتَ اللي بْتِدَعي إنَّك حامي الإسلام..إنتَ ولا إيشي غير صوت اللي مشَغلينَك واللي بيحَركوك مِن ورا الكواليس زي لُعبة الماريونيت.

ظهرت على وجه مروان علامات الغضب فأمسك برأسها ودفعها إلى الأمام فصرخت من الألم ونظر إلى مصطفى قائلاً:

- يلا يا أخ مصطفى خلينا نشوف شغلنا.

قالت أسيل بتحدٍ:

- قصدك تشوف شُغُلهُم.

نظر مصطفى مستغربًا إلى أسيل التي قالت هذا بسخرية رغم آلامها، واستطاعت أن تستفز مروان الذي ظهر أمامه لأول مرة بمظهر ضعيف، وكأنه لا يملك منطقًا قويًا يرد به عليها.

في حين كان يفكر مصطفى في ما يجري أمامه نبهه صوت مروان قائلاً:

- إيه يا أخ مصطفى؟ مستني إيه؟

اعتدل مصطفى وهو يقول:

- مفيش حاجة يا أخ مروان أنا خلاص جاهز.

وأمسك سكينه ووضعه على رقبه أسيل ..

***

اعتدل في مقعده وفتح الكمبيوتر المحمول الذي لا يفارقه أبدًا وبدأ يتصفح شبكة الإنترنت.

كان ينتظر رسالة هامة من مروان ليعرف آخر تطورات العملية الأخيرة.

وجد فعلاً رسالة من مروان في البريد الإلكتروني.

كانت تلك الفكرة جديدة تمامًا..أن يدخل مروان إلى بريده الإلكتروني ويكتب رساله ثم لا يرسلها فيتم حفظها فيما يسمى الرسائل غير المرسلة ثم يدخل الدكتور إلى نفس البريد الإلكتروني فيجدها، وبذلك يتجنبون أن يتم اعتراض الرسالة فهم في حقيقة الأمر لا يرسلونها أبدًا.

شعر بالرضا عندما وجد مروان يطمئنه أن العملية جرت بطريقة سليمة وآمنة تمامًا و لم يشعر أحد بما حدث.

يبدو أن كل أحلامه ستتحقق أخيرًا فكّر في هذا وهو يفتح بريده الإلكتروني ليرسل التقرير بنجاح العملية إليهم ...!

من هم...؟!

حقًا لا يعرف حتى الآن من هم.فقط عندما قابلوه بالخارج منذ عدة سنوات أثبتوا له حسن نيتهم تجاهه..خاصة عندما لم يكشفوا ما فعله و لم يفضحوه أمام الجميع بالإضافة إلى أنهم وعدوه بملايين الدولارات في حال تنفيذ عملية مثل هذه بخلاف راتبه الشهري الضخم الذي يأتي إليه من الخارج.

لماذا إذن يعنيه من هم؟ فليكونوا أي أحد لا يهم..ثم أن ذلك حقيقة يجعل ضميره لا يؤنبه كثيرًا.

يا إلهي سوف أكون ثريا أخيرًا، ولن يتعدى الثمن غير حياة تلك الحمقاء التي تعتقد أن الحياة وردية.

ضغط على زر حفظ الرسائل وهو يتخيل أسيل أمامه...

غارقة في دمائها ...

***

دخلت شيرين مسرعة إلى مكتب الدكتور أمجد وتبعها محمد وخالد، بادرهم الدكتور أمجد بالكلام:

- كنت لسه بكلم واحد من معارفي دلوقتي وقالي إن ماينفعش نبلغ البوليس دلوقتي لأن قانونيًا لازم يكون مر على غيابها ٢٤ ساعة.

قاطعته شيرين:

- إحنا لسه هانستنى ٢٤ ساعة يا دكتور؟ أنا مش فاهمة إنتو مش حاسين بخطورة الموقف ليه؟ يا جماعة أسيل حصلها حاجة ولو مكناش نتحرك دلوقتي ممكن مش نلحقها.

قال محمد:

- نتحرك نعمل إيه؟

نظرت إليه شيرين قائلة:

- نبلغ البوليس مثلاً؟ نبلغ أمن الدولة، نبلغ..

وقبل أن تكمل جملتها قال دكتور أمجد:

- مفيش غير حل واحد للأسف لتفعيل عمليه البحث بسرعة عن أسيل.

نظروا للدكتور في لهفة وهو يقول لهم الحل، واتسعت عينا محمد وتراجعت شيرين للوراء في ذهول وهي تسمع ما يقول الدكتور أمجد وكم كانت تتمنى ألا يقول هذا، ولكنه كان على حق تمامًا.

للأسف ...

خرجوا جميعًا من مكتب الدكتور لتنفيذ ما قاله وقد ظهر على وجوههم الوجوم الشديد غير مصدقين أنهم سيفعلون ذلك...

***

وقفت شيرين ومحمد أمام تلك البناية الشاهقة التي تطل على نهر النيل وقد بدا عليهما التردد الشديد..نظرت شيرين إلى محمد وهي تقول:

- مش قادرة يا محمد مش مصدقة إن ده أصلاً ينفع يكون حل..

هز محمد رأسه وهو يقول:

- ده فعلاً الحل الوحيد المنطقي ولا تحبينا نقعد ونحط إيدينا على خدنا لحد تاني يوم؟

- لا طبعًا ده أنا هاموت من القلق على أسيل.

تنهّد محمد وهو يرفع رأسه لينظر إلى البناية التي يقف أمامها. وتحديدًا إلى آخر طابق فيها حيث يرفرف هناك ذلك العلم.

العلم الإسرائيلي ...

كانت سفارة إسرائيل هي الحل الوحيد والتي ستُفَعِل عملية البحث عن أسيل سريعًا باعتبار أنها مواطنة إسرائيلية تحمل جواز السفر الإسرائيلي.

تقدم محمد وشيرين وراءه إلى تلك البناية، فاتجهت أنظار الأمن إليهم على الفور، وأشار إليهم أحد الضباط ذوي الرتب العالية بأن يأتوا إليه فاتجه محمد نحوه وهو يقول:

- عايز أطلع للسفارة الإسرائيلية.

نظر إليه ضابط الشرطة بشك وهو ينظر إلى شيرين أيضًا ثم قال:

- بخصوص إيه؟

- بلاغ عن واحدة من مواطنيهم.

- يعني إيه بلاغ عن واحدة من مواطنيهم؟ لو حد عمل فيك حاجة روح إعمله محضر في القسم.

- حضرتك مش فاهمني يا افندم، لينا زميلة هنا إسرائـــ..

صمت فجأة لثانية ثم أكمل جملته وهو يضغط على الحروف وكأنه يجبرها على الخروج من فمه:

- زميلة إسرائيلية بتدرس معانا في الجامعة وهي مختفية من الصبح وعندنا شك إن حصلها حاجة.

برقت عينا الضابط في ارتياع وقال:

- وليه ما بلغتوش على طول؟

- سمعنا إن لازم يكون مر ٢٤ ساعة على اختفائها.

- اللي قالولك كده أغبياء أو إنت اللي مافهمتهومش، إحنا هنا بنتكلم عن أجنبي وده له وضع تاني وكمان إسرائيلي واحنا مش ناقصين وجع دماغ.

قال محمد بتهكم:

- فعلاً يا حضرة الضابط لو مصري كان يولع بجاز مش مهم..المهم الإسرائيليين.

نظر إليه الضابط بحدة وهو يتفحصه لعله أحد الذين اعتقلهم من قبل، ولكنه لم يتعرف عليه فأدار وجهه إلى شيرين وقال لها:

- يلا هاتركبوا معايا نروح الإدارة؟

ردت شيرين قائلة:

- إحنا معانا عربية ممكن حضرتك تيجي معانا.

- لا إمشوا إنتو ورايا ويلا حالاً.

ابتسمت شيرين وهي تنظر لمحمد الذي علا الوجوم وجهه وقالت:

- غالبًا ده ضابط أمن دولة وأنا عارفة إنك بتكره سيرة مباحث أمن الدولة يا محمد بس مفيش حل تاني مانت شايف أهو إن الموضوع مهم عندهم وأنا مش يهمني غير إن أسيل ترجع وبس.

هز محمد رأسه قليلاً وكأنه يقلب كلامها في رأسه، ونظر أمامه وشيرين تتبع السيارة التي تحمل الضابط الذي أمرهم بأن يتبعوه، حتى وصلا أخيرًا إلى إدارة مباحث أمن الدولة.

ذلك المبنى الشهير ب "بيت العينه" أو كما يسميه النشطاء السياسيون:

" عاصمة جهنم "

دلف ضابط أمن الدولة إلى مكتبه وتبعه محمد وشيرين في قلق إلى داخل المكتب ثم وقفا فقال لهما:

- اتفضلوا اقعدوا كلامنا هايطول لسه.

ثم نادى العسكري الواقف أمام باب الغرفة منتظرًا أوامره وقال:

- ناديلي على النقيب محسن بسرعة يابني.

رفع سماعة الهاتف الذي أمامه، وتبادل بعض الكلمات بصوت خفيض، أقفكل بعدها السماعة وأخرج من درج مكتبه مفكرة صغيرة وقلمًا.

كان النقيب محسن قد وصل مسرعًا وأدّى التحية فقال له:

- أُقعد يا محسن بيه في موضوع إحتمال يكون مهم.

ثم نظر إلى شيرين ومحمد قال لهما:

- دلوقتي عاوز أسمع كل حاجة من طقطق لسلام عليكم من غير ما تهملوا أي تفاصيل مهما حسيتوا إنها صغيرة أو مش مهمة.

ومع كل دقيقة تمر كان العقيد كامل يتأكد شيئًا فشيئًا من أن الموضوع أكبر مما كان يتوقع بكثير.

***

عدل مصطفى من اللثام حول وجهه لكي لا يتعرف عليه أحد، ووقف واضعًا السكين على رقبة أسيل التي ما أن رأت عدسة الكاميرا أمامها حتى اعتقدت أنهم سيذبحونها فعلاً أمام العالم كله، بدأت ترتجف وزادت دموعها ولكنها فجأة شعرت بأن هناك قوى إلهية قد تملكتها، فقد أحست بأنها إن كانت ستموت بأيدي هؤلاء فلا يجب أن تظهر ضعيفة، شدت نفسها ورفعت رأسها في شموخ غير مبالية بالسكين الموضوع على رقبتها وتلت الشهادتين بصوت منخفض سمعه مصطفى فاهتزت يده الممسكة بالسكين، ونظر إليها بعينين حائرتين حتى سمع مروان يقول:

- استعد يا أخ مصطفى هانصور.

نظرت في عيني مروان بتحدٍ وكأنها تقول له:

"أنا لست خائفة منك .."

عقد مروان حاجبيه في غضب ثم نظر إلى مصطفى وردد:

- ١-٢-٣ ابتدي.

- نحن جماعة "أنصار العدل" نعلن بأننا قد أسرنا بحمد الله واحدة من الكفرة الإسرائيلين الذين يرتعون في دولتنا الإسلامية بحرية يكفلها لهم النظام الفاسد الموالي للكفرة.

أظهر مصطفى جواز سفرها أمام عدسة الكاميرا وعليه الشمعدان اليهودي الشهير، ثم فتحه لتظهر صورة أسيل واسمها بالكامل.

ثم أضاف:

- ونحن نطالب الحكومة المصرية بإغلاق السفارة الإسرائيلية والأمريكية وطرد كل من يحمل الباسبور الأمريكي والإسرائيلي من مصر ونطالب الحكومة الصهيونية بأن تفرج عن كل المعتقلين الفلسطينيين والمصريين لديها وإلا ...

وصمت قليلاً وقرب السكين من رقبة أسيل أكثر وأكمل:

- وإلا سيتم ذبحها أمام العالم كله لتكون عبرة لكل من يعتبر، والله ولي التوفيق.

أشار مروان للمصور أن يتوقف عن التصوير..ثم نظر إلى أسيل في تشف وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- بارك الله فيك يا أخ مصطفى، واستعد علشان تطهر إيدك بدم الكافرة دي قريب.

ردت أسيل بتحد:

- بتِحْكِي على أساس إنَّك نْظِيف أو إنَّك رسول الله على الأرِض؟

اقترب منها مروان بخطى سريعة وصفعها بكل قوته، فوقعت بالكرسي على الأرض ثم استدار ليخرج من الغرفة وهو يسمعها تقول:

- رَح تِدْفَع تَمَن هذا الكَف غالي وحياة الظُلم اللي ظلمتني إيَّاه يا حقير.

لم يلتفت إليها مروان وأكمل طريقه نحو الخارج ولحق به المصور، وقبل أن يخرج مصطفى انحنى ليرفعها بالكرسي..فنظرت إليه أسيل قائلة:

- ليش بْتِعمِل هِيك مِشْ إنتَ رَح تُقْتُلني في كل الأحوال؟

نظر مصطفى إلى الأرض وهو يقول لها:

- أمرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أننا إن قتلنا أن نحسن القتل فلا تعذيب أو ترهيب في ديننا الإسلامي.

قالت متسائلة:

- والرسول عليه الصلاة والسلام أمرَك بقَتِل الأبرياء؟!

صرخ فيها مصطفى وكأنها طرقت شيئًا بسؤالها هذا:

- إنتِ مش بريئة..!

مد يده في حركة عصبية إلى الطاولة بجانبه، والتقط جواز سفرها ولوح به أمام وجهها:

- مفيش حامل للباسبور ده بريء أبدًا.

- إنتَ قريت باسبوري من جوا شفت اسمي بالكامل.

شددت على اسمها قائلة:

- أسيل كيال .. مِسلِمِه..بَصَلي وبَصُوم زَيَّك بالضبط.

نظر إلى ملابسها في اشمئزاز بدون أن يرد.

فقالت له:

- أفهَم مِن نَظْرتَك إنَّك تُقْصُد إنِّي مِش مُحَجَبة؟ وكُوني مِش مُحَجَبة بيسْتَلزِم قَتْلي؟

- ماتحاوليش تخرجي برة الموضوع لو مسلمة مش هاتحملي جواز السفر ده .

- مش مشكلتك أنا إيش ديانتي ولا إيش الجنسية اللي بحملها، مُشكِلتنا يا سيد مصطفى أكبر من هيك بكتير وأعمق، على كل حال بِدَك تُقتُلني أُقتُلني بَسْ إيّاك تْشَكِك في ديني.

- إنتي مرتدة.

- مش إنتَ اللي تْحَدِد علاقتي بربي.

- أنا بنفذ شرع ربنا فيكي.

- إنتَ بِتنَفِذ شَرِع مروان مِشْ شَرِع ربنا.

أمسك يدها بقوة وهو ينظر إليها في غضب فصرخت من الألم قائلة:

- مد إيدَك عليّ إنتَ كمان..فِعلاً مَفِيشْ فَرق بينك وبين الحقير اللي إسمُه مروان.

ظل ينظر إليها قليلاً والشرار يكاد يتطاير من عينه.. لم يكن غاضبًا منها، كان غاضبًا لأنها كانت تقرأ ما بداخله.

يا إلهي من تلك الفتاة التي جاءت لتفسد حياته؟ كان سعيدًا مقتنعًا بأنه سينعم بحياة هنيئة في الآخرة.. كان يحلم بالجنة كل يوم وينتظر دخولها بشوق والآن تخبره تلك الفتاة أنهم ليسوا على حق؟! حرك رأسه يمينًا ويسارًا فجأة، وكأنما ينفض عن رأسه تلك الأفكار.. ترك يدها وخرج سريعًا وهو يتلافى أن ينظر إلى عينيها.

تركها وحيدة في الظلام تفكر ..

ماذا بعد ...؟؟

في ذلك الوقت كان مروان قد أعد الشريط بعد عمل مونتاج سريع ووضعه في ظرف أصفر كبير وأعطاه لشاب يقف بجانبه وقال له:

- تروح على مكتب القناة اللي قولتلك على مكانها وتسيبه قدام الباب وتضرب الجرس وتمشي بسرعة وماتخليش حد يشوفك أبدًا فاهم؟

قال له الشاب:

- فاهم يا أخ مروان.. اعتمد عليا.

هز مروان رأسه في هدوء وأشار إلى الشاب ليمشي ثم اتجه إلى حاسوبه المحمول ليبلغ الدكتور بآخر التطورات كما أمره.

***

أمسك أدهم بهاتفه محاولاً للمرة الخمسين الاتصال بأسيل وقد ظهر على وجهه القلق الشديد، وندم أشد الندم على أنه لم يحفظ رقم صديقتها شيرين عندما اتصلت به لتدعوه إلى عيد ميلادها لكان اتصل بها الآن ليعرف أين أسيل.

نظر إلى ساعته وهو يتمنى أن يمر الوقت سريعًا حتى تنتهي نوبة عمله ليستطيع الذهاب إليها. توتر أدهم أكثر وقلبه يقول له أن شيئًا ما قد حدث وهو هنا لا يستطيع مجرد الاطمئنان عليها.

فكر في أن يترك نوبته ولكن ضميره المستيقظ دائمًا أبى خاصة وأنه يعمل في مكان حساس يحتاج فيه الناس دائمًا إليه. ويعلم الله ما قد يحدث إن اختفي الضابط المسؤول عن الأمن في الصالة.

نظر إلى ساعته للمرة المائة، باق من الزمن ساعة واحدة على انتهاء مناوبته..ليتها تمر سريعًا.

قرر أن يشرب كوبًا من القهوة حتى يستطيع التركيز ونظر إلى شاشة التليفزيون المعلقة أمامه والتي تعرض الآن نشرة الأخبار.

أمسك الكوب المليء بالقهوة وهو يتابع الأخبار..يبدو أن نشرات الأخبار لم تخلق إلا لإعلام الناس بالأخبار السيئة، فكر في هذا وهو يتابع ما تعرضه الشاشة من مشاهد قتل واغتيالات حتى رأى الكلمة الشهيرة التي تجعل كل من يشاهد تلك القناة الإخبارية يوجّه تركيزه إليها دائمًا..

"خبر عاجل"

نظر إلى شاشة التليفزيون وقد اعتراه قلق شديد فوق قلقه على أسيل لا يعرف مصدره، حتى بدأ عرض شريط الفيديو التي قالت القناة إنها حصلت عليه منذ قليل من مصدر مجهول.

هنا كان الكوب قد وقع وسالت القهوة على الأرض وسط دهشة الناس من ذلك الضابط الذي انطلق فجأة مسرعًا وعلى وجهه أعتى علامات الفزع و الغضب...

***

كان دوي ارتطام فنجان القهوة الذي تحمله والدة أسيل بالأرض عاليًا خاصة وقد جاء ممزوجًا بصوتها وهي تنادي على أسيل مما أفزع تغريد المنهمكة في تحضير أحد بحوثها للجامعة. وكان والدها يحاول مهاتفة السفارة المصرية.

لم تكن تغريد قد استوعبت بعد ماذا حدث..لماذا والدتها تصرخ؟ وما هو سبب التوتر الشديد الذي بان على والدها؟ حتى رأت عيني والدتها وقد تعلقت بشاشة التلفاز فالتفتت لترى وجه أختها أسيل يحتل الشاشة، والسكين موجهة نحو رقبتها والمحللون يناقشون خبر اختطاف تلك الفتاة..

نظرت نحو والدها وقد تملكها رعب شديد، سألت عن رد السفارة إلا أنه هز رأسه يائسًا، كان واضحًا على ملامحه أن كل محاولاته باءت بالفشل، جلس على أقرب أريكة قائلاً:

- بيقولوا إن الموضوع وِصِل لَجِهات عُليَا في القاهرة وإنهُم رح يِطَمنوني أول ما يِتْوَصَلوا للي خطفها.

وضع رأسه بين يداه محاولاً السيطرة على ذلك الحمل الذي أُلقي على كاهله ولكن...

عبثًا ...!

-الفصل التاسع-

كانت تلك المرة الأولى التي يترك فيها أدهم مكان عمله بتلك الصورة..إتجه نحو سيارته واستقلها وانطلق مسرعًا لا يعرف إلى أين يتجه.

تحسس مسدسه وكأنه يطمئن أنه في مكانه..لم يستخدمه منذ زمن طويل ولكنه يعرف الآن أنه سيستخدمه بلا تردد.

إنها أسيل هذه المرة...

أخرجه من جرابه ليتأكد من وجود الرصاصات، وعلت وجهه نظرة لو رآها خاطفوها لارتجفوا رعبًا واطلقوا سراحها فورًا.

رفع هاتفه وطلب أحد أصدقائه في الإدارة.

ما أن رن الهاتف المقابل حتى وجد الخط يفتح فورًا وسمع صديقه يقول:

- أدهم كنا لسه هانتصل بيك دلوقتي.

- أنا اللي عاوزك في موضوع مهم يا طارق اسمعني.

- مش هاسمعك. إنت تيجي حالاً أنا عارف إنت عاوزني في إيه أكيد شفت نشرة الأخبار وعارف إنك في الحالة دي لازم تكون موجود بحكم علاقتك بيها.

قال أدهم وكأنه كان يتوقع ذلك:

- واضح إنك كنت عارف بالموضوع ده.

رد عليه طارق سريعًا:

- إحنا مباحث أمن الدولة يا أدهم بيه بنعرف اللي بيحصل في بيوت الناس مش هانعرف اللي بيحصل في بيتنا؟

صمت أدهم لثوان ثم قال:

- طارق الموضوع ده مهم عندي أكتر مما تتصور.

قال طارق:

- الموضوع مهم عند الكل يا أدهم..في توجيهات عليا بانهائه بأسرع وقت ممكن.

قال أدهم فجأة بشكل حاد:

- أنا مايهمنيش غير إنها ترجع سليمة يا طارق.

صمت لثوان كأنما يستعيد رباطة جأشه ثم أضاف:

- عموما أنا في الطريق جايلك حالاً.

ظل أدهم صامتًا طوال الطريق لا يستطيع إبعاد صورة أسيل والسكين على رقبتها من خياله..يا إلهي لن يستطيع تحمل أن يفقد ما ظل يبحث عنه سنوات طويلة. كانت ولازالت أمه تلح عليه في موضوع الزواج، ووافق أحيانًا ارضاءً لها أن يرى بعض الفتيات

اللواتي كان يجد دائمًا المبررات الكافية ليرفضهن، كان ينتظرها هي..

ينتظر من ستخطف قلبه بدون أن يشعر.

والآن بعد أن وجدها يريدون أن يخطفوها منه؟ سيجدها ويحررها حتى لو كان هذا آخر ما سيفعله في حياته.

كان قد وصل إلى مقر الإدارة فهدأ من سرعة السيارة وهو يجتاز تلك البوابة الضخمة وحارسا البوابة يحدقان به في شك حتى بعدما أظهر لهم هويته ليسمحا له بالدخول.

أسرع ليدخل إلى مكتب طارق فوجد مجموعة من الضباط مجتمعين معه، وهناك كرسي فارغ كانوا قد أعدوه من أجله.

كان الرائد طارق سليم من أشهر الشخصيات داخل أروقة مباحث أمن الدولة على الرغم من صغر سنه.

دهاؤه وقسوته الشديدة في التعامل مع المتهمين وطرقه الناجحة في انتزاع المعلومات جعلت الأنظار تتجه إليه..ودائمًا ما تسند إليه القضايا الخطيرة المتعلقة بالإرهاب والأنشطة الدولية المعادية داخل مصر..حيث يتم التنسيق في هذا مع جهاز المخابرات العامة.

وتتردد بعض الإشاعات في أروقة الإدارة عن احتمال انضمامه للمخابرات العامة في الفترة القادمة.

علاقته بأدهم بدأت في كلية الشرطة حيث كانا دفعة واحدة وتكونت بينهما صداقة دامت إلى تلك اللحظة بالرغم من أن أدهم دائمًا ما يعترض على أساليب طارق في عمله وطرق انتزاعه للمعلومات، وقد كان طارق يعلم جيدا أن أدهم ضابط جيد ومتفانٍ في عمله وشديد الذكاء..إلا أنه حينما سأله قياداته يومًا ما عن رأيه في أدهم لم يتردد في القول بأنه لا يصلح للانتقال للعمل في الإدارة نظرًا لتعنته دائمًا في استخدام بعض الأساليب التي قد يراها طارق ضرورية لتأدية عمله.

اتجهت الأنظار إلى أدهم عند دخوله، وهم طارق بتحيته إلا أن أدهم جلس على الكرسي الفارغ، وقال بعملية:

- ها؟ وصلتوا لحاجة؟

قال الرائد طارق وهو يشعل سيجارته:

- إهدا يا أدهم إنت عارف إن الوضع اللي إحنا فيه حساس أوي..عندي تعليمات عُليا بإنهاء الموقف ده بأسرع ما يمكن وبهدوء بقدر المستطاع، وإنت فاهم سمعتنا مش ناقصة.

قال أدهم غاضبًا:

- سمعتنا؟ هو ده اللي هاممكم؟ سمعتنا؟ وفي إنسانة حتتقتل وإنتوا أهم حاجة عندكم سمعتنا؟

صمت طارق قليلاً وهو يحرك سيجارته في الهواء ثم قال:

- أنا عارف يا أدهم إن الموضوع بالنسبة ليك شخصي ويمكن ده السبب اللي علشانه استدعيناك النهاردة لأنك يفترض إنك أكتر واحد عارف إن الأمور دي بالنسبة لينا شغل ومايِنفعش ندخل العواطف الشخصية فيها و..

قاطعه أدهم:

- المهم دلوقتي هانعمل إيه؟

ابتسم طارق وقال وهو يتحاشي النظر لأدهم:

- معلشي يا أدهم إنت مش هاتبقى معانا في الملف ده إنت بتشتغل في أمن المطار بخلاف إن زي ما كنا بقول من شويه..الموضوع عندك واخد طابع شخصي.

هم أدهم بقول شيء فقال له طارق:

- دلوقتي يا أدهم عاوزينك تحكيلنا عن أسيل ..

احكيلنا كل اللي إنت تعرفه عنها .. بالتفصيل..

***

جلست شيرين في غرفتها محاولة السيطرة على دموعها ولكن دون جدوى، دموعها لم تتوقف منذ أن رأت أسيل في نشرة الأخبار وهم يضعون السكين على رقبتها ويهددون بقتلها..كان المشهد لا

أتت لها والدها بكوب من الماء، وهي تحاول أن تهدئ من روعها قائلة:

- ماتقلقيش يا بنتي كل حاجة هاتتصلح إن شاء الله. البوليس في الحالات دي مش هايهدى إلا لما يخلصها من إيديهم مانتي عارفة الحاجات دي بتخلي الحكومة شكلها وحش فابيهتموا بيها جدًا.

صمتت شيرين قليلاً ثم قالت:

- وأنا هاقعد استنى كده لحد ما هم يتصرفوا؟ أنا لازم أعمل حاجة.

- هاتعملي إيه بس يا بنتي وهو إحنا في إيدينا إيه؟

نظرت شيرين فجأة إلى هاتفها المحمول وقد ظهر علي وجهها أنها قد تذكرت شيئًا فأمسكته، وجعلت تبحث في الأرقام حتى برقت عينيها وهي تقول:

- الرائد أدهم ممكن يكون عنده أخبار.

حمدت الله وهي تضغط زر الاتصال على أن أسيل قد أعطتها رقم أدهم قبل عيد ميلادها لتدعوه بنفسها والحمد لله أنها احتفظت بالرقم ولامت نفسها على أنها لم تتذكر ذلك منذ أن اختفت أسيل.

سمعت الجرس فارهفت سمعها حتى سمعت صوت أدهم فبادرت بالكلام سريعًا وقالت:

– الو يا أدهم أنا شيرين صاحبة أسيل.

جاءها صوت أدهم يشوبه بعض التوتر وهو يقول:

– إزيك يا آنسة شيرين؟ كويس إنك اتصلتي لأني كنت عاوز اسالك على شوية حاجات ومكنش معايا رقمك.

– أنا اللى عاوزة اسالك يا أدهم أسيل عامله إيه؟ وإيه اللي بيحصل؟ مفيش حد غيرك ممكن يجاوبني.

– أنا زيك يا شيرين ماعرفش حاجة، وعلشان كده أنا عاوزك.

– أنا تحت أمرك.

– بصي أنا حروح مشوار لواحد صاحبي صحفي في جريدة النهار وبعدين نتقابل في مركز الإبداع تعرفيه؟

– أيوه اللي ورا دار الأوبرا ده..إنت حتكون هناك إمتى؟

– خلال ساعة بالضبط.

– وأنا حكون بانتظارك.

بتلك الكلمات أنهت شيرين مكالمتها مع أدهم ونظرت لوالدتها وأثار الدموع بين جفونها وهي تقول:

– دعواتك يا ماما.

احتضنتها والدتها قائلة:

– متخفيش إن شاء الله خير وهاترجعلنا بالسلامة.

حملت شيرين حقيبتها متجهة نحو دار الأوبرا المصرية.

في هذا الوقت كان أدهم قد وصل إلى الجريدة التي يعمل بها أحمد. لا يعرف لماذا ذهب إلى هناك، ولكنه لم يجد طريقًا آخر في تلك اللحظة، فهو على وشك فعل أشياء كثيرة ويحتاج إلى من يدعمه.

فوجيء بأحمد يخرج من الجريدة وما أن رآه أحمد حتى قال له:

- أنا كنت هاتصل بيك يا أدهم أنا لسه عارف الخبر دلوقتي.

- مانا جايلك علشان كده عاوزك معايا مش عارف أفكر كويس لوحدي، يلا هانروح مشوار الأول.

- فين؟

- شيرين زميلة وصاحبة أسيل مستنياني فا تعال معايا علشان مانتأخرش عليها.

استقل أحمد سيارة أدهم ولاحظ بطرف عينه أن أدهم يتحسس مسدسه من وقت لآخر وهي عادة لم يكن يراها في أدهم من قبل. إذ كان دائمًا يتعمد إخفاء مسدسه عندما يكون في زيّ مدني حتى لا يحصل على أي تعامل استثنائي، وكان يعتبر الضباط الذين يفعلون ذلك بأهم "غاويين منظره".

نظر أحمد إلى أدهم وقال له في قلق:

- أدهم أنا مش عاوزك تتصرف بتهور وخلي الأمور تمشي طبيعي.

- يعني إيه أخليها تمشي طبيعي؟

أضاف أدهم بحدة:

- ماحدش هايجيب العيال اللي عملوا كده غيري يا أحمد.

ثم نظر إلى أحمد بعصبية وقال:

- لو مش هاتبقى معايا قول من دلوقتي.

- معاك أكيد يا أدهم بس هاتعمل إيه إنتَ عرفت أي حاجة عن اللي خطفوها؟

- مستني اتصال في أي لحظة دلوقتي من ضابط زميلي هاينقلي أي حاجة عرفوها في الإدارة.

صمت أدهم وظهر عليه أنه يفكر بعمق شديد فاحترم أحمد صمته، ولم يتكلم حتى وصلا إلى المكان الذي تنتظرهما به شيرين.

ترجّلا من السيارة، ونظر أحمد إلى المنحوتة الكبيرة التي تمثل عمود مدبب قليلاً، والتي تتوسط حديقة مركز الإبداع وابتسم في سخرية عندما تذكر أول مرة جاء مع أدهم فيها إلى المركز، ومن يومها وهو مصر على أن من نحت ذلك الشكل السيريالي كان يقصد أن ينحت خازوقًا ولا علاقة له بالفن على الإطلاق.

لاحت منه التفاته إلى إحدى الفتيات الجالسات وحدهن ووجد نفسه معجب بأناقتها والحزن البادي على وجهها، ولكنه ما لبث أن تذكر أنهم في ظرف لا يحق له فيه التفكير في مثل هذه الأمور ولكنه فوجيء بأدهم يتجه ناحية تلك الفتاة قائلاً:

- إزيك يا شيرين؟ اقدملك أحمد صديقي صحفي بجريدة النهار.

ردت شرين التحية، ثم قالت:

- حتعمل إيه يا أدهم؟ أنا حموت من القلق على أسيل.

قال أحمد:

- إهدو يا جماعة شوية إن شاء الله خير.

نظرت إليه شيرين وأثار الدموع في عينيها:

- إنت تعرف أسيل يا أستاذ أحمد؟

قال أدهم مقاطعًا:

- أنا كلمت أحمد على أسيل كتير.

تجاهلت شيرين رد أدهم وعاودت السؤال:

- إنت تعرف أسيل يا أستاذ أحمد؟

رد أحمد وقد بان عليه الإحراج:

- لا معرفهاش بس سمعت عليها كتير من أدهم زي ما قالك.

قالت شيرين:

- لو كنت عرفتها كنت هاتقدر احساسنا بالقلق لاحتمال خسارة واحدة زي أسيل.

أحضر النادل كأسًا من الليمون كانت قد طلبته شيرين، وسأل أحمد وأدهم إذا كانا يريدان أن يشربا أي شئ فقال أدهم:

- قهوة مظبوط.

وقال أحمد:

- أنا كمان زيه.

لاحت نظرة طويلة من شيرين ناحية المنحوتة التي تقبع خلف الطاولة التي يجلسون عليها فنظر أدهم وراءه ليرى بماذا تحدق فقال لشيرين:

- إنتي بتبصى على إيه؟

رددت شيرين في حزن وهي لا تزال تحدق بالمنحوتة خلف أدهم:

- إفتكرت أسيل، كانت المنحوتة دي بتعجبها أوي زي ما بتعجبني.

رفع أدهم حاجبيه في دهشة وهو يعيد النظر إليها، ولاحظ أن أحمد يحاول إخفاء ضحكة مكتومة فعقد حاجبية في غضب وقال لشيرين:

– خلينا نرجع لموضوعنا يا شيرين..أنا دلوقتي محتاج منك شوية معلومات.

قالت شيرين بغضب وكأنها لم تسمع سؤال أدهم:

– الله يلعن اليهود كلهم مش هايسيبونا في حالنا أبدًا؟

نظر إليها أحمد قائلاً:

– هم مالهم اليهود بس بالموضوع ده؟

ردت شيرين:

– ماهو اللي حصل لأسيل ده بسبب إن في ناس افتكروها منهم..ولاد الكلب دول هايفضلوا ورانا ورانا كده.

تنحنح أحمد وهو يعتدل وقال:

– آنسة شيرين معلشي عاوز أوضح لك حاجة مهمة، لازم نفرق بين اليهود وبين الصهاينة..لأن إسرائيل مشروع صهيوني في الأساس مش يهودي وعلشان كده هاتلاقي يهود كتير في العالم ضد مشروع إقامة الدولة الإسرائيلية.

ثم أضاف وهو يقترب برأسه منها عبر الطاولة:

– بمعنى إحنا مش لازم نبقى ضد اليهودية في حد ذاتها لأنها ديانة الاعتراف بوجودها جزء من ديننا.

صمتت شيرين لثواني كأنها تقلب كلام أحمد في عقلها:

– لا يا أستاذ أحمد أنا شايفه إن الصراع صراع ديني بحت، صراع إسلامي يهودي بغرض إقامة دولة يهودية ولو رجعنا للتاريخ

هاتلاقي إن الصراع ده كان دايمًا موجود من أيام الرسول عليه الصلاة والسلام لحد دلوقتي.

بدا على أحمد عدم الإقتناع حتى قاطعهم أدهم بقوله:

– مش وقت المناقشات دي يا جماعة يا ريت ناجلها شوية.

قالت شيرين في حيرة:

– طيب يا أدهم هاتعمل إيه دلوقتي؟ إحنا في إيدينا إيه نعمله أصلاً؟

قال أدهم ضاربًا بقبضة يده على الطاولة:

– أنا مش هاسكت واقعد اتفرج. اللي عمل كده في أسيل مش هاسيبه ولو كان ده آخر يوم في عمري.

رن فجأة هاتف أدهم المحمول فأجاب بسرعة:

– ها يا أشرف؟ قول..

إستمع قليلاً إلى محدثه ثم قال:

– ماشي يا أشرف أول ما توصلوا لحاجة تاني بلغني على طول أنا مش هانسالك الجميل ده أبدًا مع السلامة.

أغلق الهاتف ونظر إلى شيرين وقال:

– تعرفي واحد بيشتغل في كافيترية الكلية عندكم اسمه مصطفى؟

***

كان التعب قد تملك جسد أسيل النحيل وهي جالسة مكبلة اليدين تصارع جفنيها، حتى لا يغلبها النعاس وتغيب عن الدنيا. كانت تفكر بما قد يحصل، بوالدها ووالدتها وتغريد.

صور تتقلب في مخيّلتها من فلسطين ومن ثم تحولت الصور لمصر واثناء ما كانت الأفكار تتضارب برأسها سمعت الباب يفتح والظلام الدامس يتبدد في الغرفة شيئًا فشيئًا.

رفعت عينيها المنهكتين باتجاه الجسد المعتم الذي دخل، لتغمضهما مرة أخرى لتعتاد الظلمة، بعد لحظات فتحتهما ثانيًة لتجد مصطفى واقفًا أمامها يحمل كوبا من الماء البارد والقليل من الطعام.

كانت هناك طاولة صغيرة في طرف الغرفة لم تتنبه لوجودها إلا حينما سحبها مصطفى من عمق الظلام، ووضعها أمامها ووضع عليها الماء و الطعام.

نظرت إليه وقالت بتهكم خرج مشوبًا بإرهاق بادٍ عليها:

- مِش ناوين تُقْتُلوني؟ ليش بتْطَعمُوني؟

ولكن استغرابها زاد حين بدا يفك معصميها بهدوء حتى لا يؤذيهما، شعرت أن الحبل وقع على الأرض حركت يديها باتجاه النور كأنها تتأكد أنها لا تزال تملك كلتا يديها، وبدأت تتحسس موضع الحبل الذي ترك علامة حمراء على معصميها.

قرأت أسيل من قبل عما يسمى "عقدة ستوكهولم" وهي تعاطف الضحية مع خاطفها، وفكرت أنها ربما قد تكون أُصيبت بتلك العقدة عندما أحست ببعض الودّ تجاه مصطفى، ولكنها سرعان ما نفضت تلك الفكرة من رأسها كانت تصرفات مصطفى غير مفهومة وغريبة فعلاً على رجل كان منذ ساعات يتمنى أن يقتلها بيديه.

ترى ما الذي حدث؟

أحسّت بارتياح خفيف لتصرفه فعلى الأقل هي تتعامل مع شخص يمتلك مشاعر إنسانية.

تذكرت فجأة مروان ومساعديه فنظرت إلى مصطفى بنظرة يشوبها قليل من الفزع فهمها مصطفى على الفور وقال لها:

- خدي راحتك مفيش حد غير الحراس ومش هايقربوا من هنا.

قالت له بصوت منخفض:

- طَيّب مُمكِن تِطْلَع إنتَ كمَان شويّ؟

قال مستغربًا:

- ليه؟

ردت أسيل:

- بِدي أصَلي، ولا كمان مِش رَح تخَلوني أصلي؟

نظر مصطفى إليها وظهر على وجهه علامات عدم الفهم ولكن سرعان ما عقد حاجبيه وقال لها في حدة:

- ماتفتكريش إنك لو مثلتي إنك بتصلي هاتفرق معانا.

ابتسمت في مرارة وقالت:

- أنا بَصَلي لَربي مِش إلَك وما بيهمنيش كتير إنتَ إيش بتِعْتقِد فا لو سَمَحِت إتفَضَل عَلَشان أصلي. ولا بِدَك تِتفَرَج عليّ؟

أجاب مصطفى سريعًا في صوت خافت:

- لأ طبعًا.

خرج مصطفى مسرعًا من الغرفة وعاد يحمل جلبابًا رجالي ذا أكمام طويلة وشال.. واتى بمزيد من الماء لتتوضأ.

زاد تصرف مصطفى من استغرابها، أخذت منه الجلباب بصمت ونظرت إليه شاكرة فسألها:

- في كمان حاجة أقدر اساعدك بيها؟

- لا أبدًا.

هم مصطفى بمغادرة الغرفة إلا أنها سألته:

- هي القِبلة مِن وين؟

أشار لها على اتجاه القبلة وخرج ليتركها قليلاً وقد عاودته تلك الأفكار:

هل هم حقًا يقتلون إنسانة بريئة؟ ومسلمة؟

قد تكلم من قبل مع مروان في تلك النقطة، ولكن مروان كان دائمًا يؤكد له أنهم لا يقتلون أبرياء فالخائن مفسد في الأرض وعقابه دائمًا الموت.

ولكن هل أسيل خائنة؟

تذكر جنسيتها فعاد إليه شعوره بالغضب، واتجه إلى الغرفة التي بها أسيل ليفتحها ولكن سرعان ما سمع صوتها تقرأ القرآن في صلاتها بشكل سليم فتوقفت يده قبل أن تفتح الباب، وتراجع خطوتين.

يا الهي ألهمني الصواب ..!

قالها في نفسه وهو ينظر إلى السماء حتى سمع أسيل تختم صلاتها فاتجه نحو الباب، وقبل أن يفتحه طرق عليه مرتين ثم دخل.

وجد أسيل جالسة تدعو الله فقال لها محاولاً إظهار بعض القسوة بعد أن أحس أنه لان أكثر من اللازم:

– إنتي بتصلي برضه في إسرائيل كده ولا إنتي هناك بتبقى منهم؟

تجاهلت أسيل للحظة كلام مصطفى حتى أنهت دعائها ثم نظرت إليه قائلة:

– ولَو كُنت بالمريخ رَح أصلي لَرَبي..إنتَ إيش مُشكِلتَك مع صلاتي؟

نظر إليها مصطفى صامتًا لثوان ثم قال:

- بتصلى إزاي وإنتِ ....

نظر إلى ملابسها التي ترتديها بعد أن خلعت الجلباب الذي كانت تصلي به ثم أضاف:

- بتصلي إزاي وإنتِ لابسه كده؟

فكرت أسيل قليلاً ثم قالت:

- يا مصطفى مَفِش إنسان كامل، كل إنسان بيتْعَامل مع رَبنَا بشَكِل مِختلِف عن التاني، وكل واحد حَسَب مُعتقداتُه بيؤمن بإنه في إله، وبيؤمن إن في ثواب وفي عقاب بيستَنى كل بني آدم. في النهاية بنتْعَامل مع هذا الموضوع بِشَكِل مُختَلِف عن التاني، تِنكِر إنَّك بترتكب معاصي؟ ولا إنتَ مَعصوم؟

رد مصطفى:

- مفيش حد معصوم من الخطأ.

- ومع هيك بتصَلي. وصلاتك وقتها مِش مَقبولة؟

وقبل أن يرد أكملت:

- يمكن أكون بَرتكِب مَعصيِّة مِن وجهة نَظَرَك ويمكِن أكون بَعمِل إيشي غَلط..بَسْ بَعمِل مُقابلُه ألف إيشي صَح..كُلنا نِفسنَا نكون كاملين بَس عُمِرنا ما رَح نعرَف نكُون كاملين بتِعترِض على

لِبسي؟ طَبْ لو غَطيت حَالي ولبِست الحجاب وإرتَكَبت أي كبيرة من الكبائر ساعِتها لِبسي رَح يشفعلي؟ ومِن نَاحية تانيِّة وأنا لابسه هذا إلّلبس اللي مِش عاجبَك، وأفطَرت صايم مِشْ رَح تِنكِتِب عِند الله إني عمِلت هيك؟

قام مصطفى وهو يقول:

- الأمور مش بتمشي كده.

قاطعته أسيل وهي تقول:

- لا لا ما بديش إيَّاك تجاوب بنفَع ولا لأ..لأنه بِبَساطَة هذا الإشي بإيد ربنا وبَسْ.

ثم تلت أسيل الآية الكريمة من سورة آل عمران:

- "وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"

ثم أضافت:

- ربنا بيقول يا مصطفى كمان في سورة النساء: "إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء" يعني مِش إنتَ ولا أنا اللي رَح نُحكم على مِسلِم إنه كافر.

كانت الحماسة قد ظهرت على وجهها حين أيقنت أن كل ما تعلمته من أهلها ومن معلميها وما قرأته ودرسته واقتنعت به يمكن أن يُغير من قدرها الآن.

قال مصطفى وقد بانت الحيرة على وجهه:

- إنتِ عرفتِ الكلام ده منين؟

- لأني مِسلمِة من عيلِة مِسلمِة وأبوي كان يقرأ معي القرآن ويخليني أصلي جنبُه.

قام مصطفى من مكانه وهو يقول في حدة:

- بس إنتِ عايشة مع اليهود..مع إسرائيليين..مع ناس بيقتلوا قدام عينيكي كل يوم أطفال ونساء المسلمين بدم بارد.

ثم نظر إليها وقال في بطء:

- وواضح كمان إنك بتحبيهم أوي وسعيدة بالحياة هناك وسطيهم..لو إنتو فعلاً فيه منكم أمل مكانوش سابوكم تعيشوا هناك لأنهم عارفين إنكم هاتفضلوا ساكتين وموافقين على أفعالهم طبعًا.

لوحت أسيل بيديها ولكن مصطفى أضاف بسرعة:

- وعلشان كده إنتوا زيكم زيهم ويقع عليكم ما يقع عليهم.

نظرت أسيل لمصطفى قائلة:

- يعني إنتَ هون ما بتفَرِقش بين الضحية والمغتَصِب. ممكن تقولي مين أنا من وجهة نظرك بَسْ عَلَشان أعرف مع مين أنا بَحكِي.

رد مصطفى وهو يشير إليها:

- إنتِ فلسطينية خانت وطنها وعاشت مع المحتل وفي ظله.

ابتسمت بسخرية مريرة ونظرت لمصطفى وهي تقول:

- هلأ أنا خايِنة وقبل شوي كُنِت كافرة. إيشْ كمان؟

نظر إليها مصطفى غاضبًا وقد استفزته سخريتها:

- إنتِ بتتريقي؟! واضح فعلاً إن مفيش فايدة.

صمتت للحظات بعد أن أغمضت عينيها كأنها تحاول نفض التعب من رأسها:

- الفَلَسطيني يا مصطفى وين ما كان بيبقى فَلَسطيني، في المنفى فَلَسطيني، في الـــمُخَيمات فَلَسطيني وفي الـــمهجَر فَلَسطيني.

وصمتت للحظة لتقوم من مكانها متجهة نحو الباب ومصطفى يتبعها بنظره لتعاود الاقتراب منه قائلة بصوت خافت:

- وحتى في إسرائيل بيضَل فَلَسطيني.

رد مصطفى في حدة:

- إنتِ عايشة ومبسوطة في إسرائيل وغيرك عايش في مخيمات وبيقاوم وبيدفع التمن من دمه.

أغمضت أسيل عينيها بقوة محاولة استخراج الكلمات الصحيحة من أعماق تفكيرها، إلا أن آلام الرأس زادت فاستجمعت قواها قائلة:

- إنتَ أكيد بِتشوف الأقصى والمصلين على الفضائيات.

- أكيد بشوف.

أكملت:

- مين حَسَب رأيك بيصلي في المسجد الأقصى؟ مين اللي بيدافع عن مُقدسَاتنا وعن مَساجِدنا وفَضَح الـمُمَارسات الإسرائيلية في الحَفِر تحت الأقصى؟

رد مصطفى في غضب:

- لولا الشيخ رائد صلاح وأمثاله كان اللي زيكم ساعدوهم في هدمه.

- ابتسمت أسيل وهي تقول:

- مصطفى؟ إنت مابتعرفش إن الشيخ رائد صلاح هو كمان من فلسطيني ٤٨ وحامل الجنسية الإسرائيلية؟

تراجع مصطفى للوراء وكأنما صدمه هذا..سرعان ما تحولت تلك الصدمة إلى حيرة شديده لم يستطع تلك المرة أن يداريها..كان ظاهرًا عليه أنه يحاول أن يقول شيئًا ولا يستطيع فقد كان في تلك اللحظة تتصارع بداخله كل قناعاته السابقة.

يا رب ألهمني طريق الصواب "دعا ربه ثانياً بداخله".

ثم نظر إليها بعدما أصبح أكثر هدوءًا وهو يقول:

– بس لو كنتم فعلاً بتشعروا بأن الصهاينة محتلين لأراضيكم كنتم قاومتم، ولو كان الصهاينة حسوا بخطر منكم ماكانوش هايسيبوكوا عايشين ومبسوطين كده..مين منكم دفع الثمن بدمه زي المقاومة اللي بيدفعوا كل يوم؟

نظرت إليه وقد ظهر عليها التعب وهي تقول:

– يوم ما اتقتلوا ١٣ شاب بعُمُر الورد على إيد قَناصة الشُرطة الإسرائيلية كُنا غاضبين لأنه إحنا عارفين إنهم رَح ينسوا جريمتهُم بَعِد ما يبرؤا القاتلين..كأنه الدم الفَلَسطيني مُبَاح كيف ما بينسوا كُل جريمة بيرتكبوها بحق الفَلَسطينين..بَسْ ما توقعتِش إنه في عربي ممكن ينساهم. ١٣ شاب إتقَتَلوا بدم بارِد لأنهم إعترضوا على دُخول شارون سنة ٢٠٠٠ باحة الأقصى وإنتَ هلأ جَاي بتقولي مِين بيدفع التمن؟ شرارة الإنتفاضة التانية للفَلَسطنيين إنطَلقَت منّا إحنا اللي بتسمونا عرب ال٤٨، وإحنا بِندفع الثمن كل يوم من سنة

١٩٤٨ لليوم. من أول القَتِل والتشريد من بيوتنا وأراضينا لحد هاي اللحظة كمان التعذيب مثل اللي طال إبن الناصرة لحد ما ... إتصلب!

نظر مصطفى إليها ثم تلا بغضب قول الله تعالي:

- "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـــكِن شُبِّهَ لَهُمْ".

ثم أضاف في غضب:

- مالك ومال السيد المسيح عليه السلام؟ مش كونه من نفس بلدكم ده هايخليكم ملائكة..!

نظرت إليه باستغراب ممزوج بالألم.

- مين جاب سِيرة السيد المسيح عليه السلام..!!؟ أنا بَحكي عن الشاعِر المناضِل توفيق زياد...!

***

عقد الرائد طارق حاجبيه وهو ينظر بتمعن في الملف الذي أمامه..كان هذا الملف عن خلية تسمي نفسها "جماعة انصار العدل"..كان غاضبًا من نفسه لأنه كان يراقب تلك الخلية جيدًا منذ فترة والآن يبدو أنها هي من قامت بخطف أسيل بدون أن يعرفوا..كان يشعر أن تلك إهانة لشخصه لذلك كان يأخذ مهمة القبض عليهم وتصفيتهم كثأر شخصي..في الحقيقة هو ليس آسفًا لهذه الدرجة على خطف أسيل فهو يعتبر ما حدث في النهاية هو

القشة التي ستقصم ظهر تلك الخلية. الآن سيكون مصيرهم الإعدام وليس الاعتقال فقط.

هذا هو جزاؤهم الذي يستحقونه على خداعه، وعلى إظهاره لأول مرة بمظهر المتخاذل في عمله أمام رؤسائه.

كانت هناك دائمًا مشكلة مع تلك الخلية..إنه لم يستطع معرفة من هو زعيمهم..لم يظهر أبدًا و لم يشاهده ولا يعرفه أحد من أفراد الخلية..فقط من يسمى مروان هو من يتعامل معه وهو يراقب مروان عن كثب ولكنه لازال لا يعرف شيئًا.

فقط عرفوا مؤخرًا شيئًا واحدًا... أهم يلقبونه بـــ "الدكتور".

ترى هل هو طبيب فعلاً؟ أم حاصل على الدكتوراة؟ أم هو مجرد لقب ليداري به شخصيته؟

أغلق طارق الملف وأسند بظهره إلى الوراء متأملاً حتى سمع طرقات على باب مكتبه فعدل نفسه قائلاً:

– إتفضل.

دخل أحد الضباط معلنًا:

– مصطفى المرسي إختفي يا فندم تمامًا، وآخر مرة شوهد كان يوم اختطاف أسيل الصبح.

قال طارق وهو يقوم من وراء مكتبه:

- ده بيأكد مرة تانية إن جماعة "أنصار العدل" هم اللي ورا الموضوع ده..طيب ومروان؟

- مروان قدر امبارح الصبح يهرب من المراقبة بس بعد كده ظهر في بيته بالليل تاني.

توقف طارق عن سيره فجأة ونظر إلى الضابط وقال:

- نعم؟!! قدر يهرب؟!! ده معناه إنه كان عارف إننا بنراقبه من البداية وعلشان كده قدروا يعملوا اللي هم عاوزينه من غير ما نعرف.

كان يعرف أنه قد أخطأ منذ البداية عندما اختار مروان فقط ليراقبه، وكان المفروض أن يراقب كل من يعرف أنهم أعضاء في تلك الخلية، ولكنه لم يرد أن يصرح بذلك أمام الضابط..فقال وهو يضرب بيده على المكتب ليخرج كل الغضب الذي اشتعل بداخله:

- أنا بقى المرة دي هاوريهم مين هو الرائد طارق سليم.

نظر إلى الضابط وقال له:

- تقدر تتفضل ولكن عينيكم ماتروحش من على مروان أبدًا، وتدوروا على مصطفى ده وتجيبهولي من تحت الأرض فاهم؟

نظر إليه الضابط بوجه خال من أي تعبير، ورفع يده بالتحية وهو يهم بالانصراف وقال:

- فاهم يافندم.

***

ذهب أدهم إلى البيت عله يستطيع أن يريح جسده المنهك من التعب والقلق والإرهاق، بمجرد دخوله الباب ورؤيته وجه والدته استطاع أن يقرأ من ملامحها كأن مصيبة قد حلت على البيت وهو مشغول بالبحث عن أسيل.

نظر إليها مذعورًا:

- في إيه يا أُمي؟ حصل حاجة؟

رمقته بعينين دامعتين وهي تقول:

- هي أسيل إسرائيلية يا أدهم؟

صمت أدهم قليلاً وأطرق برأسه وقد أدرك أن والدته شاهدت الأخبار، ثم أمسك أدهم والدته من يدها قائلاً:

- لأ يا أُمي أسيل فلسطينية.

قالت وقد بدا عليها الغضب:

- أسيل عايشة فين يا أدهم؟

أجاب:

- جوه إسرائيل... لكن يا أُمي ..

سحبت يدها من يده في حركة سريعة وتراجعت خطوة للوراء وبدأت تبكي وهي تقول:

- بس إيه يا أدهم؟ جايبلي واحدة عايشة مع اللي احتلوا أرضنا وبيقتلوا اخوانا كل يوم؟! جايبلي واحدة بتاكل وبتشرب كل يوم مع اللي قتلوا أبوك يا أدهم؟

أمسك بها أدهم وقد كادت أن تقع على الأرض وأجلسها على الكرسي وهو يقول:

- أسيل فلسطينية من أم وأب فلسطينيين بس علشان اهلها فضلو عايشين في فلسطين حتى بعد الإحتلال الإسرائيلي هي عاشت هناك..كنتي عاوزاهم يهاجروا ويسيبوا أرضهم هم كمان يعني يا أُمي؟ وهي قالتلك وحكتلك عن تاريخ عائلتها وإن والدها من قرية البروة ووالدها من يافا والمكانين في فلسطين.

صمتت والدته وأدارت رأسها وهي تتحامل على نفسها وتقوم وكأنها تنهي الحوار، وما أن وقفت حتى قالت لأدهم بدون أن تنظر إليه:

- أنا هاقوم أصلي وأنام و...

صمتت قليلاً ثم أضافت:

- وابقى طمني عليها.

اقترب أدهم من والدته وقبل رأسها قائلاً:

- ربنا يخليكي لينا..معلش يا أُمي حدخل أرتاح لأني تعبان أوي.

قَبَّل يدها قبل أن يتجه لغرفة نومه ورمى بنفسه على السرير محاولاً الارتياح والاسترخاء ولكن...

هيهات...

***

استقل أدهم سيارته وقد ظهر على وجهه الارهاق الشديد فلم يستطع النوم للحظة واحدة منذ الأمس..كان صديقه في الإدارة قد أخبره بأهم قد استطاعوا أن يصلوا إلى تلك الخلية التي خطفت أسيل أو بمعنى أصح قد عرفوها فقط..فقد فقدوا أثارها تمامًا.

قرر التوجه إلى المنطقة التي يعيش فيها مصطفى والذي شوهد بالقرب من مترل أسيل قبل الحادث وقد أدرك أنه في الغالب هو من أثار رعبها عندما لاحظت مراقبته لها.

ذهب أولاً ليأخذ أحمد معه كما إتفقا.

وما أن توقف أمام مبنى الجريدة حتى فتح أحمد الباب وركب مستفسرًا:

- إتاخرت ليه؟

- الطريق زحمة يا أحمد معلشي.

نظر إليه أحمد وقد لاحظ الارهاق البادي على وجهه:

- واضح إنك مانمتش.

- وإنت كنت متوقع إن هايجيلي نوم؟

وصل أدهم إلى حارة لا يستطيع الدخول فيها بسيارته فأوقفها وترجلا منها ليكملا طريقهما إلى مترل مصطفى سيرًا على الأقدام.

كان منظرهما غريبًا وسط تلك الحارة التي يظهر عليها الفقر الشديد.

لماذا دائمًا يخرج التطرف من تلك الأحياء شديدة الفقر؟

فكر أدهم في ذلك وهو يسير بجوار أحمد في هدوء وعيون الناس تتجه نحوهما من حين لآخر وقد أدهشهم هذان المتأنقان اللذان لا يرون مثلهما كثيرًا في تلك المنطقة.

نظر أدهم إلى الشباب الواقفين على ناصية الحاره وقد ظهر على وجوههم اليأس من وجود هدف لهم في تلك الحياة.

قال أحمد وكأنه قرأ ما بداخل أدهم:

- تخيل يا أدهم شاب إتولد في حي فقير وسط بيئة حتى المفاهيم الدينية الصحيحة غايبه فيها، وسط عيلة يمكن مايكونش شاف فيها والده بيصلى ولا حتى مره. ولما يكبر شوية هايخرج علشان يشتغل جارسون في مطعم من المطاعم أو بياع في محل من

المحلات..هايشوف قدامه شباب وبنات في نفس عمره بيصرفوا في ساعة واحدة اللي هو محتاج سنين علشان يجمعه.

يحاول يشتغل أكتر..بس مابيلاقيش مقابل عادل.. بيحاول يجتهد أكثر..

ويتعب أكثر..

لكن مين قال إن الاجتهاد دلوقتي هو الطريق للنجاح...؟!!

ولما يفهم ده.. !

إعرف بأن المجرمين زادوا واحد...

أكمل أدهم سيره بجوار أحمد وهمّ بأن يعلق إلا أنه لاحظ العلامة التي تميز مترل مصطفى والتي قالها له صديقه في الإدارة. فتوقف وأشار لأحمد:

- هو ده البيت.

نظر أحمد إلى المترل المتهالك وتراجع خطوة إلى الوراء بشكل غريزي وقد أحس أن المترل سينهار عليه في أية لحظة.

"يا إلهي كيف يعيش أحد في مثل هذا المترل"

فكر أحمد في هذا وهو يقول لأدهم:

- حاول ماتقولش إنك ضابط وإلا هايخافوا يقولوا أي حاجة.

هز أدهم رأسه بالإيجاب واتجه إلى باب المترل، وصعد ثلاث درجات حتى وجد بابًا على يمينه فطرقه بهدوء وانتظر حتى سمع صوت امرأة فقال:

– إحنا من جرنال "النهار" عاوزين نسألِك على مصطفى يا حاجة.

سمعا صوت الباب يفتح وظهرت إمرأة قد زادها الهم والفقر سنينًا فوق عمرها فبدت وكأنها في السبعين من العمر وقد كانت لا تزال في منتصف العقد الخامس.

نظرت إليهما وقد ظهر عليها أثر بكاء وقالت:

– في إيه تاني أنا قلت للحكومة كل حاجة إنتو عاوزين إيه تاني من مصطفى؟

قال أحمد مُهدئًا:

– ماتقلقيش يا حاجة إحنا جاين علشان مصلحته.

قالت له وقد سالت من عينيها الدموع:

– مصلحته إيه؟ إبني ماعملش حاجة علشان تقول كده حرام عليكم إنتو كلكم عاوزين تتبلوا عليه ليه؟ عاوزين تكتبوا في الجرانين إنكوا لقيتوا إرهابي مش كده؟

قال أدهم وهو يحاول تهدئتها:

- جرى إيه يا حاجة ما تقلقيش..مين قال بس إن مصطفى إرهابي؟ وبعدين هاتسيبينا على الباب كده كتير؟ مفيش كباية شاي من إيدك الحلوين طيب؟

تراجعت وهي تفتح الباب وقالت:

- اتفضلوا يا ولادي.

وقفت حتى دخل أحمد وأدهم وجلسا على أريكة قديمة في الصالة فاغلقت الباب وجلست أمامهما تعد الشاي على موقد صغير موضوع في الصالة فبادر أدهم بسؤالها:

- مصطفى فين يا حاجة؟

قالت وقد غلبها البكاء مرة ثانية:

- والله يابني هو قالي إن صحابه جايبينله شغل لمدة أسبوعين في الاسماعيلية وهايطلع منه بقرشين كويسين. بس من يوميها ما بيتصلش بيا ولا أعرف عنه حاجة.

قال أدهم:

- ومفيش أي رقم تليفون بتتصلي بيه عليه؟

- هو كان قالي هايتصل بيا يديهولي وماتصلش من ساعتها لسه.

قاطعهم أحمد وقال:

– شوفي يا حاجة..هو البوليس قالِك اللي حصل؟

قالت بصوت مختنق:

– أيوه يا ابني..هم قالولي إن مصطفى شغال مع جماعة إرهابية وخطفوا واحدة أجنبية..بس أنا ابني مايعملش كده مصطفى شاب متدين وطيب أوي وهو اللي بيشتغل وبيصرف على البيت من ساعة ما وعي على الدنيا دي ولقا أبوه الله يرحمه مسجون.

سأل أدهم:

– أبوه اتسجن ليه؟!

– أبوه كان إنسان متدين ويعرف ربنا أوي يابني بس ربنا يجازي اللي كانوا السبب وخلوه يشيل السلاح معاهم. لحد ما جم خدوه الفجر في يوم ومارجعش البيت تاني من بعدها لحد ما مات في السجن.

نظر أحمد وأدهم إلى بعضهما ثم قال لها أدهم:

– إحنا يا حاجة مش عاوزين مصطفى يحصله نفس اللي حصل لوالده الله يرحمه بس مش هانعرف نعمله حاجة من غير ما نعرف مكانه، وبعدين يا حاجة إحنا مش حكومة ولا صحفيين من إياهم اللي بيفبركوا أخبار وإلا ماكناش جينالِك النهاردة وكنا كتبنا أي حاجة من عندنا.

صمتت قليلاً ثم تنهدت وقالت:

- شوف يابني أنا هاتكل على الله واقولك اللي اعرفه وأملي في ربنا كبير إنك تقدر تساعد مصطفى. النهاردة الصبح يابني جالي واحد صاحبه بلغني منه رساله بإني ما اقلقش وإنه ماشي في الطريق الصح وطلب مني أدعيله بس صاحبه مارضاش يقولي مكانه..والله يابني ماعرف غير كده.

سألها أدهم:

- ومين صاحبه ده؟

- علاء إبن الحاج سمير هاتلاقيه ساكن في أول بيت على ناصية الحارة..هاتلاقيه بابه خشب لونه أخضر كده..هم أول دور على طول.

قام أدهم من مكانه وهو يقول:

- خلاص يا حاجة وماتقلقيش..إن شاء الله خير.

قامت لتفتح لهما الباب قائلة:

- بس بالله عليكم ياولادي طمنوني لو عرفتوا مكانه ولو شفتوه قولوله أُمك يا مصطفى مش حمل إنها تخسرك إنتَ كمان.

تأهبا للخروج وكان أدهم متأثرًا بتلك الأم الطيبة..كان يعرف أن ابنها في كل الأحوال قد انتهي مستقبله تمامًا فهو الآن أحد الخاطفين.

قبل خروجه من الباب أخرج مبلغًا من المال كان يحتفظ به معه للطوارئ ودسه في يد والدة مصطفى، وقبل أن تقوم بأي رد فعل خرج وأغلق الباب وراءه وبدأ يسير وهو يفكر في الخطوة التالية.

قطع أحمد تفكيره قائلاً:

- هانعمل إيه دلوقتي؟

أبطأ أدهم من خطوته وهو يقول:

- لازم نلحق علاء ده لو مكانش لسه رجع لمصطفى.

- أنا رأيي نستناه قريب من البيت ونراقبه وهو خارج.

صمت أدهم قليلاً ثم قال:

- مفيش وقت يا أحمد إننا نستناه كل دقيقة بتمر علينا بتمر كمان من عمر أسيل.

- أُمال هانعمل إيه؟

قال أدهم وقد ظهرت على وجهه نظرة غريبة:

- هاتعرف دلوقتي.

وصلا إلى البيت ووقفا أمام بابه الخشبي الأخضر كما وصفته والدة مصطفى، وأخذ أدهم نفسًا عميقًا ثم دخل واتجه نحو باب البيت وطرق الباب بخشونة متعمدة حتى سمع صوت امرأة تقول:

- مين؟

- إفتحي الباب أنا الرائد أدهم أمن دولة.

سمع صوتًا في الداخل يقول:

- ماتفتحيش يامه.

ثم سمع صوت شباك يفتح فخرج من باب المترل سريعًا ليجد علاء يقفز من شباك صغير فانطلق بسرعة البرق ليمسك به، بمجرد أن لامست قدماه الأرض..أمسكه من ملابسه وجره إلى داخل المترل مرة أخرى ليجد أمه تقابله وهي تصرخ فدفعها أدهم بخشونة ودخل إلى الشقة ودفع بعلاء إلى الداخل ودخل وراءه.

كان أحمد واقفًا يشاهد هذا كله وهو مذهول فتلك أول مرة يرى فيها صديقه بهذه الحالة، وهو يعرف جيدًا أن أدهم لا يستعمل العنف أبدًا في عمله مهما حدث..أما الآن فهو يرى إنسانًا آخر تمامًا.

نظر علاء إلى أدهم صارخًا:

- عاوزين مني إيه؟ هو علشان أنا مربي دقني يبقى مفيش عندكم غيري؟

نظر أدهم إليه وهو يقول في صرامة:

- إنتَ عارف كويس أنا عاوز إيه وإلا ماكنتش هربت.

ثم شد أحد الكراسي وجلس أمامه قبل أن ينظر إلى والدته التي تملكها الرعب وقال لها:

- أُقعدي يا حاجة وإهدي وخلي ابنك يساعدنا علشان مايضيعش مستقبله.

همت والدته بقول شيء إلا أن علاء قاطعها قائلاً:

- أساعدكم في إيه؟ روحوا شوفوا إنتو بتدوروا على إيه بعيد عني أنا ماعملتش أي حاجة.

أخرج أدهم مسدسه ونظر إليه وهو يقول:

- إنتَ برضه مصر إنك ماعملتش حاجة؟

قال علاء وهو ينظر إلى المسدس في رعب:

- إنتَ هاتقتلني ولا إيه؟ صحيح مانتوا مالكومش كبير.

صرخت أمه عندما رأت المسدس فنظر إليها أدهم وصرخ فيها:

- لو ماسكتيش حالاً هاضربه بالنار قدامك.

صمتت أمه فجأة كأنما أصابها الخرس وانهمرت الدموع من عينيها.

في حين نظر أدهم إلى علاء مرة أخرى وقال له:

- هاسألك مرة واحدة بس وجاوبني.

ثم أخذ نفسًا عميقًا وسأله:

- فين أسيل يا علاء؟

صمت علاء ثم قال:

- قولتلك ماعرفش أي حاجة أسيل مين أصلاً؟

نظر إليه أدهم قليلاً ثم شد الأجزاء في مسدسه ورفعه فقال له علاء:

- هاتقتلني؟!! وماله..اقتلني..بإذن الله شهيد وإنتَ في نار جهنم مع أمثالك.

قال له أدهم في هدوء:

- ومين قالك إني هاقتلك إنتَ؟

ثم قام من مكانه وصوب مسدسه لرأس أُم علاء وهو يقول:

- أنا هاقتل أُمك قدامك الأول.

صرخت الأم صرخة مكتومة ونظرت نظرة استنجاد إلى ابنها الذي بدا على وجهه الرعب الشديد، وجرى أحمد ليمسك بيد أدهم وهو يقول:

- في إيه يا أدهم إنتَ بتعمل إيه؟

صرخ فيه أدهم:

- إرجع ورا يا أحمد.

ثم نظر لعلاء وهو يقول:

- قدامك خمس ثواني..لو ماقولتش على مكان أسيل هاتشوف أمك قدامك والرصاصة في دماغها.

قام علاء من مكانه وهو ينظر لأمه في رعب ثم هم بقول شيء ما، ولكنه جلس فجأة متهالكًا على المقعد وهو ينظر إلى الأرض قائلاً:

- خلاص هاقولَك على كل حاجة بس إبعد سلاحك عن أُمي.

أبعد أدهم سلاحه وإن لم يضعه في جرابه مرة ثانية وإنما صوبه على علاء وقال له:

- إحكيلي بقى يا علاء كل اللي تعرفه وماتهملش أي حاجة مهما كنت شايفها صغيرة.

وبدأ علاء يحكي كل ما حدث ..

بالتفصيل ..

***

كان الدكتور أمجد يتصفح أحد الكتب أمامه استعدادا لمحاضرته التي سيلقيها بعد قليل حين سمع طرقات على باب غرفته فأذن للطارق أن يدخل..فإذا بسكرتيرته قائلة:

- شيرين عمر ومعاها زمايلها عاوزين يقابلوا حضرتك.

أغلق الدكتور أمجد الكتاب أمامه وقال لها:

- خليهم يتفضلوا.

دخلت شيرين وكل أعضاء الشلة إلى مكتب دكتور أمجد وقبل أن تتكلم قال محمد موجهًا كلامه إلى الدكتور:

- آسفين يا دكتور إننا جينا فجأة بس قلنا يمكن يكون عندك أخبار عن أسيل فا حبينا نطمن.

قال دكتور أمجد وهو يقوم من وراء مكتبه متوجها حيث يقف الجميع:

- بصراحة يا جماعة أنا ماعنديش أخبار بالعكس أنا بعت لشيرين علشان عارف إنها بتكلم الضابط اللي تعرفه أسيل فا قلت يمكن يكون عندها أخبار.

جلست شيرين على كرسي أمامها بشكل يوحي بأنها مرهقة وقالت:

- والله يا دكتور آخر حاجة سمعتها إنهم عرفوا إن واحد من اللي بيشتغلوا بالجامعة مشتبه فيه.

قال دكتور أمجد بدهشة:

- نعم؟ في حد بيشتغل معانا مشترك في الموضوع ده؟

قالت شيرين بصوت خافت:

- مصطفى اللي بيشتغل في الكافيتريا.

ردت مِنّه بإستغراب شديد:

- مصطفى؟ ده شاب طيب جدًا ومتدين وعمرنا ما شوفنا منه حاجة وحشة.

قال الدكتور أمجد:

- بس هو فقير جدًا يا مِنّه.

ردت شيرين:

- الفقر مش عيب يا دكتور من إمتى الفقر كان مبرر للغلط؟

رجع الدكتور أمجد إلى كرسيه خلف المكتب وجلس عليه وهو يقول:

- الفقر مش مبرر الفقر عبارة عن مدخل، عبارة عن باب يقدر يدخل منه كل واحد عاوز يزرع أفكار خبيثة بالذات لما يتلازم الفقر مع الإحساس بالظلم.

- بس ماحدش ظلم مصطفى بالعكس إحنا بنعامله كويس أوي.

قال محمد هذا وهمّ أن يكمل كلامه إلا أن الدكتور أمجد قاطعه وهو يقول:

- يا محمد الوضع في البلد مايخفاش على حد لما واحد زي مصطفى يشوف طالب في الكلية بيصرف في اليوم قد مرتبه في ٣

شهور ولما يحسبها مع نفسه ويلاقي إنه علشان يجيب شقه عاوز يشتغل ٧٠ سنة وممكن في النهاية برضه مايعرفش يجيب شقة، ولما يلاقي إنه بيمتلك امكانيات أكتر من ناس كتير ولكن الفرق الوحيد هو إن الناس دي ليها ضهر وهو لأ فنجحوا في حياقم وهو .. لأ.

هو ده الإحساس بالظلم اللي أقصده. لما كل الظروف دي تتجمع بإنسان زي مصطفى طيب القلب بطبيعته بتصنع في شخصيته ثغرة كبيرة أوي ممكن أي حد يدخل منها ويبث فيها أفكار مسمومة بسهولة.

فتح دكتور أمجد يده بشكل يوحي بأنه مندهش وهو يقول:

– بس بصراحة يا جماعة حتى بعد اللي قولته دلوقتي برضه لسه مندهش من إن مصطفى متورط في ده لأني أعرفه كويس وكنت بحبه لأنه ولد طيب وبشوش جدًا وهو اللي كان يجيبلي دايمًا أي حاجة أنا عاوزها من الكافيتيريا.

ثم وجه نظره إلى شيرين وقال لها:

– إن شاء الله خير، أنا قلقان زيك بالضبط على أسيل إنتي ماتعرفيش أنا بعتبرها إيه. فا أرجوكي أي أخبار توصلك لازم تبلغيني بيها.

رفعت شيرين هاتفها المحمول وهي تقول:

– أنا هاتصل بأدهم يمكن يكون عنده أخبار.

وضعت شيرين الهاتف على أُذنها وانتظرت قليلاً ولكن ظهرت فجأة على وجهها دهشة وأنزلت هاتفها قائلة:

- كان بيرن بس أدهم قفل عليا..قلبي مش مطمن.. أُسترها من عندك يا رب.

***

كانت أنامل مروان تتحرك بسرعة وهو يكتب كلمة المرور ليدخل إلى البريد الإلكتروني ويقرأ التعليمات الأخيرة التي تركها له الدكتور كانت ردود الأفعال على شريط الفيديو الذي بثته جميع نشرات الأخبار بعد ذلك متوقعة تمامًا فقد شجبت واستنكرت دول كثيرة ما حدث، وإسرائيل أعلنت أنها لا تتفاوض مع إرهابيين، والحكومة المصرية تعهدت بأنها ستجد من فعل ذلك.

إن الدكتور ذكي فعلاً فقد توقع تلك الردود بالتفصيل فكر مروان في هذا وهو يقرأ التعليمات الجديدة وما أن قرأها حتى اتسعت عيناه في حماس وقد أدرك أن تلك الفتاة المتعجرفة قد حانت نهايتها أخيرًا فهي قد تجرأت على تحديه وحان الوقت لكي تدفع ثمن ذلك.

يبدو أن التخلص من تلك الفتاة بات يهم الدكتور كثيرًا فهو لأول مرة قرر أن يكون موجودًا أثناء التنفيذ.

تذكر بداية تعاونه مع الدكتور عندما تم طرده من إحدى الجمعيات الخيرية الإسلامية بعدما أمسكوه وهو يسرق التبرعات.

عقد حاجبيه في غضب وقد تذكر هؤلاء الحمقى الذين يقع تحت أيديهم مال وفير بلا حساب وينفقونه على الفقراء.

هو أيضًا كان فقيرًا وكان من حقه أن يأخذ بعضًا منه.

خرج من الجمعية لا يملك مالاً ولكنه كان يملك فكرة جديدة..فهو قد عرف أن الشباب شديدي الفقر من المتدينين يمكن استغلالهم بسهولة..فقط أفهمهم أن ما يفعلونه يخدم الإسلام ، وأن النظام من حولهم يعمل ضدهم لذلك وجب عليهم أن يجاهدوا ضده.

بعدها أترك الحكومة لتكمل الطريق فتصرفات الحكومة وضباط أمنها كفيلة بتحويل أي شاب إلى إرهابي في طرفة عين. فالإحساس بالظلم الملازم للشباب هذه الأيام لن يجعلهم أبدًا يشعرون بأنهم مخطئون. بل سيزيدهم إصراراً على مجابهة من يفعل بهم ذلك. وقتها قابل الدكتور صدفة فكانت صدفة خير من الف ميعاد. كلمهُ الدكتور عن منظمة تريد العمل داخل مصر في الخفاء لتساعد المصريين على التخلص من النظام الكاتم على أنفاسهم لسنين طويلة على حد قوله.

كان مروان ذكيًا فلم تنطلي عليه تلك الخدعة القديمة قدم الدهر ولكنه تظاهر بأنه يصدق حتى جاء اليوم الذي صارح مروان فيه الدكتور بأنه يعرف جيدًا بأنه ليست هناك أي منظمة وقال له أنه لا يريد أن يعرف مع من يعمل.. المهم أن يدفعوا جيداً.

يبدو أن هذا أراح الدكتور كثيرًا فبدأ معه بتنفيذ فكرته في إنشاء خلية إسلامية في ظاهرها حتى يتسنى لهم بسهولة إقناع الشباب بأي شيء يريدون فعله.

توقف مروان عن التفكير، وأغلق الكمبيوتر المحمول ثم رفع هاتفه وطلب رقمًا وانتظر حتى قال:

- أيوه يا رمضان إيه الأخبار عندك؟

- تمام..ومصطفى فين؟

- عندها في الأوضة؟

- بيعمل إيه عندها ده؟ طيب عمومًا أنا جايلكم حالاً وأُدخل لمصطفى قوله يستعد علشان العملية هاتخلص النهاردة.

- أيوه النهاردة دي أوامر الدكتور..على فكرة الدكتور هايكون موجود النهاردة بنفسه.

- خدو بالكم مش عاوز أي خطأ يحصل وهو موجود.

- علاء وصل ولا لسه؟

- لسه؟ إزاي هو مش عارف إننا في وقت حرج؟

أنهى مروان الاتصال طلب علاء ولكنه وجد أن هاتفه مقفل فعقد حاجبيه وبدأ يشعر بالتوتر.

هل يمكن أن يكونوا قد وصلوا لعلاء بهذه السرعة؟

جمع حاجياته سريعًا وقد قرر الذهاب إلى الفيلا لينهي هذا الأمر بأسرع ما يمكن وليكن ما يكون.

***

كان الرائد طارق منهمكًا في قراءة التقارير التي أمامه متابعًا ما يحدث في قضية خطف أسيل حتى سمع طرقات على الباب فما أن سمح للطارق بالدخول حتى دخل أحد الضباط قائلاً:

- في حاجة حبيت إنك تعرفها يافندم.

رد طارق بفتور:

- إيه هي؟

قال الضابط:

- المخبر اللي بيراقب بيت مصطفى لاحظ إن الرائد أدهم ومعاه شاب تاني زاروا والدته.

إتسعت عينا الرائد طارق وقد ركز كل انتباهه مع الضابط وقال له:

- وبعدين..؟ كمل...

- خرجوا ودخلوا بيت تاني في نفس الشارع وسمع المخبر صوت صراخ واحدة ست ونط شاب من الشباك بس الرائد أدهم مسكه

ودخلوا البيت تاني بعدها خرج الرائد أدهم وهو ماسك بالشاب ده وكان واضح إنه مستسلم وهو ماشي معاه.

قام الرائد طارق من مكانه وهو يصرخ في الضابط:

- إجمعلي القوة بسرعة وقول للمخبر مش عاوز أدهم يغيب عن عينيه يفضل وراهم لحد ما يعرف هايروحوا على فين وأُوعى يخليهم ياخدوا بالهم منه.

بقدر ما كان طارق متحمسًا وقد أحس بأن أدهم قد عرف مكان أسيل بقدر ما كان يشعر بالضيق لأن أدهم هو من وصل قبله.

ولكن حتى لو عرفوا مكان أسيل وحرروها فستظل شخصية الدكتور مجهولة فكر طارق في هذا وهو يرتدي بزته فقد كان الإمساك بالدكتور من أولوياته إنه رأس الأخطبوط ولابد من القضاء عليه لتقضي على الخلية بأكملها. وأيضا معرفة من وراءه فهو يلاحظ منذ أن بدأ يراقب تلك الخلية أنهم ليسوا جماعة إسلامية تكفيرية بالشكل الذي كان موجودًا في التسعينيات وإن كان بعض أعضائها مقتنعين باستخدام العنف والجهاد ضد الدولة، ولكنه قد قرأ تقارير مراقبة عن مروان تظهر إنه ليس متدينًا بالشكل الذي من المفترض أن يكون عليه من هو في موقعه..لازال يذكر الصور التي جاءته عن مروان وقد ظهرت عليه السعادة الشديدة أمام راقصة في أحد الملاهي الليلية.

حسنًا، فلنرجوا أولاً أن يكون أدهم قد عرف مكانها فعلاً..

بدأ يرتدي زيه، وتأكد من أن سلاحه محشوًا، وبدأ في إجراء اتصالاته حتى تجهز القوة.

وإن ظل يفكر في طريقة يجد من خلالها ذلك الشخص الملقب بالدكتور...

***

قبل ذلك بساعة كان أدهم قد وضع مسدسه في جرابه وأمسك علاء من ذراعه قائلاً:

- يلا قوم معايا هاتوريني بنفسك مكان الفيلا دي.

ذعر علاء وقال:

- لا أرجوك هايقتلوني لو عرفوا إني ساعدتك.

أخرج أدهم مسدسه مرة ثانية ووضعه على رأس علاء وصرخ فيه:

- وأنا هاقتلك إنتَ وأُمك لو ماقومتش معايا دلوقتي.

رفع علاء يده بحركة لا إرادية كأنه يحمي وجهه وقال له:

خلاص بس هاوريك الفيلا ومش هادخل معاك.

قال أحمد فجأة:

- أدهم إنتَ ناوي تروح الفيلا لوحدك؟!! خلينا نتصل بالداخلية الأول علشان يبعتوا قوة.

قال أدهم وهو يجذب علاء حتى ينهض سريعًا:

- مفيش وقت يا أحمد ماحدش عارف إيه اللي بيحصل هناك دلوقتي.

كان أحمد قد نهض واتجه نحو الباب، ولكن أدهم توقف فجأة عند باب البيت صامتًا ثم تراجع خطوتين ناحية والدة علاء وإن ظل ممسكًا بذراعه..جفلت والدة علاء قليلاً ولكن أدهم اقترب منها أكثر وهمس:

- سامحيني يا أُمي عمري ما كنت هاقدر أمِسّك بسوء أبدًا.

وقبل أن ترد خرج مسرعًا من الباب وهو يأخذ علاء معه واتجها ناحية السيارة وقال لأحمد:

- سوق إنتَ يا أحمد.

-الفصل العاشر-

جلس أدهم بجانب أحمد وأجلس علاء في الخلف مصوبًا مسدسه اليه بعدما سمع منه تفاصيل الطريق التي يجب أن يسلكوها، وظلّوا يسيرون حتى قال علاء فجأة:

- في طريق ترابي على اليمين هايجي دلوقتي أُدخل فيه.

سار أحمد قليلاً بالسيارة حتى وجد الطريق الذي أشار إليه علاء وانعطف إليه وسار دقائق وسط مزارع تحيط به على الجانبين حتى ظهرت من بعيد فيلا يحيطها سور وعليه أشجار كثيفة تكاد تغطي سور الفيلا.

فقال أدهم:

- كفاية هنا يا أحمد.

توقف أحمد بالسيارة أمر أدهم علاء بأن يترل من السيارة فأطاعه وهو ينظر إلى الفيلا في خوف.

قال أدهم لأحمد:

- هاديك رقم الرائد طارق دلوقتي تتصل بيه وتقوله إحنا فين بالضبط وتحكيله اللي حصل. واخرج إنتَ دلوقتي من المنطقة دي خالص علشان ماحدش يشوف العربية.

قال أحمد:

- لأ يا أدهم، مش هاسيبك لوحدك هاتصل بطارق دلوقتي وأفضل معاك.

قال أدهم في صرامة مفاجئة:

- ماتجادلش يا أحمد أنا ضابط شرطة مدرب ولكن إنتَ لأ .. وأنا مش عاوز أنشغل بحمايتك. لو عاوز تساعدني إعمل اللي بقولك عليه.

ثم أضاف:

- عندك حبل في العربية؟

رد أحمد:

- أيوه في الشنطة.

اتجه أدهم ناحية الشنطة الخلفية للسيارة وهو يقول:

- إفتحها بسرعة.

فتح أحمد شنطة السيارة وأخرج أدهم الحبل وقال لعلاء:

- إركب العربية تاني.

ركب علاء ودخل وراءه أدهم وأوثق يديه من الخلف جيدًا ثم قال:

- يلا خده معاك سلمه لطارق.

أطاعه أحمد في تردد ثم ركب السيارة وانطلق بها عائدًا ناحية الطريق، وترك أدهم واقفًا ينظر إلى الفيلا في صمت وقد قرر ألا ينتظر الرائد طارق فهو لن يُضيّع ثانية قد تكون أسيل فيها في خطر.

تراجع إلى الأشجار التي على يمين الطريق وسار خلالها باتجاه الفيلا، حتى اقترب منها فاختبأ جيدًا ليتوارى عن أنظار أحد الحراس الذي يبدو إنه سمع صوت سيارة أحمد فخرج ليستطلع الأمر.

أخرج أدهم مسدسه وبدأ يتفحصه بهدوء ليتأكد منه ثم بدأ يبحث عن ذخيرة معه فوجد مشط واحد إضافي فأرجعه في جرابه ثانية، ولكنه سمع صوتًا فجأة يقول:

- أي حركة هاضرب في المليان، إيدك فوق راسك وقوم بالراحة.

شعر أدهم بالغضب لأنه لم يشعر بمن جاء من خلفه لكنه وضع يده على رأسه، وقام بهدوء والتفت إلى صاحب الصوت وما أن التفت حتى شعر براحة مفاجئة بالرغم من أن صاحب الصوت ظل مصوبًا بندقيته الطويلة ذات الفوهتين إليه.

وقد ظهر عليه أنه لن يتردد لحظة في أن يضغط على الزناد.

***

كانت ثورة طارق تلك المرة عارمة..عندما أخبره مساعده أن المخبر فقد أثر أدهم وعلاء في الزحام و لم يعرف إلى أين اتجها.

وبدأ يروح ويجيء في المكتب وهو يرغي ويزبد كالثور الهائج وما زاد من غضبه شعوره إنه كان قاب قوسين أو أدنى من مكان أسيل.

وهو في تلك الحالة رن جرس هاتفه فكر في التجاهل خاصة عندما وجده رقمًا لا يعرفه ولكنه خشي أن يكون أحد رؤسائه فأمسك هاتفه المحمول وأجاب وقبل أن يقول أي كلمة جاءه صوت من الناحية الأخرى يقول:

- الرائد طارق معايا؟

قال طارق بحذر:

- أيوه أنا الرائد طارق مين معايا؟

- أنا أحمد صاحب الرائد أدهم وهو اللي قالي أتصل بيك.

تحفز طارق وتوقف عن الحركة في الغرفة وهو يقول:

- أدهم فين بالضبط؟ إنتَ تعرف مكانه؟

بدأ أحمد يحكي له ما حدث بكلمات سريعة حتى قال له طارق:

- إنتَ فين بالضبط دلوقتي؟

- أنا قدامي عشر دقايق تقريبًا وأكون قدام الإدارة.

- هانكون تحت في انتظارك.

وضع طارق الهاتف ونادى على مساعده ليجهز القوة ويستعدوا لاستلام أحد أفراد الخلية من أحمد عندما يصل.

في هذا الوقت كان أحمد يبطيء قليلاً بالسيارة ليسمح لبعض المارة بالعبور. كان قلقًا على أدهم بشدة ولكنه لا يعرف ماذا يفعل تحديدًا فهو صحيح صحفي مشاغب كما يسمونه، ولكنه لم يعتد وجوده في قلب تلك المواجهات المباشرة.

دعا الله أن يكون مع أدهم الآن ثم وجه كلامه إلى علاء الجالس في المقعد الخلفي ويداه مقيدتان وقال:

- ليه يا علاء؟!

- إيه اللي ليه...؟!!

تنهد أحمد ونظر إلى الطريق وهو يقول:

- اللي بتعملوه ده ليه؟ هاتستفيدوا إيه لما تقتلوا أسيل أو غيرها؟

شرد علاء قليلاً ثم قال وهو يبتسم في مرارة:

- إنتَ فاكر إني مصدق بجد إن ده بيخدم الإسلام؟

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة تحمل بعض المرارة وهو يقول:

- مش كل الناس زي مصطفى مؤمنين باللي بيعملوه.

نظر أحمد إليه عبر مرآة السيارة في حيرة..!

فأكمل علاء:

- شفت بيتنا شكله إيه يا أستاذ أحمد؟ شفت السقف اللي قرب يقع على راسنا من الرطوبة؟

شفت أُمي اللي صحتها راحت من الخدمة في بيوت الناس؟ علشان يادوب تعرف تخلينا ناكل ونشرب..! مش هاقولك علشان نبقى مستورين لأننا مش مستورين.

قاطعه أحمد وقال:

- الفقر مش سبب لكل اللي بتعملوه عمر ما الفقر كان سبب في إنك تقتل الناس.

أكمل علاء وكأنه لم يسمعه:

- تعرف يا أستاذ أحمد إني كان نفسي أكمل تعليمي أوي..كنت بحب الكتب والقراءة جدًا بس إزاي هاكمل تعليمي في فصل ربع تلاميذه على الأقل أُمي خدامه عندهم؟ وصدقني الاولاد في السن اللي كنا فيه مايعرفوش يعني إيه إنَك تراعي مشاعر حد..إنتَ فاهم اللي أقصده طبعًا..وفي يوم لقيت مروان بيحاول يقنعني بحاجات عمرها ما كانت بتيجي في دماغي..كان بيطلب مني أصلي وأصوم وأكون قريب من ربنا وأجاهد ضد كل اللي بيعملوا ضد الإسلام. أنا بقى يا أستاذ أحمد وافقت بس مش علشان أخدم الإسلام! أنا مش غبي أوي للدرجة دي وعارف كويس إن اللي

بنعمله ده مالوش علاقة بالإسلام خالص. أنا وافقت بس علشان أنتقم منكم كلكم.

قال أحمد مستغربًا:

- مننا..!!؟ تقصد مين؟

أكمل علاء وقد برقت عيناه:

- إنتَ والأخ الضابط التاني والحكومة والوزارة وكل واحد في البلد دي ساايبنا نعيش في اللي إحنا فيه لحد ما نموت زي الكلاب.

كان مبنى الإدارة قد بدأ يظهر فاتصل أحمد بالرائد طارق أبلغه بأنه سيقف بسيارته ثم نظر إلى علاء الذي صمت ما أن سمع مكالمة أحمد، وحاول أحمد أن يقول له شيئًا إلا أنه فضل الصمت فقد كان في أعماق نفسه يعرف أن كل ما قاله علاء يحمل بعض المنطق.

أن النظام يقتل هؤلاء نفسيًا وهم يردون عليه بالقتل الجسدي.

في تلك اللحظة توقف أحمد أمام الإدارة حيث رأى عددًا من الضباط بانتظاره وقبل أن تقف السيارة تمامًا كان علاء قد أصبح بين أيدي الضباط والمخبرين..لا يعرف أحمد كيف جذبوه بتلك السرعة من السيارة.

وما أن فتح باب السيارة حتى فوجيء بالرائد طارق يأمره:

- إركَب تاني ماعندناش وقت.

ثم توجه بنظره إلى القوة المصاحبة له وقال:

- أنا هاركب معاه وإنتو خليكوا ورانا.

دخل الرائد طارق السيارة وأغلق الباب قائلاً:

- إطلع وإحكيلي كل حاجة واحنا في الطريق.

وبدأ أحمد يحكي له كل ما حدث حتى اللحظة التي ترك فيها أدهم وحده هناك، وحينها زاد من سرعة السيارة بشكل لا إرادي وقد أحس أن أدهم في خطر.

خطر حقيقي ...

***

جلس مصطفى على أحد الكراسي في الغرفة وهو يسمع أسيل تحكي له عن الشاعر توفيق زياد، وكيف كان يقف في مواجهة الحكومة الإسرائيلية وهو أحد الحاملين لجواز السفر الإسرائيلي أيضًا وعن محاولات مضايقاته الكثيرة.

كانت هناك أشياء تتغير بداخله كلما سمعها أكثر..كانت المرة الأولى التي يعرف فيها كل هذا..كانت تتخبط بداخله أحاسيس مختلطة معقدة..تارة يشعر بأنه كان مغيبًا، وتارة أخرى يتمنى فيها لو لم يتكلم معها وظل كما هو مقتنعًا بما يفعله.

"ليتني لم أراها في الجامعة أبداً"

فكر مصطفى وهو مطرق الرأس يستمع إليها تتكلم.

ثم رفع رأسه فجأة وسألها:

- عاوزاني أصدق كل اللي بتقوليه ده وأكدب إخواني؟

نظرت إليه بغضب وهي تقول:

- لو هَادول إخوانَك عَن جَد ماكانوش عَلّموك القتل..ماكانوش أقنعوك بأنه قَتِل نَفس بريئة هو تَقَرُب لله..إيشْ الفَرِق بين مروان وبين أي مستوطن إسرائيلي بينادي بالموت للعرب؟

قام مصطفى من مكانه وهو يقول في حدة:

- إنتي كمان هتقارني الأخ مروان بالكلاب دول؟

ابتسمت أسيل بمرارة وتجاهلت سؤاله وأكملت:

- لما الوزراء الإسرائيليين بيتْفَنَنوا في خلق القوانين ليتخَلَصوا مِنّا وبينكروا حَقْنَا في أرضنا ووجُودنَا عليها ومن جهة تانية يجي واحد زي مروان بنادي بقتلنا بدم بارد.

سالت دموعها وهي تضيف في حدة:

- وين بِدكُم إيانا نْروح؟ نْمَوِّت حَالنا عَلَشان الكل يرتاح يعني؟

ثم تمالكت على مقعدها مرة أخرى، وهي تجهش بالبكاء ومصطفى واقف أمامها لا يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول...

***

علت وجه أدهم نظرة ارتياح حينما استدار بهدوء ورأى صاحب الصوت، فقد عرفه على الفور من ذلك الجلباب الذي يرتديه والبندقية العتيقة ذات الفوهتين المصوبة نحوه، وأدرك إنه غفير تلك المزرعة.

ظهرت على وجه أدهم الجدية وهو يقول للغفير:

- وطي صوتك أنا الرائد أدهم، مباحث.

تردد الغفير قليلاً وهو يتفحص أدهم وإن ظل مصوباً بندقيته نحوه ثم قال بصوت خافت كما طلب منه أدهم:

- وأنا أعرف منين إنك مباحث فعلاً؟

رد أدهم:

- ممكن أنَزِل إيدي اليمين أوريك الكارنيه؟

صمت الغفير قليلاً وقد ظهر عليه أنه لا يدري ماذا يفعل فعلاً، خفض بندقيته وهو يقول:

- لامؤاخزة يا سعادة الباشا سيماهم على وجوههم.

ابتسم أدهم وقد أدرك أن ذلك الرجل البسيط لا يدرك أبسط حقوقه..فهو يخاف من أن يجبر أحد رجال الشرطة على إخراج كارنيهه فينتقم منه بعد ذلك.

تذكر أسيل واستعاد نظرته القلقة، ونظر حوله محاولاً إيجاد شيء مرتفع ليرى الفيلا بوضوح من عليه فهو قبل أن يحاول الدخول يجب أن يحاول تحديد مكان أسيل في الفيلا أو على الأقل يتوقعه.

سمع صوت الغفير الذي كان قد نسيه وهو يقول:

- محتاج أي مساعدة مني يا باشا؟

نظر إليه أدهم وقد راقه أن يكون هناك أحد معه في تلك اللحظة وقال:

- تعرف إيه عن الفيلا دي؟

قال الغفير وهو ينظر إلى الفيلا من خلال الشجيرات:

- والله يا سعادة الباشا...

قاطعه أدهم وهو يقول:

- قولتلك وطي صوتك خالص.

خفض الغفير صوته وهو يكمل:

- الفيلا دي على طول فاضية بس من وقت للتاني بتيجي مجموعة ناس بيقعدوا جوه شوية بتاع ساعتين كده ويمشوا تاني، ومن يومين كده الفيلا بقى فيها حركة على طول..أنا قُلت يمكن سكانها جم يسكنوا فيها بس لما قربت من الفيلا لقيت واحد شايل سلاح طلع عليا وطلب مني إني أبعد عن الفيلا، وبيني وبينك يا باشا

أنا قلت أكيد الفيلا دي بتاعت حد من الناس الكبار ودول الحرس بتوعه فامحبيتش أقرب منها تاني.

قال له أدهم:

- عمرك ما دخلتها؟

تردد الغفير قليلاً وظهر عليه أنه لا يريد قول شيء فقال له أدهم وهو ينظر في عينيه:

- إنتَ اسمك إيه؟

- إبراهيم يا باشا.

استطرد أدهم في الكلام:

- شوف يا إبراهيم في واحدة جوه مخطوفة وكل ثانية إحنا بنضيعها ممكن تكون على حساب حياتها فا لو عندك حاجه قولها لأني لو اكتشفت بعد كده إنك كنت مخبي عني حاجه فا هاعتبرك معاهم.

ظهر الخوف على ملامح إبراهيم فقال سريعًا:

- بصراحة يا سعادة الباشا من تلات أيام كده كنت عاوز أدخلها وقتها مكانش فيها حد خالص بس والله ماكنتش عاوز أعمل أي حاجة أنا بس كنت عاوز أشوف إيه اللي بيحصل في الفيلا دي لأني كنت دايمًا بسمع أصوات غريبة بالليل فيها بس

ماعرفتش أدخلها لقيتها مقفولة كويس..بس وأنا بلف حوالين الفيلا كان في شباك فيه فتحة بصيت منها لقيته بيطل على أوضة محطوط جواها حاجات غريبة.

أنصت أدهم في اهتمام وقال:

- غريبة إزاي يعني؟

- يعني لقيت فيه كرسي خشب وعليه كلبشات ميري، وبصراحة يا سعادة الباشا أول ما شفت الكلبشات الميري دي خدت ديلي في سناني ورجعت المزرعة حاكم ده معناه إن الفيلا دي تبع الحكومة يا باشا.

قاله له أدهم:

- فين الأوضة دي بالضبط؟

وصف له الغفير مكانها بدقة وفي تلك اللحظة سمعا صوتًا قادمًا من ناحية الفيلا فأخفضا رأسيهما ونظرا فوجدا أحد الحراس يبدو أنه سمع صوتهما، اقترب محاولاً استكشاف مصدر ذلك الصوت.

قال أدهم للغفير:

- دلوقتي يا إبراهيم مش عاوز منك غير إنك تشغل الراجل ده وأنا هالف حوالين الفيلا. ولما القوة تيجي إرشدهم على مكان الأوضة اللي قولتلي عليها دي.

أنهى أدهم جملته ولم ينتظر رد إبراهيم وزحف للخلف بخفة متجهًا إلى داخل الأشجار ليدور حول الفيلا حتى يصل إلى الغرفة التي كانوا يتكلمون عنها.

وفي تلك اللحظة سمع إبراهيم وهو يخرج من مكانه ليقول للحارس الذي كان قد اقترب منه:

– أيوه يا سعادة البيه عاوز حاجة؟

نظر إليه الحارس في شك وقال له:

– إنتَ بتعمل إيه عندك يا جدع إنتَ؟

ابتسم إبراهيم حتى ظهرت أسنانه الصفراء المتساقطة:

– بعمل إيه!!؟ أنا الغفير يا بيه بتاع المرزعة شغلتي هي إني أفضل هنا.

ثم رسم على وجهه ملامح الجدية وإن بدت مضحكة وهو يقول:

– ألا قولي يا باشا..هي الفيلا دي بتاعت مين؟

نظر إليه الحارس بغضب ورفع سلاحه في وجه إبراهيم وقال بلهجة تهديدية:

– مالكش دعوه ومش عاوزك تقرب من الفيلا تاني خالص، فاهم ولا لأ؟

تراجع إبراهيم للوراء وهو يقول:

- تحت أمرك يا سعادة البيه أنا بس كنت بسأل.

قالها وأدار ظهره للحارس فورًا، وسار باتجاه الأشجار الكثيفة داخل المزرعة، ولكنه سمع صوت سيارة تتوقف أمام الفيلا فنظر ثانية من وسط الشجيرات ليرى من الذي وصل فوجد سيارة جيب سوداء نزل منها شخص فارع الطول قوي البنيان ما أن رأى الحارس بعيدًا عن البوابة حتى نظر إليه بنظرة تأنيب ولكن الحارس قال سريعا مدافعًا عن نفسه:

- سامحني يا أخ مروان أنا سمعت صوت فا كنت بشوف جاي منين بس طلع الغفير بتاع المزرعة.

نظر مروان بشك إلى الاتجاه الذي جاء منه الحارس فخفض إبراهيم رأسه سريعًا حتى لا يراه وبدأ يفكر.

كيف سيواجه هذا الضابط هؤلاء وحده؟

وحده!!؟ كيف يكون وحده!!؟ فكر إبراهيم في هذا وقد تذكر أن هناك فتاة مخطوفة وهو لم يتربى على الجبن فكيف يترك هذا الضابط وحده.

تذكر ماضيه في تلك القرية الواقعة في جنوب مصر ففي مثل هذا الوقت من العام منذ عشرين عامًا حكم عليه بالإعدام..لم يكن القضاء هو من أصدر هذا الحكم، وإنما أصدره رجال عائلة البنهاوي

بعدما قتل أخوه أباهم، وحكم عليه بالسجن المؤبد فقررت عائلة البنهاوي أن الثأر سيكون بإنهاء حياة إبراهيم، وعندما وصله الخبر قرر الهروب.

أحس بالألم عندما تذكر هربه وإتهام القرية له منذ ذلك الحين بأنه جبان.

هو لم يكن جبانًا ولن يكون أبدًا، ولكنه رغم تعليمه المحدود فهو بالكاد يستطيع القراءة لم يكن يقتنع بفكرة الثأر..لا يريد أن يأخذ الثأر من أحد أو يؤخذ منه الثأر بسبب خطأ ليس خطأه.

نظر إلى سلاحه العتيق واحتضنه بقوة وكأنه يستمد منه بعض الشجاعة وفكر..إنها فرصته الآن ليثبت لنفسه وللعالم كله إنه ليس جبانًا..لن يترك أبدًا ذلك الضابط الشجاع يواجه هؤلاء وحده أبداً.

في تلك اللحظة كان مروان يدخل إلى باب الفيلا فسمع صوت هاتفه المحمول يرن فنظر إليه ثم أشار إلى الحارس ليبتعد قبل أن يرد على الهاتف وما أن ابتعد الحارس حتى رد مروان قائلاً:

- سعادة الدكتور..هاتشرفنا بحضورك اخيرًا؟

تغير فجأة وجه مروان وهو يسمع ما يقوله الدكتور عبر الهاتف وقد ظهر عليه الغضب الشديد ثم أغلق الهاتف ونادى الحارس وقال:

- هات سالم وعبده وتعالوا معايا.

ثم رجع إلى السيارة وفتح حقيبة السيارة، وأخرج منها سلاحه الآلي وهو يضيف:

– لما نشوف اللي عامل فيها جيمس بوند ده ومستخبي ورا الفيلا.

ثم نظر إلى الأفق البعيد محاولاً معرفة أين الدكتور، وكيف رأى أدهم وهو يدور حول الفيلا..ثم وقعت عيناه على تبة عالية ليست بعيدة عن الفيلا، وإبتسم فقد أدرك بخبرته أنه هناك...

في تلك اللحظة كان الدكتور يقف بجوار سيارته يراقب من بعيد بمنظاره المقرب ما يحدث..كان قد رأى أدهم وهو يدور حول الفيلا..وحاول أن يعرف كيف وصل إلى هناك ولكن يبدو أن السيارة التي أقلته قد رَحلت قبل أن يأتي هو هنا. هذا يعني أن الشرطة لن تتأخر كثيرًا في الوصول كما وصل أدهم.

كيف وصل هذا الوغد إلى هنا بهذه السرعة؟ فكر الدكتور في هذا وقد ظهر عليه الغضب ثم قال وكأن أدهم أمامه:

– إبقى وريني بقى هاتعمل إيه وإنت لوحدك كده.

رجع إلى سيارته وقد نوى أن يذهب إلى الفيلا ليسرع من تنفيذ العملية قبل وصول الشرطة.

فهو يريد أن يتأكد بنفسه هذه المرة من أن كل شيء سيسير على ما يرام.

***

تحرك أدهم في خفة محاولاً ألا يصدر أي صوت ينبيء بوجوده، وهو يتحرك باتجاه النافذة التي وصفها له الغفير إبراهيم حتى وصل إليها فأخفض رأسه وألصق ظهره بالحائط، واقترب منها بهدوء محاولاً البحث عن أي ثغرة ينظر منها إلى ما يحدث في داخل الغرفة ولكنه وجدها محكمة الغلق..سمع صوتًا فاقترب أكثر ليستطيع السماع جيدًا فسمع صوتًا مألوفا..

صوت أسيل..!

خفق قلبه بشدة عندما سمع صوتها فهذا يعني إنها بخير حمد الله ثم بدأ يبحث مرة أُخرى عن وسيلة ليستطيع رؤية ما يحدث بالداخل. سمع صوت أقدام تقترب منه فبحث بعينيه عن مكان يختبيء به، ووجد خزان مياه قديم ملقى قريبًا منه فتحرك سريعًا واختبأ وراءه وأخرج سلاحه متأهبًا لقتال يبدو أنه وشيك.

رأى بالفعل ثلاثة رجال وقد ظهر عليهم أنهم يبحثون عن شيء ما، يبدو أنهم قد عرفوا بوجوده فكر أدهم في هذا واشتدت قبضته على مسدسه و...

هنا أحس بفوهه مسدس تلتصق بمؤخرة رأسه وصوت يقول:

- أهلاً أهلاً جيمس بوند.

حاول أن ينظر ليرى من يكلمه ولكنه سمع الصوت يقول:

- حركة كمان والرصاصة هاتطلع في دماغك إرمي مسدسك وحط إيدك فوق دماغك.

إحمر وجه أدهم من الغضب وقد أحس أن أسيل قد فقدت الأمل الوحيد لها، تذكر أن أحمد يحضر طارق والقوة إلى هنا ولكن ..

هل سيأتي طارق في الوقت المناسب..!!؟

-الفصل الحادي عشر-

وضع أدهم مسدسه على الأرض وهو يحاول الحفاظ على هدوئه كي يستطيع التفكير في مخرج.

تقدم الرجال الذين كانوا قد وصلوا وأخذ أحدهم المسدس من على الأرض وأمسكوا أدهم بحرص ليقتادوه إلى داخل الفيلا من باب جانبي لم يره أدهم وهو يدور حول الفيلا وسرعان ما كانوا أمام الغرفة التي بها أسيل.

وقد كان مصطفى خارجًا منها، الذي قال بدوره وهو ينظر إلى أدهم في دهشة:

- في حاجة يا أخ مروان؟ أنا سمعت صوتكم ورا الفيلا..!

نظر إليه مروان بشك وهو يدفع أدهم أمامه:

- إنتَ كنت بتعمل إيه جوه؟

خفض مصطفى صوته وهو يقول:

- مفيش يا أخ مروان كنت بحطلها الأكل بس.

نظر إليه مروان لثوان وقد بدأ الشك تجاه مصطفى يدب في قلبه ثم قال:

- إفتح الباب علشان نخلي سعيد يتلم على سعيدة.

قالها وأطلق ضحكة عالية وهو يدفع أدهم مرة ثانية إلى الباب الذي فتحه مصطفى لتظهر أسيل جالسة على كرسيها وما أن رأت أدهم حتى صرخت:

- أدهم؟!

حاول أدهم أن يبدو هادئًا وهو يقول:

- كنتي عاوزاني أسيبك لوحدك ولا إيه؟ ماتقلقيش أنا خلاص معاكي وماحدش هايقدر يلمسك.

قهقه مروان وهو يستمع إليه وقال بسخرية:

- إنتَ لِسه فاكِر نفسك جيمس بوند ولا إيه؟

ثم استعاد وجهه صرامته المعتادة وهو يقول:

- لولا إن الدكتور بنفسه عاوز يحضر إعدامكم كنت خلصت عليكم دلوقتي.

واقترب من أدهم ليشعر أدهم بانفاسه وهو يضيف:

- وعمومًا هي دقائق وهايكون هنا وتشوف بنفسك هانعرف نلمسها ولا مش هانعرف.

ثم استدار فجأة ناحية باب الغرفة وتبعه رجاله ما عدا مصطفى الذي وقف مكانه بجوار أدهم وأسيل عند وصول مروان إلى باب الغرفة نظر خلفه تجاه مصطفى قائلاً:

- واقف عندك ليه يا مصطفى؟ تعالى هنا.

تردد مصطفى قليلاً ولكنه مالبث أن تحرك باتجاه مروان الذي أشار للرجال بأن يغلقوا الباب على أدهم وأسيل ثم قال لمصطفى:

- خليك مع عبده هنا قدام الباب لحد ما الدكتور يجي.

وأشار إلى الرجلين الآخرين وهو يقول:

- وأنتو هاتوا الكاميرا وجهزوها بسرعة ماعندناش وقت.

ثم ذهب باتجاه باب الفيلا لينتظر الدكتور حتى يتموا عملهم.

تابع مصطفى مروان بنظره وهو يسير باتجاه باب الفيلا حتى رآه يخرج ثم نظر إلى عبده الذي اتخذ مكانه أمام باب الغرفة في صمت.

كان عبده لا يختلف عن مصطفى كثيرًا، شاب مكافح من عائلة شديدة الفقر، قد أدرك منذ زمن أن أمثاله ليس لهم إلا أن يبحثوا عن شيئين لا ثالث لهما:

قوت يومهم و.... والطريق إلى الجنة.!

ويعتقد عبده الآن أنه قد وجد الطريق إلى الجنة خلاف ذلك أيضًا فكان ما يفعله تقربًا إلى الله يدر عليه دخلاً جيدًا جعله يستطيع إعاله اسرته .

لقد وجد ما يبحث عنه ولكن!

كان الأمر مثاليًا أكثر من أن يكون حقيقيًا.

فكر مصطفى في ذلك وهو ينظر إلى عبده كيف سيكون رد فعله إن سمع ما سمعه هو؟ ما الذي سيفكر فيه إن حضر كلامه معها.

"إلهمني الصواب يا رب" فكر مصطفى وهو ينظر إلى باب الغرفة الموصد وفي تلك اللحظة سمع عبده يقول:

- أذان المغرب يا مصطفى هانعمل إيه؟ تفتكر لو جمعناه مع العشا علشان مانسيبش مكانا هايبقى حرام؟

نظر إليه مصطفى وهو يبتسم بمرارة فعبده قلق من جمع المغرب مع العشاء وهو على وشك الإشتراك في قتل رجل وفتاة بعد قليل.

إني استخرت الله وليكن ما يكون..قالها مصطفى بينه وبين نفسه ثم رسم نظرة تفكير عميقة على وجهه وهو يقول لعبده:

- والله يا عبده بما إن إحنا اتنين هنا فا أعتقد ماينفعش نجمعهم مع بعض إنتَ تروح تتوضأ وتصلي وأنا هاقف استناك وبعد ما تيجي هاروح أنا كمان أتوضا وأصلي..يلا روح وماتتأخرش علشان ألحق أصلي أنا كمان قبل العشا.

أُعجب عبده بهذا الاقتراح وقال:

- ربنا يبارك فيك ويزيدك من علمه يا أخ مصطفى مش هاتأخر عليك إن شاء الله.

ما أن تحرك عبده حتى بدأ مصطفى ينظر إلى باب الغرفة ولو كان باستطاعة أحد أن يرى وجهه لأقسم أن هناك ألف ألف صراع يدور بداخل صاحب هذا الوجه في تلك اللحظة.

***

ما أن أغلق مروان الباب حتى أمسك أدهم بيد أسيل وهو يقول لها:

- إنتي كويسه؟

سالت دموعها وهي لا تزال غير مصدقة أن أدهم أمامها الآن وقد كانت موقنة منذ قليل بأنها ستموت قبل أن تراه ثانية.. لم ترد على سؤاله وإنما قالت:

- إيش اللي جابَك؟

قال أدهم وهو ينظر حوله متفحصًا الغرفة بإمعان:

- ماتقلقيش إن شاء الله ماحدش هايقدر يمسك وأنا معاكي.

أنهى جملته وهو يترك يدها ويتجه نحو النافذة المغلقة، وكانت من الطراز الذي يغلق من أعلى للأسفل مثل أبواب المحلات..بدأ يحاول رفعها للأعلى محاولاً بقدر الإمكان ألا يصدر ضجة أثناء ذلك، ولكنه لم يستطع رفعها فبدأ يبحث في الغرفة عن شيء ما يساعده في ذلك إلا أنه لم يجد فرجع ثانية محاولاً أن يستنفر قوته لرفع النافذة، وبدأت أسيل تحاول معه وقد ظهر على وجهيهما أنهما

يخرجان كل قوتهما فعلاً، وإذ بيد ثالثة تمتد لتساعدهما في رفع النافذة.

نظرت أسيل وأدهم ليريا من الذي يساعدهما فوجدا مصطفى يقول لهما:

- يلا بسرعة ماعندناش وقت.

رفع أدهم حاجبيه مستغربًا ونظرت أسيل إلى مصطفى نظرة شكر ولكنه أضاف:

- إنتو هاتقعدوا تبصولي؟ يلا قلتلكم مفيش وقت.

استداروا ثلاثتهم يحاولون رفع النافذة، وأخيرًا بدأت ترتفع ببطء وهم ما يزالون يحاولون إخراج كل طاقتهم حتى فتحت النافذة بما يكفي لتتسع لشخص يمر عبرها هنا ارتفع صوت من ورائهم:

- أنا شكيت برضه إنها ضحكت عليك يا مصطفى بس ماكنتش أتوقع إن الموضوع يوصل إنك تساعدهم أبدًا.

استداروا ناحية الصوت فوجدوا مروان واقفًا ووراءه عبده واثنان آخران يحملان الكاميرا والحامل الخاص بها، وكان عبده بالذات واقفًا وعلى وجهه علامات الدهشة فلم يكن يتوقع هذا من مصطفى أبدًا.

قال مصطفى وهو يوجه كلامه للرجال الواقفين حول مروان:

– إنتو فاكرين نفسكم بجد بتجاهدوا في سبيل الله؟

أشار إلى مروان وهو يضيف:

– إنتو بتجاهدوا في سبيل إن ده يملا جيبه فلوس والله أعلم هايستفيد إيه تاني بس حد فيكم فكر قبل كده إزاي هانقرب من ربنا أكتر بقتل مسلمين زينا؟

عقد مروان حاجبيه وشعر بالقلق من أن يؤثر مصطفى على الرجال بكلامه فقاطعه وهو يقول:

– ماتحاولش تبرر خيانتك إنتَ من دلوقتي بقيت معاهم زيك زي الاتنين اللي وراك ولولا إن الدكتور عاوز يكون موجود كنت دبحتك بإيدي حالاً.

ضحك مصطفى في عصبية وقال:

– الدكتور ... الدكتور..! هو فين الدكتور ده اللي قاعدين نسمع عليه وخلاص؟ شكله هايطلع شخصية من اختراعك في الآخر. يا ريت بس مايتأخرش أصل عندي معاد مهم.

إحمّر وجه مروان بسبب سخرية مصطفى، وانتزع السلاح من يد أحد رجاله، وصوبه ناحية مصطفى ولكنهم سمعوا فجأه صوتًا يقول:

– وأنا مايرضينيش أبدًا إنك تتأخر عن مَعادك يا مصطفى.

ثم علت ضحكة صاحب الصوت وهو يضيف:

- بالذات لما يكون معاد مع عزرائيل.

نظروا جميعًا إلى الصوت الذي ما إن سمعه مروان حتى تراجع إلى الوراء قليلاً ليفسح المجال له ليتقدمهم.

كان هذا صوت الدكتور ....

بدا للحظة وكأن الزمن توقف في تلك الغرفة فقد ساد الصمت لثانية لم يتحرك فيها أحد، وقد بدا فيها الذهول على وجه أسيل وأدهم الذي عقد حاجبيه بشدة وهو ينظر إلى الدكتور حتى كسرت الصمت صرخة أسيل وهي تقول:

- إنتَ... !!؟

إنتَ يا دكتور أمجد...!!!؟

انهارت على أقرب مقعد لها وأضافت:

- مِشْ مَعقول! أنا مِشْ رَح أقولَك إني كنت بَعتِبرَك أستاذي لأنك أستاذي فعلاً، وبالآخر تطلع مجرم !؟ إرهابي!؟

لم يرد عليها أمجد وإنما نظر إلى مروان وقال:

- إنتَ مستني إيه؟ جهز الكاميرات يلا بسرعة.

تحرك مروان فور سماعه الأمر، وأشار لرجاله إلى مكان وضع الكاميرا في الوقت الذي قال أدهم موجهًا كلامه لأمجد:

– لو مسيت شعرة منها هاتندم طول حياتك يا أمجد.

ضحك أمجد وهو يقول:

– إنتَ في وضع دلوقتي ما يسمحلكش خالص بالكلام أصلاً يا حضرة الضابط، وكمان هاتخليني أندم؟

تحرك أدهم بغضب ناحية أمجد ولكن ارتفعت في وجهه فوهات الأسلحة الألية في لحظة..أمسك مصطفى بذراعه ليجعله يتوقف واتسعت عينا أسيل في ارتياع وهي تصرخ باسم أدهم فتوقف أدهم وإن ظل ينظر بغضب شديد إلى أمجد الذي إبتسم بسخرية وهو يقول:

– مش قولتلك إنتَ مش واخد بالك من اللي إنتَ فيه.

أشار مروان إلى أمجد بأن الكاميرا جاهزة..ثم تحرك الرجال وأمسكوا بأسيل وأدهم ومصطفى وأوقفوهم بجانب بعضهم البعض استعدادًا لقتلهم.

أمسكت أسيل بيد أدهم الذي كان عقله يعمل بسرعة البرق في محاولة لإيجاد مخرج، ورفعت رأسها ناظرة مباشرة إلى عيني الدكتور أمجد وقد قررت ألا تموت محنية الرأس أبدًا.

بادلها أمجد تلك النظرات المتحدية ثم رفع سلاحه..وارتفع صوت الرصاص...

***

ما إن ظهرت سيارات الشرطة في بداية الطريق المؤدية إلى الفيلا حتى ظهر أمامها الغفير إبراهيم الذي كان ينتظر وصولها كما قال له أدهم، وأشار إليهم بالتوقف فتوقفت سيارة أحمد التي كانت تتقدم السيارات ونزل منها الرائد طارق وهو يصرخ في وجهه:

– في إيه يا جدع إنتَ؟

قال له الغفير إبراهيم بسرعة ما حدث فأشار إلى باقي القوة بالترجل من السيارة ليكملوا باقي المسافة القصيرة سيرًا على الأقدام حتى لا يسمع من في الفيلا أصوات السيارات، واطفأوا أنوارها ونظر لأحمد، وقال له:

– إستنى إنتَ هنا دورك انتهى.

ودار على عقبيه قبل أن ينتظر رد أحمد، وتقدم القوة ليخترقوا المزرعه التي على جانب الطريق متسترين بالظلام.

تقدمهم الغفير إبراهيم حتى وصلوا إلى أقرب نقطة للباب الرئيسي وأشار عليه لطارق ثم بدأ في التحرك وحده فقال له طارق:

– إنتَ رايح فين؟ خليك إنتَ مالكش دعوه بحاجة.

رد إبراهيم:

– يا باشا أنا مش هاقعد أتفرج وأنا عارف إن في واحدة جوه في خطر.

ثم تحرك رغم اعتراض طارق ليتجه إلى الناحية الخلفية من الفيلا حيث اتجه أدهم منذ قليل، وبدأ يتحرك في خفة حتى وصل إلى النافذة الخلفية فوجدها مفتوحة فاخفض رأسه واقترب حتى بدأ يسمع ما يحدث.

في ذلك الوقت كانت القوة قد انتشرت حول الفيلا في خفة منتظرين أمر الاشتباك من الرائد طارق الذي كان يقترب من الباب الرئيسي في حذر شديد، وقد رفع سلاحه استعدادًا للمواجهة ولكن أحد حراس البوابة خرج فجأة ليستكشف الأصوات التي سمعها ليجد طارق أمامه فرفع سلاحه باتجاه طارق الذي كان أسرع منه في اطلاق رصاصة باتجاه الحارس..كانت تلك الرصاصة إيذانا بالاشتباك فانطلق الرجال ليقتحموا الفيلا كما تم التخطيط من ثلاث جهات..من الباب الرئيسي للباحة يتقدمهم طارق..من جانبي الفيلا، ومن فوق السور. وما أن دخل طارق إلى باحة الفيلا مع القوة حتى إنطلقت الرصاصات نحوه فأردت أحد رجاله قتيلاً على الفور، وجرَحت رقبة طارق جرحًا سطحيًا ولكنه لم يشعر به وقد تدفق الأدرينالين في جسده فجعله يطلق النار بلا توقف من بندقيته الآلية بإتجاه مصدر الرصاص، وقد زاد اصرارًا على ألا يهزمه هؤلاء ثانية.

***

أغمضت أسيل عينيها وهي تسمع صوت الرصاص ولكنها أدركت فجأة أنها لا تشعر بأي ألم فعاودت فتحهما، وسمعت أمجد يقول في قلق:

- البوليس وصل بسرعة كده ليه؟

ثم نظر إلى مروان وأضاف:

- خد الرجالة كلهم واطلع تعامل معاهم.

نظر مروان مترددًا إلى أدهم وأسيل ومصطفى ثم نظر إلى أمجد الذي صرخ فيه:

- إتحرك يا بني آدم إنتَ واقف ليه؟ مالكش دعوة أنا هاتصرف معاهم.

ثم رفع سلاحه في وجه أسيل وقال:

- لو القيامة قامت برضه هاتموتي يعني هاتموتي.

وقبل أن يضغط على الزناد بجزء من الثانية كانت رصاصة الغفير إبراهيم الذي ظهر من النافذة المفتوحة تصيب كتفه..وقع سلاحه من يده وانطلق أدهم نحوه على الفور ليركل وجهه ثم أخذ السلاح من على الأرض، ووجهه ناحية أمجد الذي ظهر على وجهه الرعب.

فصرخت أسيل:

- لأ يا أدهم ما تُقتُلوش ما بِستاهَلِش.

كان أدهم يحاول السيطرة على رغبته الشديدة في قتله عقابًا له على الألم الذي سببه لأسيل، ولكنه لم يحب أن يفعل ذلك أمامها فاستدار وبدأ يعاونها على الخروج من النافذة، التي كان مصطفى قد خرج منها، لكي يعاون أسيل في الخروج.

وما أن خرجت أسيل من النافذة واستقرت على الأرض حتى وجد أدهم مصطفى وإبراهيم ينظران خلفه في ذعر.

نظر خلفه ليجد أمجد قد استل مسدسه وصوبه تجاه النافذة بالتحديد على أسيل التي شلت حركتها حينما رأت المسدس مصوّبا نحوها .

وقبل أن يتحرك أدهم من مكانه كان أمجد قد بدأ يضغط على الزناد في عصبية و ...

وانطلقت الرصاصات باتجاهها ...

لن تنسى أسيل تلك اللحظة ما حيت، حينما قفز مصطفى والغفير إبراهيم أمامها يحاولان تلقي الرصاصات عنها.

وقد نجحا في ذلك ....

أصابت الرصاصات المنطلقة إبراهيم ومصطفى معًا فوقعا على الأرض مضرجين في دمائهما.

صرخت أسيل وهي تترل على ركبتيها بجانب مصطفى وإبراهيم في نفس اللحظة التي رفع فيها أدهم سلاحه ليطلق دفعه من

الرصاصات أصابت كلها صدر أمجد الذي اتسعت عيناه في ذهول قبل أن يترنح قليلاً وبدا كأنه يحاول التشبث بأي شئ إلى أن توقف عن الحركة فجأة ووقع كالحجر على أرض الغرفة الخشبية.

قفز أدهم بعدها بسرعة باتجاه أسيل التي انحنت على الأرض تبكي بجانب مصطفى وإبراهيم.

نظر أدهم إليهما، وأدرك بخبرته أنهما لن ينجوا فجذبها من يديها وهو يقول:

- يلا بسرعة قبل ما حد يجي تاني.

استجابت لأدهم ومشت معه في خطوات سريعة وهي تبكي ومن ورائها كان إبراهيم يكافح ليرفع يده ليصلي صلاته الأخيره ..

باسم ... الاب .. الابن .. والروح القدس ..

الاله الواحد ..آمين

تلا الصلاة وهو يبتسم في ألم وقد أدرك الآن أنه ما من أحد في العالم يستطيع أن يتهمه بالجبن مرة أخرى.

مد يده الغارقة في الدماء إلى مصطفى وأمسك بيده فوجده قد فاضت روحه وإن ظلت الابتسامة الخفيفة تزين وجهه، وإصبعه تشير إلى أنه كان يتلو الشهادتين ، وقد أدرك قبل وفاته بلحظات أنه قد وجد أخيرًا الطريق ..

الطريق إلى لجنة...

وعندما أغمض إبراهيم عينيه..

لم يعاود فتحهما ثانياً ...

***

كانت الشمس قد غابت تمامًا فاتخذ طارق الظلام سترًا حتى وصل إلى سيارة الجيب التي تتوسط باحة الفيلا واختبأ وراءها ثم أعطى الأمر للقوة باضاءة الكشافات التي أحالت المنطقة إلى نهاراً كما جعلت الفيلا مكشوفة للجنود على عكس من في الفيلا. فالإضاءة جعلت من الصعوبة عليهم تبين المعالم خارجها.

وضع مشط ذخيرة جديد لسلاحه الآلي وحاول أن ينظر إلى الفيلا ليحاول تحديد عدد مطلقي النار إلا أن دفعة من الرصاص انطلقت ناحيته فرجع مكانه سريعًا..أخرج اللاسلكي وبدأ في الحديث بصوت عالٍ محاولاً أن يغطي على صوت الرصاص المنهمر من كل جانب:

– أيوه يا رجالة إثبتوا مكانكوا ومش عاوز إطلاق عشوائي للنار علشان في رهائن جوه.

جاءه صوت من الجهة الأخرى يقول:

– لاقينا اتنين من الرهائن يافندم خرجوا من الجهة الخلفية للفيلا واستقبلتهم القوة.

قال طارق بسرعة:

- فيهم الرائد أدهم؟

رد الصوت:

- أيوه يافندم.

- خليه يكلمني بسرعة.

أنهى جملته وخفض رأسه سريعًا إثر طلقة رصاص قريبة جدًا حتى آتاه صوت أدهم:

- أيوه يا طارق أنا وأسيل بخير خليك مكانك دلوقتي إنتَ في مكان خطر أنا عندي فكرة هانفذها.

- مالكش دعوه إنتَ يا أدهم وسيبنا في شغلنا..أفراد القوة هاياخدوكم بعيد عن مرمى الرصاص.

رد عليه أدهم بقسوة لم يعهدها فيه طارق:

- شغلكم هو شغلي يا طارق مفيش وقت للكلام ده أنا أدرى باللي بيحصل جوه بخلاف إني قريت ملف اللي اسمه مروان وهو المسؤول دلوقتي علشان الزعيم بتاعهم أنا قتلته.

رد طارق مستغربًا:

- الزعيم؟ هو كان موجود؟

- أيوه هاحكيلك بعدين المهم سيبني أنفذ فكرتي.

تنهد طارق في ضيق ولكن رصاصة أخرى أقرب من التي قبلها جعلته ينبطح تمامًا على الأرض وقد أدرك أنهم يحاولون الوصول إليه بطلقاتهم فقال سريعًا:

- ماشي يا أدهم إعمل اللي إنتَ عاوزه بس أنا هاحملك المسؤولية لو أي حاجة حصلت.

أعطى أدهم اللاسلكي للضابط الآخر وطلب منهم مكبرًا للصوت فأحضره أحد العساكر سريعًا..أمسكه أدهم وبدأ في الكلام:

- مروان؟ سامعني يا مروان إنتَ ورجالتك؟

لم يجد أدهم إجابة فقال:

- أنا عارف إنكم سامعيني جوه..أنا مش بطلب منكم الاستسلام لأن واضح إنكم مش ناويين بس عايز أعرف حاجة واحده بس.

توقف إطلاق النار فعرف أدهم إنهم يستمعون إليه فرفع صوته أكثر وهو يضيف:

- يا ترى رجالتك عارفين ماضيك يا مروان؟

وفي تلك الغرفة كان مروان يقف وظهره للحائط وقد ظهر عليه الارتباك عندما قال أدهم جملته الأخيرة.

نظر إليه الرجلان وقال أحدهم:

- الضابط ده يقصد إيه يا أخ مروان؟

رد عليهم مروان بتهكم:

- يقصد اللي بقصده إنتو هاتصدقوه ولا إيه؟

نظر إليه الرجلان بشك ثم نظرا لبعضهما وقال أحدهما:

- لأ طبعًا بس شكلك قلقت كده وبعدين يا أخ مروان كلنا كنا مغيبين عن الحقيقة قبل ما ربنا يهدينا إلى الصواب فا ماتقلقش من أي حاجة.

إرتفع صوت أدهم بالخارج وهو يكمل كلامه:

- يا ترى يا مروان عرفوا إنك كنت بتسرق تبرعات الناس من الجمعية الخيرية اللي كنت بتشتغل فيها؟

هنا عقد الرجلان حواجبهم نظرا إلى مروان الذي قال بغضب:

- إنتو بتبصولي كده ليه إنتو هاتصدقوا اللي بيقوله؟ وبعدين مش إنتو لسه قايلين إننا كنا مغيبين؟

رد عليه أحد الرجلين وقال:

- أيوه بس مش لدرجة سرقة فلوس الصدقات يا أخ مروان.

إرتفع صوت أدهم ثانية:

– يا ترى يا مروان هم عارفين بموضوع سهراتك كل يوم في الكازينوهات ورمي فلوسك على الرقاصات؟ ولا تحب نوريهم الفيديو بتاعك وإنتَ بترقص مع الرقاصة ومبسوط أوي وسايبهم هم وسط النار؟

فقد مروان في تلك اللحظة أعصابه وأخرج سلاحه من النافذة وهو يصرخ:

– إنتَ فاكر نفسك مين علشان تقول عليا كده؟

وأطلق دفعة من الرصاص تجاه الصوت ثم دخل ثانية بسرعة وأخفى نفسه بعدما بدأ أفراد القوة بإطلاق النار على النافذة، ولكن أدهم أشار إليهم بوقف إطلاق النار وأكمل موجهًا حديثه إلى رجال مروان:

– اللى إنتو فاكرينه ولي من أولياء الله الصالحين أديكم عرفتوا حقيقته يا ترى عاوزين تموتوا علشانه؟ يا ترى عاوزين تموتوا معاه في مكان واحد حتى؟ أنا بقول هاتموتوا لأن المقاومة في حالتكم دلوقتي هاتعني نهايتكم.

قال أدهم هذا الكلام وأنزل مكبر الصوت مشيراً إلى القوة بالصمت..شد مروان أجزاء سلاحه مقررا مواصلة إطلاق النار ولكن أحد الرجلين صرخ فيه:

– إستني يا أخ مروان.

واقترب منه قليلاً وهو يضيف:

- الكلام اللي قاله ده صحيح؟

صرخ مروان في وجهه:

- صحيح ولا مش صحيح إنتو عاوزين إيه؟ إنتو من غيري ماكنتوش لاقيين تاكلوا دلوقتي فارق معاك اللي بعمله؟

قال الرجل الآخر:

- ماسلمناكش عقلنا علشان ماكناش لاقيين ناكل يا..

صمت ثانية ثم أضاف:

- يا مروان بس..إنتَ ماتنفعش أخ.

صرخ مروان بهيستيريا وهو ينظر من النافذة محاولاً رؤية أفراد القوة ليطلق عليهم الرصاص:

- أنا اللي عملتكم..أنا اللي صنعت منكم بني آدمين..لما نهرب من هنا هادي لكل واحد فيكم الفلوس اللي عاوزها بس ماتخلوش الكفرة دول ينتصروا علينا.

نظر الرجلان إلى بعضهما البعض نظرة طويلة ثم اتخذا قرارهما...

***

سمع طارق طلقات رصاص داخل الفيلا فأمسك اللاسلكي وقال:

- أنا سامع في ضرب نار جوه في حد شايف حاجة؟

أتاه صوت أدهم من الناحية الأُخرى:

- مفيش حاجة واضحة من عندنا بس أنا متوقع اللي حصل.

وما إن أنهى كلامه حتى فُتِحَ باب الفيلا..تأهبت القوة ولكن أدهم أشار إليهم بأن يخفضوا أسلحتهم في الوقت الذي خرج فيه رجلان يضعان أيديهما فوق رأسيهما في وضع الاستسلام.

جرى نحوهما أدهم وعندما تلاقت نظراته مع نظرات الرجلين أدرك أن مروان قد انتهى أمره..فتراجع بهدوء وأعطاهما ظهره وبدأ يسير باتجاه المكان الذي تختبئ فيه أسيل وقد بدأ أفراد القوة يظهرون من كل مكان ويدخل بعضهم إلى الفيلا لتمشيطها من الداخل.

وجد طارق وقد تلوثت بدلته بالتراب الممزوج بالدم الناتج عن جرحه فقال له أدهم:

- إنتَ كويس؟

رد طارق:

- عمر الشقي بقي..فكرتك حلوة على فكرة وهاذكرها في تقريري إن شاء الله.

قال له أدهم وقد علت وجهه نظرة غامضة:

- ماعدش فارق يا طارق تذكرها أو ماتذكرهاش.. ماعدش فارق..

وقبل أن يرد عليه طارق ظهرت أسيل، وجرت على أدهم والقت بنفسها عليه وهي تبكي..أخذها أدهم بين ذراعيه متجهًا نحو بوابة الفيلا.

***

ارتجفت أسيل بين ذراعي أدهم وهي تبكي في صمت..لم تكن قد استوعبت بعد أن كل شيء قد انتهى..مسح أدهم على شعرها محاولاً تهدئتها قائلاً:

- خلاص كل حاجة انتهت، وبعدين أنا مش قولتلك متخفيش طول ما أنا معاكي؟

نظرت إليه وهي ما تزال ترتجف بين يديه:

- ما ظُنِش إنها انْتَهَت يا أدهم ....

ضمها أدهم إليه بقوة وهما ما زالا يسيران باتجاه البوابة حتى لمحا أحمد قادمًا من وسط الظلام مسرعًا باتجاههما، وقد بان الذعر على ملامحه:

- الحمد لله..من صوت الرصاص جوه كنت مرعوب عليكم..كلكم كويسين؟

لم ينتظر الرد ونظر إلى أسيل وأضاف:

- حمد لله على سلامتك.

نظرت إليه بتعب والدموع ما تزال تنهمر من عينيها:

- الله يسَلمَك..ممكن نبْعِد مِن هون بِسُرعة؟ مِش قادرِه أَقِف على رجلي.

توجه أدهم باتجاه السيارة وفتح لأسيل الباب وهمس في أُذنها حتى لا يسمعه أحمد وهو يقول:

- تفضلي فاتنتي.

لم تتمالك نفسها واطلقت ضحكة خفيفة من بين الدموع المنهمرة لكنها لم تقل شيئًا جلست بصمت في السيارة وجلس أدهم بجانبها في المقعد الخلفي ولكن فوجئوا بطارق يعترض السيارة واقترب من النافذة قائلاً:

- أسيل لازم تكون موجودة عندنا الصبح يا أدهم..إنتَ فاهم طبعًا..شوية روتينيات.

رد أدهم عليه:

- مفيش مشكلة أنا هاجيبها وأجي الصبح.

نظر طارق إلى أدهم وأسيل في صمت ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وقال لأدهم:

- الحمد لله على سلامة أسيل يا أدهم.

تراجع بعدها للخلف في إشارة لأحمد الذي تحرك بالسيارة وهو يسأل أدهم:

- على فين دلوقتي يا أدهم؟

فتحت أسيل عينيها قائلة:

- على بيتي.

نظر إليها أدهم محاولاً إقناعها:

- طب إيه رأيك تيجي تقضي ليلتك مع أُمي علشان تاخد بالها منك وأنا حنام عند أحمد؟

أغمضت عينيها بقوة كأنها تحاول السيطرة على ألم الرأس الذي سيطر عليها قائلة وهي ما تزال مغمضة العينين:

- لا لا بَفَضِل أكون ببيتي وبراحتي..مَعلِش أدهم خليني على راحتي.

أخرج أحمد هاتفه قائلاً:

- طب على الأقل نتصل بشيرين نطمنها عليكي لأنها كانت حتتجنن عليكي وهي اللي قومت الدنيا من ساعة ما تأخرتي على ميعادك بالجامعة..أنا حتصل بيها تسبقنا على شقتك إيه رأيك؟

قالت أسيل:

- مافِشْ داعي لأني كتير تعبانة بَفَضِل أحكي معها تليفون وأشوفها بُكرا بعد ما أرتاح.

اسندت رأسها إلى الخلف محاولة نفض ذلك الألم ولكن عبثًا.

اتصل أحمد بشيرين:

- ألو آنسة شيرين؟ عندي أخبار حلوة أوي.

- أيوه أسيل معايا أنا وأدهم واحنا في طريقنا لشقتها.

ضحك أحمد ضحكة خفيفة وأجاب:

- آه والله العظيم أسيل معانا..خدي كلميها بنفسك.

قال أحمد لأسيل:

- عايزه تطمئن عليكي بنفسها.

التقطت أسيل التليفون منه:

- ألو...

ابتسمت رغمًا عنها وقالت:

- إشْتَقْتِلِك كتير يا بِنت، واشْتَقِتْ لكلامك..

صمتت للحظة وكانت تنصت لما تقوله شيرين لترد:

- أنا كتير تعبانة وبُكرا رَح أجي عَلى الجامعة.

ولكن يبدو أن شيرين كانت تصر على شيء ما وظهر أن أسيل لا تستطيع مناقشتها فيه أو الاعتراض حتى قالت في النهاية:

- خَلَص حبيبتي رَح أستناكي..سلام.

أخذ أحمد التليفون من أسيل وأضاف وهو ينظر في المرايا في جهة اليمين:

- واضح إن شيرين بتحبك أوي.

ابتسمت أسيل وركنت رأسها للخلف ونظرت لأدهم الذي ما زال ينظر إليها بقلق وقالت:

- ماتِقْلَقِش خلص شيرين رَح تيجي تِقْضِي معاي الليلة

قال أدهم:

- كويس أوي..ماهو مكانش ينفع خالص تفضلي لوحدك الليلة.

أمسك أدهم بيدها وضغط عليها بقوة فأغمضت أسيل عينيها وسيطر الهدوء على جو السيارة حتى كسر أحمد الصمت ليسأل:

- أدهم هو عنوان أسيل إيه؟

قال أدهم:

- إنتَ أوصل جامعة القاهرة وأنا حقولك.

أكمل أحمد السير حتى وصل قرب الجامعة في نفس اللحظة التي فتحت أسيل عينيها وهي تنظر إلى قبة الجامعة وعادت إغلاقها بعدما ذرفت دمعة وقد تذكرت الدكتور أمجد ... أستاذها.

نظر أحمد عبر المرآة لأدهم سائلاً:

- على فين يا حضرة الضابط؟

وصف أدهم الطريق لأحمد إلى أن وصلوا مدخل العمارة..نزلت أسيل ومعها أدهم الذي نظر لأحمد قائلاً:

- هاطلع أسيل البيت وأنزِلَك.

لكنهم فوجئوا بسيارة تقف بشكل عنيف فنظر أدهم بتأهب وامتدت يده إلى سلاحة بشكل غريزي..لكنه وجد شيرين تترجل منها وبدون أي كلمة تحتضن أسيل وتبدأ في البكاء.

احتضنتها أسيل قائلة:

- خَلَص شيرين أنا الحمد لله كتير منيحة وزي العفريتة.

ناولتها منديلاً ورقيًا كان في يدها بدأت تمسح شيرين وجهها وهي تقول بتشنج:

- ماعرفش كان هايجرالي إيه لو كان حصلك حاجة.

أخذتها أسيل من ذراعها ونظرت لأدهم وأحمد الذي ما أن رأى شيرين حتى ترجل من السيارة وقبل أن تكمل أسيل قال أحمد:

- إزيك يا آنسة شيرين؟

نظرت شيرين إلى أحمد وكأنها قد اكتشفت لتوها إنه موجود وقالت:

- الحمد لله يا أستاذ أحمد معلشي ماخدتش بالي منك.

نظرت أسيل لأدهم قائلة:

- خَلَص أدهم روح إنتَ ارتاح وبكرا الصُبِح تَعال معي أمن الدولة، وبعدين وصِلني الجامعة.

هز رأسه بالإيجاب ونظر إلى شيرين وقال مبتسمًا:

- خلي بالِك منها يا شيرين..هاسيبهالك أمانة معاكي لحد الصبح.

ثم استدار تجاه السيارة وتحرك معه أحمد الذي نظر إلى شيرين نظرة أخيرة وكأنه يودعها.

استقلا السيارة، وفي الطريق سأل أحمد:

- إنتَ تعرف شيرين كويس يا أدهم؟

أجاب أدهم:

- يعني مش أوي..بس كلام أسيل عليها خلاني أعرف عنها كتير.

ثم نظر إليه بخبث قائلاً:

- بتسأل ليه بقى؟

قال أحمد متظاهرًا أنه يتفحص الطريق:

- لا خالص..بس البنت شكلها كويسه.

أجاب أدهم:

- لا هي مش كويسه.

توقف أحمد فجأة، كادت السيارة التي تسير خلفه الاصطدام بسيارته، نظر إلى أدهمَ مستغربًا:

- مش كويسه إزاي؟

فوجئ أدهم برد فعل أحمد:

- إيه مالك يا ابني؟

قال أحمد:

- إنتَ اللي بتقول يا أدهم..البنت مش كويسه؟

ابتسم أدهم قائلاً:

- لأ، مش كويسه بس..دي كويسه أوي. ممكن تسوق بقى لأنك عامل أزمة في الشارع. كان أحمد على وشك أن يلكم أدهم ولكنه تمالك نفسه وعاود القيادة باتجاه بيت أدهم.

***

-الفصل الثاني عشر-

أنهت أسيل حمّامها وغيّرت ملابسها وأول شئ فعلته كان الاتصال بأهلها، رفعت السماعة وضغطت الرقم وما أن سمعت صوت والدها الباكية لتقول:

- لَه لَه لَه إم أسيل مِشْ حِلو صوتِك وإنتي بتِبْكي.

ما إن سمعت الوالدة صوت إبنتها حتى إنهارت بالبكاء ولم تستطع الرد حتى التقط والدها السماعة ليقول:

- ألو، أسيل؟

قالت أسيل محاولة رسم إبتسامة على وجهها لتهدئة والدها:

- أيوه أسيل يابا..مالكُم يا جماعة؟ ماصَارِش إيشي.

تمالك والدها دموعه بالقوة حتى يقول:

- إسمعي..إنتي لازم ترجعي بسرعة ماتْضَلكِيش هناك لَحَالِك.

ردت أسيل مهدئة:

- ماتِقْلَقِش عليّ، وبَعدين مِين قَالك إني لَحَالي؟ أنا في حَواليّ ناس بيِخَافوا عليّ أكتر ما أنا بخاف على حَالي، خَلَص يا جماعة الخير ما تِقْلَقوش.

سمعت صوت تغريد تطلب من والدها الكلام معها:

- يابا يابا، أعطيني أحْكي مَع أسيل.

ناولها والدها السماعة لتقول بصوت مرتجف:

- أسيل إنتي مْنيحَة؟ إيشْ صَار مَعِك؟ إنتي وين وليش ما اتصلتي و...

ضحكت أسيل مهدئة تغريد قائلة:

- شوي شوي عليّ يا بنت، أنا كتير مْنيحَة حبيبتي ما تِقْلَقِيش عليّ، مِحْنِة مَرَت على خير الحمد لله، إسْمَعي، هيّ الماما هِديت؟

- آه هِديت ...

قالت أسيل:

- طَبْ أعطيني إياها.

ناولت تغريد السماعة لوالِدتها لتقول:

- طَمنيني عَليكي.

قالت أسيل مهدئة:

- والله العظيم مْنيحَة، وكتير مْنيحَة ماتِقْلَقوش عليّ، وحياة غلاوتي عندك تمسحي دموعك الغاليين.

قالت الأم وهي تمسح دموعها:

- طيّبْ حبيبتي ضَلك إتّصلِي كُل يوم عَلَشان نِطّمِن عَليكي.

قالت أسيل:

- إنتِ تُؤمُري إم أسيل، ياللا كَمان إنتو دِيروا بَالكُم على حَالكُم وعَلى بَعَض، سَلام.

وضعت سماعة الهاتف وتوجهت إلى سريرها وبمجرد أن وضعت رأسها على الوسادة نامت كأنها لم تنم دهراً كاملاً.

***

حاولت أسيل أن تستشعر السكون ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل.

ففي القاهرة من الصعب أن يخيم السكون في أي ساعة من ساعات الصباح أو المساء فتلك المدينة الساحرة لا تعرف الهدوء..

ولكن ذلك لم يهزم ساعتها البيولوجية فكانت تستيقظ مبكرًا كل يوم كعادتها، إلا ذلك الصباح، تعب الأيام الماضية تملك جسدها وجعلها تتأخر قليلاً في النوم.

نظرت بجانبها لتجد شيرين مستيقظة تنظر إليها، ابتسمت بعد أن أغمضت عينيها ثانية على أمل أن تلتقط ذيول الحلم قبل أن يفر هاربًا، قالت بصوت غلب عليه النوم:

- إنتِ بِتْشَبهِي عَليّ؟

ضحكت شيرين وقالت:

- كنت بفكر لو كنت خسرتك لا قدر الله، كنت هاعمل إيه؟

ضربتها أسيل ضربة خفيفة وقالت ضاحكة وهي تعتدل على السرير:

- إنتِ لِسَه يا شيرين؟ خَلَص حبيبتي قولتِلِّك هايني مْنِيحَة.

قامت شيرين من على السرير ثم قالت لأسيل:

- ذِكرى النكبة بُكرا..إنتِ أكيد تعبانة أنا هاكلم محمد يشوف حد غيرك يتكلم بكرا و ...

قاطعتها أسيل:

- أنا اللي رَح أحْكِي بُكرا ومِشْ أي حَد تاني، أنا هلأ عِندي إصرار أكبَر إني أحْكِي، ولازم الكُل يِسْمَعني.

رن الهاتف بجوارها فأجابت بسرعة:

- صباح الخير يا حضرة الضابط.

سمعت ما يقوله أدهم ثم قالت:

- حاضر ٢٠ دْقِيقَة ورَح أكُون جَاهزِة إن شاء الله.

أنهت مكالمتها ونظرت إلى شيرين قائلة:

- أدهم رَح يُمرُق عَليّ كمان شْوَيّ عَلَشان أرُوح أعطي افادتي ومن بَعدها رَح أجي عَلى الجامعَة، أُسبُقيني إنتِ على هناك.

***

كان يومًا مربكًا بحق إذ لم تستطع أسيل ترجمة ردود الفعل التي واجهتها من صباح اليوم حتى مسائه. دخلت من باب شقتها متوجهة مباشرة للسرير لتستلقي عليه وقد ظهر عليها الإرهاق الشديد.

كان يومًا طويلاً لا يتناسب مع فتاة كانت مخطوفة وعلى وشك التعرض للقتل قبلها بيوم واحد فقط، ولكن كون أسيل فلسطينية تحيا التحديات يوميًا كأنها جزء من تكوينها..ذلك عزز في داخلها الشعور بحتمية النضال والصراع للبقاء في مجتمع يجعلها تحارب للحصول على أقل حقوقها في كل مجالات حياتها..يحاربونها ويجعلونها مستهدفة لتتعرقل في حجر العنصرية الموضوع تحت أقدامها أينما توجهت. هذه العنصرية ولدت فيها القدرة على البقاء والصمود..فقط من يعيش في مجتمع عنصري يرفضها ويرفض وجودها ويضعها في حالة نضال يومية حتى وإن كانت بسيطة.

فقط من يعيش هذه الحياة يعرف معنى الإصرار. ..

يعرف معنى البقاء والاستمرار ...

كان يومًا حافلاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى بدأ في مقر أمن الدولة ومضايقة وكيل النيابة لها باسئلته السخيفة التي أشعرتها أنها هي المتهمة، ولولا وجود أدهم في التحقيق ما كانت لتعرف ما الذي ستقوله وقتها.

فقط عرفت ما كانت تريد أن تعرفه بشأن الدكتور أمجد

كانت تريد أن تعرف لماذا فعل ذلك..

عرفت من طارق أن التحقيقات الأولية أشارت إلى أن هناك جهة معادية لم يحددها لها قد أوقعت أمجد في شرك عندما كان في الخارج يدرس لرسالة الدكتوراه وهددوه بفضحه على الملأ إن لم يتعاون معهم.

لم يذكر طبيعة هذا الشرك ولكن أيًا كان ما حدث فلم يقنعها أي مبرر يجعل إنسانا المفترض أنه سوي يعمل ضد صالح وطنه؟

لكن أدهم قال لها أنه لا يستطيع إنكار أن الدكتور أمجد كان شخصًا مثقفًا حقيقيًا، وليس مدعيًا للثقافة ولكن من قال أن المثقف يمتلك مناعة ضد الفساد..!؟

فالعقل أحيانًا يخون صاحبه والذكاء عندما يزيد عن حد معين قد ينقلب ضده ليؤيد قناعات يجدها أصحاب العقول الأقل ذكاء بمراحل قناعات متطرفة حمقاء.

استغربت قليلاً فسألها أدهم: "ألا تجدين عالم ذرة أو أديبًا كبيرًا يسجد أمام بقرة في نهاية يومه ليتعبد إليها"؟

أومأت برأسها وقد فهمت ما أراد قوله، ولكن ظلَّ في قلبها جزء لا يستطيع تقبل الفكرة أن يخون أحد وطنه بهذا الشكل.

لم ينته اليوم عند هذا..فقد كان يوما مكدسًا بالأحداث مر أمام عينيها كأنه شريط فيديو قد منتج بيد عليا من الصعب إعادة ترتيب أحداثه، وإن لم يمر ذلك الشريط كما كانت تتمنى.

ما حدث في الجامعة أثقل كاهلها..صحيح أن شيرين أثبتت أن حبها لها صادق ومن القلب..صحيح أن محمد قد ظهرت في عينيه سعادة حقيقية عندما رآها بخير حين اقترب منها ليقول شيئًا إلا أنه لم يستطع فترك عينيه تتحدثان، وخالد أيضًا بدا سعيدًا حين ضغط على يدها بقوة ليترك يده تترجم سعادته بسلامتها.

ولكن أميرة ....!!

أميرة تلك الفتاة التي رغم هجومها عليها إلا أن أسيل لم تستطع أن تكرهها، ولهذا هي دائمًا ما تتوقع أن قلبها أبيض ولكن مغطى بغبار الجهل..أميرة فضحتها عيناها فهي لم تكن بتلك السعادة عندما رأتها، وقد لمحت بالكلام أنه ربما يكون الدكتور أمجد ليس كما تدعي هي وإنها كانت لعبة من الحكومة لكي يبرروا شيئًا مبهمًا، وعندما المحت أميرة بكلامها أن من خطفها ربما كان عنده حق لم تستطع أسيل التحمل أكثر فقررت المغادرة، وإن راجعت مع محمد أولاً تفاصيل كلمتها غدًا ...

يا إلهي ..!! غدًا!؟

اعتدلت أسيل على سريرها وكأنها لم تكن تعرف أن ذكرى النكبة غدًا..بدأت تفكر في كلمتها التي ستقولها..تفكر في نظرة الناس إليها.

ترى هل يعرفون أن الفلسطينية التي ستكلمهم غدًا تحمل جواز سفر إسرائيلي..؟ وجنسية إسرائيلية...!!؟

ماذا سيقولون؟... كيف سيعلقون؟

ارتجفت كمن يعاني من البرد على الرغم من أن الجو كان حارًا في غرفتها..أمسكت هاتفها وقررت أن تسمع صوت أدهم قبل الخلود للنوم عله يبخر بعضًا من تلك الأفكار السيئة التي تتماوج في رأسها.

انتظرت حتى يرد لتقول:

– مساء الخير أدهم.

رد أدهم بهدوء كأنه ارتاح لسماع صوتها:

– مساء الفل.

قالت مبتسمة:

– أولاً بَعْتذِر على السيعَة الـــمِتأخرِة..بَسْ حَبيت أسْمَع صُوتَك لأني شْوَيّ مِتْوَترِة وقَلقَانة مِن بُكرا.

– ما تقلقيش..أنا واثق إنه كلمتك هاتبقى قوية جدًا بكرا.

– إن شاء الله، وأنا مِشْ رَح أقول كِلمتِي إلا لما أشُوفَك قاعِد في مَحَلَّك بين الـــحُضُور.

إبتسم أدهم قائلاً:

– يعني معقول ماجيش؟ ومش بس كده كمان ماما حتكون معايا..حتيجي خصوصي علشان تسمعك.

– عَن جَد؟ سَلِملِي عَليها كتير وقُولّها إني مِشْتَاقَتلها وخَليها تِدْعِيلي.

– هي كمان بتسلم عليكي..شدي حيلك إنتي بس ونامي بدري، وفي أي وقت عاوزه تكلميني إتصلي بيا على طول ماتقلقيش.

– حَاضِر..دير بَالَك على حَالَك..تصبح على خير.

وضعت سماعة الهاتف مكانها وركنت رأسها على الوسادة محاولة استدراج النوم لجفونها، وهي تفكر في تلك اللحظة التي ستقف فيها على المنصة أمام زملائها في الجامعة لتقول كلمتها وكم هي محظوظة إنها ستعتلي تلك المنصة.

المنصة التي تعتبر من أهم المنصات العربية على الإطلاق ..

منصة العلم ..

جامعة القاهرة...

***

-الخاتمة -

وقفت أسيل في كواليس المسرَح الذي أُعِد خصيصًا لإقامة الذكرى الثانية والستون للنكبة..اتجهت إلى الستار واسترقت النظر من خلال فتحة صغيرة؛ لتتسع عيناها في رهبة...!

لم تكن تتوقع هذا الكم من الحضور..بحثت بعينيها حتى وجدته..كان أدهم يتحرك بين الكراسي باحثًا عن مقعده وهو يمسك بيد والدته التي ظهر عليها قليل من الضيق.

لاحظت أحمد صديق أدهم يجلس بجوار شيرين ويتكلم معها هامسًا..حاولت قراءة ما يقوله على ملامح شيرين..ابتسمت وقد توقعت تفاصيل الحوار من حمرة الخجل البادية على وجه شيرين الذي كان أشبه بتفاحة حمراء.

أقفلت الستارة ومن بعدها عينيها محاولة السيطرة على خفقات قلبها المتسارعة من رهبة المكان ورهبة الحضور الغفير..كانت تتوقع أنها ستتكلم أمام جمع من الطلبة وليس هذا الكم الغفير من البشر.

جلست على كرسي قريب منها لتأخذ نفسًا عميقًا، وبدأت تقلب الأوراق التي دونت عليها ملاحظاتها كانت تفكر وترتب ما ستقول حتى سمعت محمد يقول لها:

- أسيل إنتي جاهزة؟ حنبدأ كمان شوية.

رفعت عينيها تجاهه قائلة:

- آه جَاهزِه ماتِقْلَقِش.

بدأت رعشة خوف تتسلل لجسدها، لاتدري لماذا ..

هل هو خوف من أثار ما عانته الأيام القليلة السابقة...أم هو خوف من مواجهة هذا الكم من الحضور بقضيتها؟

طردت تلك الفرضية من ذهنها لأن قضية فلسطين لا تخصها وحدها بل تخص كل العالم العربي، وكل الشعوب العربية. كان عقلها مشغولاً بالكثير من الفرضيات والأفكار التي تعصف بذهنها حتى سمعت صوتًا يهمس لها بعد أن جلس بجانبها:

- هو القمر سرحان في إيه؟

اخترق ذلك الصوت الهامس جدار جسدها ليغوص في أعماقها منتشلاً إياها من شرودها فأغلقت عينيها باسمة وهي تقول قبل أن تلتفت:

- خايفِه يا أدهم..بَسْ بما إنَّك وصِلِت الخوف لازِم يرُوح.

أمسك أدهم يدها وضغط بقوة:

- متخفيش..أنا دايمًا معاكي.

أنهى أدهم جملته حين سمع صوت محمد عبر الميكرفون وقد بدأ بالكلام للحشد..ليستأذن من أسيل منسحبًا:

- أنا هارجع جنب ماما وعاوزك ترفعي راسنا بقى.

هزت أسيل رأسها قائلة:

- إن شاء الله.

حولت أسيل نظرها إلى محمد من جانب المسرَح وهو يتكلم وقد بدا واثقًا من نفسه وهو يقول:

- ٦٢ عامًا وشعبنا يعاني ...

أطرق لحظات ثم أكمل مستطردا:

- لا..لستُ فلسطينيًا..أنا مصري أبا عن جد ولكني ومعي ملايين المصريين نعتبر أننا والفلسطينون شعب واحد..لذلك أنا دائمًا ما أُشير إليهم بأنهم شعبنا.. ٦٢ عاما من الإحتلال عانى فيها شعبنا..الشعب الفلسطيني من ويلات ما بعدها ويلات..

من إحتلال وطرد وقمع و ...

صمت قليلاً ونظر الى الحشود الموجودة وهو يضيف:

- وإحنا كمان عانينا معاهم..لما بنشوف أهلنا كل يوم بيتشردوا وبيموتوا قدامنا ومش في إيدينا شيء نعمله.

رفع رأسه:

- ٦٢ عامًا ونحن نرى التخاذل العربي بكل صوره في مواجهة تلك القضية..لذلك نحن في جامعة القاهرة نحرص أشد الحرص على إحياء ذِكرى النكبة كل عام لنذكر من ينسى ...

أن فلسطين ما زالت هناك ...

تنتظر خروج صلاح الدين ....

وإن لم تفعل ذلك جامعة القاهرة بكل ما تحمله من مكانة، والتي كانت وما زالت منارة العلم في الشرق الأوسط، فمن يفعله غيرها؟

اليوم يشرفني أن أقدم لكم زميلتي العزيزة والتي كانت صورها تحتل الجرائد في كل العالم حتى الأمس، نحمد الله على سلامتها، لتلقي علينا كلمتها في هذه المناسبة أقدم لكم زميلتي:

أسيل عبد الله كيال...

تعالى التصفيق في القاعة وهو يشير إلى أسيل بالدخول وتخلل التصفيق بعض عبارات الاعتراض والاستهجان مجهولة المصدر..والتي تجاهلها محمد وهو يتحرك ليفسح المجال لأسيل للوقوف أمام الميكروفون.

كان أدهم ينظر إلى أسيل بفخر وابتسامته على وجهه، فنظرت إليه والدته وقالت له بصوت منخفض وهي تعيد النظر إلى أسيل:

- ما ينفعش يا أدهم ..صدقني ماينفعش يابني...

نظر إليها أدهم وقد زالت الابتسامة من على وجهه، وهم أن يقول لها شيئًا إلا أنه سمع أسيل حين بدأت بالكلام:

- بداية بحب أوجه شكري لجامعة القاهرة..تلك المنارة التي لا أحد يستطيع إغفال ما قدمته ومازالت تقدمه للأُمة العربية..أود أن أشكرها لأنها لم تغفل عن حقنا التاريخي ولم تترك فرصة لنسياننا بإقامتها وإحيائها ذكرى النكبة كل عام، وأود أن أقول أيضا أن تلك النكبة ليست نكبة الشعب الفلسطيني وحده، وإنما هي نكبة للأُمة العربية بأكملها.

قلبت الأوراق التي كانت تحملها لتكمل:

- جئتكم من حيفا أحمل سلام جبال الكرمل التي مازالت شامخة رغم الإحتلال...

جئتكم وفي جعبتي عبق التاريخ ورائحة شجر ليمون قرية والدي...

قريه البروة ...

كما أحمل رائحة البرتقال اليافاوي والذي مازالت والدتي تشتهي طعمه..ذلك الطعم الذي لا يدانيه طعم ..

جئتكم وأنا أحمل معي الحنين والعتب على الأنظمة العربية التي تحاول التهرب من مسؤوليتها التاريخية تجاه القضية الفلسطينية.

مرت ٦٢ عامًا وخلال تلك الفترة لم نسمع حلاً حقيقيًا وصادقًا يعيد اللاجئين إلى وطنهم..بل العكس ما يحدث ولا تستطيعون تخيل

الألم الذي نشعر به ونحن نرى البلاد العربية تهرول واحدة تلو الأخرى للتطبيع مع من احتل بلادنا ..

مع إسرائيل ...!

أخذت نفسًا عميقًا لتكمل كلمتها وقد بدأت تشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقها لتقول وهي مركزة نظرها على الأوراق التي بين يديها:

- ثم بعد ذلك نظل نسمع عن رؤساء عرب يتصلون برئيس دولة إسرائيل لتهنئة إسرائيل بعيد استقلالها...

استقلالها مِن مَن؟

منا نحن...!!!؟

ارتفع صوت من وسط الحضور يقول:

- لولا التطبيع اللي مش عاجبك ده ماكنتش واحدة إسرائيلية زيك هاتقف في قلب جامعة القاهرة.

لم تستطع أسيل تحديد مصدر الصوت فنظرت إلى الجمهور الغفير محاولة مواجهته وقالت:

- يبدو أن كون اسمي عربي فلسطيني ما شفعليش عند بعض الحضور، ولا كوني فلسطينية مولودة على أرض فلسطين من أب وأم فلسطينيين حتى النخاع أيضًا ماشفعليش.

أخذت نفسًا عميقًا ورفعت رأسها وهي تكمل بنظرة تحدٍ كأنها تنظر لكل واحد جالس في تلك القاعة على حدة ورفعت صوتها قائلة:

- ولذلك وبصفتي أحمل جواز سفر إسرائيلي أود من مكاني هذا ومن على منبر جامعة القاهرة الموقرة أن أوجه شكري العميق لدولة إسرائيل..!!

تعالت أصوات البعض وظهرت الدهشة على وجه الكثيرين، وتجهّم أدهم وعقدت الدهشة لسانه وتحاشى النظر إلى أُمه وهو يستمع إلى أسيل في دهشة، وعقد أحمد حاجبيه في غضب وهم بقول شيء لولا أن أمسكته شيرين من يده ورمقته بنظرة صامتة ليبقى جالسًا وعاودت النظر لأسيل منتظرة أن تكمل ما لديها.. أعادت شيرين النظر إلى أسيل كأنها ترجوها الاستطراد نظرت أسيل إلى شيرين ومن بعدها جالت بنظرها للحشد ثم أكملت وببطئ متعمد:

- أحب أن أوجه شكري لإسرائيل لأنها وعلى مدى ٦٢ عامًا عملت المستحيل لتشعرنا بأننا مش أهل البلاد الأصليين..أشكرها لأنها عاملتنا دائمًا كضيوف من الدرجة الثانية والثالثة، ولربما الرابعة في بلد من المفترض إنه...

صمتت قليلاً لتضيف بحزم وبصوت أكثر قوة:

أنه بلدنا ...

أنه أرضنا ...

لأنها جعلت من أراضينا وقرانا وبيوتنا التي ولد بها أجدادنا وأهالينا ملكاً لليهود القادمين من كل بقاع الأرض..اليهود الغرباء سكنوا بيوتنا وحولوا قرانا إلى مزارع بقر حتى تبدلت رائحة الليمون برائحة فضلات البقر في قريتي..قرية البروة.

رفعت يدها وكأنها تعد وهي تضيف:

عاملتنا دائمًا كمواطنين من الدرجة الثالثة.

في التعليم ...

في الوظائف ...

في البنية التحتية في قرانا وشوارعنا ...

في التمييز العنصري.. حتى في القضاء ...

دمرت اقتصادنا ...

عملت فصلاً بيننا وبين اليهود في المسكن ...

بنيت عمارات خصيصًا لليهود والعرب ممنوعون حتى إنهم يسكنوها..ممكن أن الخص هذا التصرف بكِلمةٍ واحدةٍ وهي "الابرتهايد"...

أي الفصل العنصري مثل ما كان يتبع في جنوب أفريقيا.

وأكثر من هذا كُلُّه ...

صمتت للحظة لتستطرد بصوت أعلى:

بَشكُرها لأنه هاي العنصرية عززت فينا قوميتنا وانتماءنا وهويتنا الفلسطينية العربية.

وجعلتنا لا ننسى أبدًا أننا فلسطينيون...

وسنظل فلسطينيين مهما فعلوا ومهما مرت السنين...

تعالى التصفيق في أرجاء القاعة حينها نظرت لأدهم بعد أن كان قد هدأ.

رفعت صوتها كي تغطي على التصفيق الحاد:

- بشكرها لأنّها ساعدتنا إننا ما نِنْسَاش أبدًا ...

إننا محتّلون ...

ارتفع صوت آخر يقول:

- كلكم خونة...

رفعت أسيل يدها اليمنى كأنها تقسم وقالت:

- أعترف...

جالت بعينيها في القاعة كأنها تبحث عن صاحب الصوت وأكملت:

- أعترف أن هناك من نسي...

أن هناك من خان...

بَسْ إحنا يا صديقي مليون ونصف المليون فلسطيني داخل إسرائيل قَديشْ بْتِعتقِد نِسبة اللي خان واللي نِسى أو حتى تناسى وتْأَسرَل؟

تعتقد إنه عَلَشان في بداخل مَصِر اللي بيدافع عن إسرائيل بإستماته رَح يخليني هذا أقول إنه المصرين خونة؟

هل من المعقول إني أقول على المصريين اللي نادر إنك تلاقي عيلة فيها ما فَقْدَتِش واحد أو أكثر في حربها ضد الإسرائيليين إنهم خونة لأن فيهم من خان؟

لأن فيهم من نسى؟

لأن فيهم من حاصر أهلنا في غزة وسمح للمحتل إنه يقتل فيهم بينما هو يشاهد..!؟

لاحظت تبرم أحد الجالسين في المقاعد الأولى والذي يبدو أنه أحد المسؤولين، ولكنها تجاهلت ذلك واخذت الميكروفون وبدأت تتحرك به على المنصة وهي تقول:

- حكايات النكبة كتيرة، وكل فَلَسطيني النكبة لسه عايشة بداخله..بنتوارثها من أجدادنا بشكل وراثي بالجينات، وحكايتي زي كل الحكايات..بدايتها كانت من ٦٢ عام واللي هو عام

النكبة..حينما كانت العصابات الصهيونية تقتل الفلسطينين وتقيم المجازر حتى تجبر أهلنا على الهرب، ومن بين كل العائلات كانت هناك عيلة بسيطة..حاولت المقاومة وما كان هناك حل غير الهرب خوفًا من القتل.

أكملت كلامها:

- طلعت هاي العيلة على مركب من المراكب اللي كانت موجودة على شط يافا واللي وجهتها كانت غزة بَسْ قَبل قِيام المركب واحدة من الركاب حَسَت بالآم الوضع..كانت مجبرة تنزل من المركب عَلَشان تولَد وبالفعل نزلت من المركب هي وزوجها وأولادها وكملت المركب طريقها باتجاه الجنوب لغزة محملة بباقي عائلتها اللي هي محرومة إنها تكون معهم حتى هاي اللحظة..هاي السيدة هي جدتي..

والطفلة اللي إنوَلَدت هي إمي..

ومن يومها بتعيش إمي وأنا من بعدها هناك...

ضغطت على مخارج الحروف وهي تضيف:

- جدتي بقيت بيافا في الوقت اللي حُرِمَت فيه من كل أهلها اللي كملوا طريقهم لغزة.

وقفت أسيل في منتصف المنصة موجهة نظرها للحاضرين مستفسرة:

- يا ترى هل لأن جدتي اضطرت للنزول من المركب أصبحت هي وذريتها من بعدها خونة؟ ومن بقي في المركب هو فَلَسطيني مُناضِل؟ هل لأننا ما تَرَكناش أرضنا وقررنا إنُه نعيش ونموت فيها مهما صار..هذا يعملنا خونة..!!؟

***

وضعت أسيل الميكرفون على الطاولة ونزلت من على المنصة حتى تأخذ مكانها بجانب أدهم لاستكمال الأُمسية إلا أن الحشد الذي أحاطها لم يعطها الفرصة للوصول حيث يجلس أدهم مع والدته.. وقفت وسط الحشود التي تزاحمت عليها..كان البعض ينتقد شيئاً مما قالته والبعض الآخر يثني عليها وآخر يسلم عليها وآخر يعرفها بنفسه، ولكنها لم تستطع التركيز مع كل هؤلاء وهي تدور بعينيها تبحث عن أدهم وعن أصدقائها..لم تكن تهتم إلا بهم وبرأيهم..في تلك اللحظة لمحت شيرين وهي تزاحم الحشد، وأحمد يساعدها حتى وصلت إليها فحضنت شيرين أسيل بقوة هامسة:

- كنتي هايلة.

ابتعدت شيرين بعض الشئ عنها لتعطي فرصة لأحمد في الكلام بعد أن شعرت بيده وهو يضغط على كتفها كأنه يستأذنها بالكلام:

- كسبتي الجولة بجدارة بس المعركة لسه مخلصتش.

أجابت أسيل:

- المعركة مِشْ معركتي لحالي ولا مَعرَكِةِ الشعب الفلسطيني لوَحدُه..المعركة هي معركة عربية بالدرجة الأولى.

سمعت صوتًا يقاطعها:

- خلاص بقى إنتي لسه فاكرة نفسك على المسرح ولا إيه؟

ضحكت أسيل عندما سمعت صوت أدهم التفتت إليه قائلة:

- إيشْ يا حضرة الضابط مَالَك داخل عليّ شمال؟

قال أدهم ضاحكًا على تعليق أسيل:

- ماتقوليش بقى حضرة الضابط دي تاني..قوليلي يا متر.

اتسعت عينا أحمد مستغربًا ونظر إلى أدهم بتساؤل وقالت أسيل بدهشة:

- متر..!!

تقدمت والدة أدهم ببطء ناحية أسيل وأمسكت بيدها قائلة:

- أدهم ياولاد قرر يستقيل خلاص ويفتح مكتب محامي.

سألته شيرين:

- بجد؟ ليه كده بس؟

قال أدهم:

- والله أنا لسه هاقدم استقالتي بكرا الصبح وممكن أتراجع فيها في حالة واحدة بس.

ثم نظر إلى أسيل واقترب منها وهو يقول:

- لو أسيل مش موافقة تتجوزني ...

تراجعت أسيل خطوة إلى الوراء غير مصدقة..حاولت أن تقول شيئًا ولكن دموعها التي أغرقت عينيها لحظتها سبقتها فانهمرت بدون استئذان..اقتربت والدة أدهم واحتضنتها وهي تقول:

- جرى إيه يا بنتي مش عاوزة تتجوزي أدهم ولا إيه؟

نظرت شيرين إليها وهي تقول:

- بصي بقى..لو ماقولتيش موافقة دلوقتي حالاً هاتجوزه أنا.

وما أن قالت هذا حتى صدرت منها صرخة ألم خفيفة عندما أمسكها أحمد من يدها بقوة وهو يقول:

- نعم..!! إنتي بتقولي إيه؟ سمعيني تاني كده؟

ضحك الجميع موجهين نظرة لأسيل منتظرين جوابها على طلب أدهم، إبتعدت ببطئ من حضن والدته ونظرت إليهم جميعًا حتى تجمدت نظراتها تجاه أدهم لتقول:

- شَكْلَك انتِحاري يا متر.

- وقلبي ميت كمان.

- رَح تْواجِه مَشَاكِل كْتِير.

- حنواجهها سوا مِش لوحدي.

- رَح اتْضَحي بِشُغلَك عَلَشاني؟

- زي ما إنتِ هاتضحي علشاني لو في مكاني.

- ومين قالَك إنّي رَح أضَحي بأيّ إيشي عَلَشانك.

- لأنك بتحبيني.

- هذا إِسمه غُرور.

- دي ثقة.

- بَحِبْكَاش.

- كدابة.

- لا مِشْ كذابة..أنا بَحِبْكَاش..أنا بموت فيك.

وأحمر وجهها خجلاً وهي تضيف:

- موافقه يا أدهم ...

ضحك الجميع في سعادة وتقدمت والدة أدهم وقبلتها وهي تقول:

- يلا يا ولاد إنتو كلكوا هاتتغدوا عندنا النهارده، وإنت يا واد يا أحمد أنا عملالك الفتة اللي بتحبها مع إن حسابي معاك بعدين.

ونظرت إلى شيرين بحنان وهي تقول:

- تبقى عارف القمر ده وماتقوليش؟ ضحك الجميع وبدأوا في التحرك ولكنهم مروا على مجموعة من الشباب الذين نظروا إلى أسيل واندفع واحد من بينهم يقول:

- مش هتقدري تضحكي على الناس برضه ..

مهما حصل إنتي في النهاية ...

إسرائيلية ...